جمهورية الخرفان

د.م. محمد وجدي شاهين

جمهورية الخرفان

رؤية وتحليل: د.م. محمد وجدي شاهين

إهداء

إلى روح زوج خالتي أهدي هذا الكتاب...

إلى اللواء بحري سيد الفخر اني...

إلى الرجل الذي أوصلني إلى نقطة التحول التي لم أدركها في حينها، ولكنني اليوم أقر وأعترف أنه – رحمه الله وجمعني و أياه و أبواي وأهلي أجمعين في جنته ومتعنا جميعا بالنظر إلى وجهه الكريم – أعترف أنه كان علامة فارقة في حياتي عندما علمني أنني سأُسَأل عن عقلي وعن قناعتي وعما وقر في القلب وصدقه عملي.

إليه أهدي هذا الكتاب الذي هو دعوة لكل من يقرأه... لكي يستعمل عقله

إن هذا الكتاب هو دعوة لنا جميعا، حتى لا نسلم عقولنا لغيرنا مهما علا مقامهم لأننا جميعا سنسُأل يوم موقف عظيم عن أفعالنا وعن قناعتنا ولن ينفعنا أبدا كل من اتبعناهم في الحياة الدنيا.

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾

د.م / محمد وجدي شاهين

تقـــديم

عندما نتفكر في خلق الإنسان و نحاول أن نفهم كيف لهذا الجسد أن يعمل بهذا القدر من التو افق والتناغم بين كل أعضاؤه وأجهزته، فإننا لابد لنا أن نقف أمام هذه المعجزة التي تفوق كل المعجزات التي سمعنا أو قر أنا عنها في الكتب المقدسة، لإن كل ما سمعناه عن معجزات السابقين لن يكون لها حجة المعجزة التي نراها اليوم ونعيشها بل ونعيش بها إن صح القول.

عندما نتفكر في خلق الإنسان فإنه لابد لنا أن نتوقف عند معجزة العقل البشري...!!

ما هذا الإبداع... ما هذا التناغم...ما هذا الإعجاز... !!

كيف يمكن لعضو لايزيد وزنه عن 2.5% من إجمالى وزن جسم الإنسان أن يتحكم في حركات وخلجات وتصرفات الإنسان، بل ويكون ذاكرته ومرجعيته بعد أن زوده الخالق العظيم بقدرات هائلة من الإستقبال والتخزين والتحليل والإقرار وإصدار الأوامر ومراجعتها في خلال جزء من جزء من الثانية وبدون أن يكون لهذه الأوامر تعارضا مع أنظمة الجسم وطريقة عملها أو أن يؤثر ذلك علي قدرات الجسم أو معدلات أدائه.

سبحان الله... والله إن التدبر فقط في قدرة العقل البشري علي تخزين المعلومات وإستحضارها وقت إحتياجها في شكل تناغمي مذهل لن يصل بنا إلا إلى وقوفنا مشدوهين ونحن نقول... سبحان الله.. !!

إن أعظم العقول الإليكترونية في العالم لا يمكن أن تصل إلى هذا الإبداع الإعجازي للعقل البشري الذي يختزن ذكرياتنا وتصرفاتنا وأحداث حياتنا ومانمي إلينا من معلومات وأخبار وعلوم مثله في ذلك مثل أي عقل إليكتروني. ولكن هل يوجد عقل إليكتروني يستطيع أن يشعر بالمعلومات المخزنة داخله وأن يستشعر مواطن الخير والشر فيها وأن يربط بين مايأتيه من معلومات ومافيه من ذكريات. هل يوجد عقل إليكتروني - مهما وصل الإنسان إلى أرقي مر اتب العلوم والتكنولوجيا – يستطيع أن يقدر النو ايا ويحلل العاطفة ويراعي المشاعر.

إن كل أمراض الدنيا يمكن للإنسان أن يتعايش معها مهما وصلت إلى مراحل متقدمة من الشراسة وبما يهدد صحة الإنسان في العموم. ولكن عندما يفقد الإنسان عقله سواء بأن يصيبه الجنون أو يهاجمه مرض نفسي أو يفقد الذاكرة وتتواهي قدرته علي التذكر (الزهايمر)، فإنه وقتها يصبح جسد بلا عقل فلا يقبل منه رأي ولايؤخذ منه عدل لإنه يصبح حينها إنسان غير مسئول عن كلامه أو أفعاله بعد أن فقد هذه النعمة التي فضله بها الله علي كافة المخلوقات بأن جعله إنسان...عاقل.

ويكمن الإعجاز في خلق العقل أن الخالق العظيم قد جعل من آلية إستقبال وتخزين المعلومات نظاما خاصا جدا بالعقل البشري فقط لايجاريه في ذلك عقل إليكتروني أو أي عقل أخر كائنا ماكان، وذلك لإن المعلومات يتم تخزينها في العقل البشري كتغيرات تحدث في التشابكات العصبية للخلايا التي يصل طولها إلى ملايين الأميال في إبداع من الخالق لايناظره إبداع، بحيث أنه عندما يري الإنسان شيئا لأول مرة في حياته يحدث تنشيط لمنظومة عصبية معينة داخل خلايا عقل الإنسان.

فإن تكرر حدوث ذلك الشيء حدث التنشيط ذاته لمنظومة الخلايا فيقوي تشابكها وتصبح قادرة على استدعاء الحدث الأصلي بل وربطه بما توفر لكل خليه من مؤثرات مستجدة سواء في نفس الحدث أو في أحداث مقاربة وهذا هو ما يكون ذاكرة الإنسان حتى يصبح مجرد مس أي جزء من هذه المنظومة كافيا لإثارة المنظومة كلها واستدعاء ما فيها من معلومات وذكريات بل وتحليلها وإعطاء الأوامر بناء على ذلك كله.

كل أحداث حياتنا وذكرياتنا بما تتضمنه من صورومعلومات وأشخاص ومو اقف وأرقام وكلمات يتم تخزينها في صورة إشارات تستقبلها خلايا هذا الجهاز الإعجازي بدون أي تسجيل مادي لها أو عضوي مثلما هو الحال مع الحواسب الإليكترونية التي ينصحنا العلماء دائما بأن نحتفظ بنسخة من المعلومات بشكل منفصل على إسطو انة مدمجة تحسبا لأي أصابه تفقدنا ما جمعناه من معلومات فيضيع معها تعب السنين.

ولهذا نجد أن الإنسان في مرحلة النشأة يكون أقدر ما يكون على استقبال الكثير من المعلومات وتخزينها حتى ولو لم يستطيع الاستفادة منها في حينه لإن المقصود في هذه المرحلة هو توسيع مدارك الإنسان وتأسيس منظومة المعلومات لديه بما يمكنه من تنشيطها متي احتاج لها في الكبر. لذا، فإنه كلما قمنا بتنويع مصادر الإدراك لدينا وزيادة موارد المعرفة من قراءات ومشاهدات وتحليلات وكلما أفردنا مساحة أكبر من حياتنا

للبحث والتمحيص و أنه كلما عودنا عقولنا على التفكير المتنوع واستدعاء ما لدينا من معلومات وعقد المقارنات بينها، فإننا نتمكن مع الوقت من بناء القوة الإدراكية للعقل التي تصبح مع الوقت هي مفتاح شخصية الإنسان وجوهر عقيدته.

لقد خلق الله الإنسان بعقل يفكر حتى يصل إلى مرحلة الإدراك والمعرفة، وقلب يستشعر مواطن الأيمان في حدود المعرفة التي وصل إليها العقل فيغلفها باليقين الذي يجعل من المعرفة محركا سويا للجسم ليتحرك في مهمته التي أوكلها إليه الله سبحانه وتعالى من إعمار الأرض بناء على إدراكه ويقينه وعمله.

فإن غفل الإنسان عن المهمة التي أوكلها له الله من إعمال نعمة العقل التي أنعم به عليه العزيز القدير، فلم يفكر ولم يعقل ولم يتدبر وجعل من عقله مجرد محركا بيولوجيا لأجهزة جسمه و ترك مهمة التفكير والتدبر لغيره من البشر ليفكروا ويأتون له بالأفكار الجاهزة للتطبيق في شكل عقيدة إنسانية أو نظرية فلسفية أو رسالة حزبية، فهو بهذا قد أغفل الدور الذي أوكله الله لعقله والذي سيسأل عنه يوم القيامة هو وحده كما سيحاسب عليه أيضا وحده , مهما كانت حجته ومهما كان قدر من تبعهم لإن الله سبحانه وتعالى عندما أعطانا العقل في شكل منحة وعطية إلهيه لم يعطها لأحد من خلقه غير بني أدم، فإنه قد قرن نعمة العقل بأمانة التكليف وما تبعها من أعمال العقل في التدبر والتفكير.

يقول الدكتور محمد راتب النابلسي أن ((القوة الإدراكية للإنسان هي مكمن الرفعة التي يمكن أن نفرق بها بين إنسان و إنسان)). القوة الإدراكية لما اجتهد في الوصول إليه من علم، والقوة الإدراكية لما عمل على أن يستقر في قلبه من الإيمان، والقوة الإدراكية لما حاول جاهدا أن يخفيه من نو ايا لا يصح بدونها عمله. والإنسان بين علمه ويقينه ونيته يسير في حياته متأرجحا باحثا عن الحقيقة ساعيا إليها كلا على قدر اجتهاده وبناء على ما توفر لديه من علم وما تحقق من سعي في تمحيص هذا العلم حتى يرتفع بعلمه إلى مرحلة الإدراك.

فإذا ما وصل الإنسان إلى مرحلة الإدراك وجب عليه التدبر والتفكر حتى يرتقي من مرحلة الإدراك إلى مرحلة الاستبصار، لإن تدبرنا وتفكيرنا في أمور ديننا ودنيانا هو إعلان قبولنا الأمانة التي خص بها الله سبحانه وتعالى بني أدم من نعمة إعمال العقل حتى جعل من عقله هو الحكم في كل ما أدركه من علوم.

أما عندما يكون تحصيلنا للعلم بغرض إحداث الفارق للوصول إلى الوجاهة والسيادة المجتمعية، فهذا هو العلم الذي يعطينا الأفضلية في الحياة الدنيا ولكنه لن يفيد في الدار الآخرة إلا إذا صادقت نو ايانا على أعمالنا.

أما هؤلاء الذين ارتضوا أن يستبدلوا عقولهم بعقول الآخرين ليسيروهم كما يشاؤون ويجعلون منهم أفراداً في قطيع يسيرون به وفق رؤيتهم ووفق عقيدتهم فإن هؤلاء هم المغيبون الذي قبلوا أن يتنازلوا عن النعمة التي فضلهم بها الله علي كافة مخلوقاته. هؤلاء هم من قبلوا أن يتنازلوا عما ضمنه لهم الغفور الرحيم من المغفرة والرحمة لكي يستبدلوها بصكوك للغفران ممن لا يملك حق منح هذا الصك.

هؤلاء هم من قبلوا أن يعيشوا في قطيع تحركهم عصا الراعي وجزرته فلايرون إلا ما يري ولا يسمعون إلا ما يسمع.

يقول الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في تصنيفه لأنواع البشر: ((الناس ثلاثة، عالم رباني، ومتعلم على سبيل النجاة وهمج رعاع أتباع كل ناعق لم يستضيئوا بنورولم يلجؤوا إلى ركن وثيق)).

لقد أوجز الإمام علي في تعريفه لأحوال البشر بأن جعل من مقدار إعمالنا للعقل هو الحكم. فمن تدبر وتفكر كان ربانيا لإن إعمال العقل هو دليل قبول الأمانة، ومن رغب في العلم وعمل على الاستزادة من المعرفة لكي يقال عنه أنه عالم فقد أبصر طريق النجاة ولكنه لن يدركه إلا إن صحت نيته وصادقت على عمله. أما هؤلاء الهمج الرعاع ممن قبلوا أن يعيشوا وفق ثقافة القطيع وقد قبلوا جميعهم أن يجعلوا من عقولهم مراكز استقبال وتخزين لكل ما يأتيهم من أفكار وعقائد وأوامر، فهؤلاء هم غثاء السيل.

النشأة

جمعني يوما لقاء مع أحد الأصدقاء المنتمين إلى واحدة من الجماعات الراديكالية التي تعمد إلى أن تعطي لنفسها سمة التدين في إسمها قبل فعلها مثلها مثل جميع الجماعات والحركات التي تعطي لنفسها الصبغة الدينية حتى تجعل من اسمها دليلا علي سلامة نيتها وصحيح أفعالها بدلا من أن تترك الأمر لمن يريد أن يتعرف عليهم ليري من فعلهم ما يدل على سمتهم.

فعندما تري أي جماعة أو حزب أو كيان يسمى بالكيان الإسلامي أو الكيان المسلم أو أيا كان من المسميات المنتشرة اليوم على الساحة السياسية المغلفة بغطاء ديني فإنك ستشعر مباشرة أنهم ما وصفوا أنفسهم بكونهم المسلمين إلا لكي يصبح أي فعل يأتونه هو دليل أيمانهم ويصبح غيره هو النقيض وبالتالي يصبح من يخالفهم ليس من شيعتهم... وقد يتدرج به الرفض ليصبح ليس من المسلمين.

عموما، دار الحوار بيننا على نحو هادئ ونحن نتحدث عن أمور الحياة وعن الأسباب التي أوصلتنا إلى ما نحن فيه من تردي في مستوي الأخلاقيات وتدني لغة الحوار و انحدار أساليب التعامل بين البشر إلى أدني مستوياته الإنسانية حتى أصبحنا لا نصدق في اختلاف وجهات النظر وأصبح جميعنا يري جميعنا على خطأ إن نحن فقط اختلفنا.

- أنا: "الناس حتقطع بعض يا أبو حميد...ماحدش بقي مستحمل كلمة من حد"
- صديقي: "هي دي الضريبة اللي لازم ندفعها بعد ما بعدنا عن الدين"
- أنا: "يمكن... !!"
- صديقي: "لأ موش يمكن... هوه ده اللي بيحصل لما نبعد عن طريق الدين وتتملي قلوبنا بأفكار العلمانيين اللي مايعرفوش ربنا."
- أنا: "بس أنا بأتكلم عن كل الناس، المتدينيين واللي أقل منهم تدين واللي موش متدينين أساسا."
- صديقي: "اللي بيعرف ربنا بصحيح، قلبه بيساع كل الناس وبيعرف إزاي ياخد ويدي لإنه بيكون علي يقين أنه علي الحق وده بيخليه يسمع كويس ويقدر يفهم ويعرف إزاي يرد علي ضعاف الإيمان لأنه يري بنور الله."

- أنا: "بالرغم من إني مختلف معاك جزئيا في موضوع يري بنور الله دي، لكن حكاية إنك تدي الأفضلية في أي حوار للشخص اللي شايف نفسه بيعرف ربنا دي... أنا أسف يعني... ده قمة الإستبداد الفكري"
- صديقي: "يعني أيه... إنت عايز تسوي بين المؤمن والكافر... عايز تسوي بين من يعلم ومن لا يعلم"
- أنا: "الموضوع مالهوش علاقة بالدين ولا بالتدين... الموضوع أكبر من كده
- صديقي: الدين هو أساس العقيدة... الدين هو أساس الفكر... الدين هو أساس الحياة. إنت شكلك كده حتخليني أغير فكرتي عنك، ده أنا كنت متوسم فيك وفي فكرك ودينك خير كتير"
- أنا: "هوه أنا لما أقولك إني مختلف مع اللي بتقوله ولو جزئيا يبقي تغير فكرتك عن ديني...سبحان الله"
- صديقي: "يا أخي الكريم لو حكمنا الدين في أفعالنا لما كان بيننا إختلاف
- أنا: إيه الكلام الفارغ ده، ياعم ده في إختلافنا رحمه"
- صديقي: "إختلافنا في التطبيق جايز لكن إختلافنا في الفكر ده كده يبقي خروج عن الجماعة"
- أنا: "بص ياعم، اللي إنت بتقوله ده هو بالظبط اللي أنا عايز أقوله"
- صديقي: "طب كويس، كده يبقي متفقين"
- أنا: "لأ، كده إحنا مختلفين جمله وتفصيلا، خليني أوضح لك قصدي من فضلك
- صديقي: "توضح أيه وأول القصيدة كفر"
- أنا:" يا عم أصبر بس خليني أقولك قصدي أيه قبل ماتكفرني"
- صديقي: "الأول لازم نتفق علي المبدأ، وبعدين نتكلم في التفاصيل. إذا إتفقنا على أن الدين هو أساس كل شئ و أنه بدون المرجعية الدينية يبقي علي الدنيا السلام...كده ممكن نكمل كلامنا...لكن حتقولي الإختلاف والديمقراطية والبطيخ...سامحني بقى"
- أنا: "بوص بقي... بلاش نز ايد علي الدين لإن الموضوع ده مفروغ منه وماحدش يقدر يجادل فيه ولكن لازم تعرف إن المسلم السني له دينه والمسلم الشيعي له دينه

والمسيحي له دينه واليهودي له دينه...ياأخي ده حتى اللي مابيصدقش في الدين بيبقي ده دينه"

- صديقي: "أستغفر الله العظيم... أستغفر الله العظيم... ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِناً كَمَن كَانَ فَاسِقاً لا يَسْتَوُونَ﴾.
- أنا:" شوف يا شيخنا، لما نتكلم عن مجتمع وعادات وتقاليد وثقافة وما إلى ذلك، بلاش تدخل الدين كمرجعية لإن المجتمع بيضم كل الأديان واللا أديان وكل الثقافات واللا ثقافات... المجتمع ده الصينية اللي فيها حتتتين لحمة وخمسين شريحة بطاطس وكام شريحة طماطم علي شوية حلقات بصل علي رشة ملح علي فلفل إسود علي بهارات... كله علي بعضه كده يعمل لك ورقة لحمة تستاهل بقك... تخيل لو شيلت رشة الملح علشان دول موش زي اللحمة... تبقي الطبخه كلها باظت يا معلم"
- صديقي: "إيه ياعم حلقة أبلة نظيرة اللي إنت فتحتها دي... بطاطس إيه ولحمة إيه... للدرجة دي بتستهين بدينك وخليته زي صينية البطاطس... الدين ده أعم وأشمل...الدين ده منهج حياة ولو كره الكارهون."
- أنا: "بس أنا للمرة المليون باقولك إن أنا موش بكلمك في الدين، أنا بكلمك علي فساد أحوال المجتمع بكل طوائفه بمثقفينه بعماله بفلاحينه بشبابه بعواجيزه... حتى بأطفاله... أنا بكلمك على إنعدام لغة الحوار والتفاهم بين أطياف المجتمع كله علي بعضه، المسلم على المسيحي علي الليبرالى زي ما أنتوا بتسموهم دلوقتي."
- صديقي: عندك حق، الناس ماعدتش بتعرف تتكلم مع بعض خلاص... الناس ما عدتش بتسمع بعض في الحقيقة زي مايكونوا لغوا الودان خلاص وبقت موجوده بس علشان يعلقوا عليها النظارات.
- أنا: الله... الله... ده إحنا بنهزر أهوه... ماشي يا عم الفكيك

إلى هنا وكان الحوار هادئا حتي وإن بدا أنه لم يكن حميميا ولكن علي الأقل إستطعنا أن نصل إلى أرضية واحدة يمكن أن نقف عليها لنبدأ حوارا أعتقد أنه غير من منظوري وطريقة تفكيري عن التدين ومعناه وحقيقته وتطبيقاته.

لقد جعلني صديقي - الذي يدعي لنفسه التدين بل ويجعل من الدين مرجعيته الأساسية في كل شئ - أفكر ألف مره قبل أن أضع نفسي في مثل هذا الموضع...جعلني أفكر جديا في

مفهوم التدين بل جعلني أري أن وصف المتدين الذي يعنيه صديقي هذا لا يمكن أن أقبله إن هو حرمني نعمة التفكير ومنعني من العطية الألهية التي منحنا أياها القادر العزيز من نعمة التدبر وإعمال العقل والتبصر وهذه كلها نعم لايمكن إستخدامها أو تفعيلها إذا لم نقبل بوجود مبدأ الإختلاف بين البشر.

والحق يقال، أن صديقي هذا قد نبهني إلي <u>جوهر المشكلة بين من جعلوا الدين علامة لأفعالهم من جهه ومن جعلوا أفعالهم علامة لدينهم من جهه أخري</u>...

إن المشكلة هي كما أخبرني صديقي في أن الإختلاف مقبول في التطبيق ولكنه لا يمكن أن يكون مقبولا في الفكر... هذا هو لب الموضوع... هذا هو لب الإختلاف.

إن فكر الجماعات التي أصبغت نفسها بطابع ديني أيا كان ديانتها، إسلام، يهودية، مسيحية، بوذية، هندوسية أو حتى الجماعات اللا دينية...كل هؤلاء الجماعات مع إختلاف أفكارها ومعتقداتها ومرجعياتها إلا أنها جميعا علي قناعة أن ما تعتنقه فقط هو صحيح الفكر وأن مادونها باطل وهذا في حد ذاته هو الخطأ بعينه لإن الفكر لايمكن أن يكون حكرا علي أحد.

فحرية الفكر هي مكرمة إلهية منحنا أياها الله العزيز الحكيم ولم يعطها لأي من خلقه سوي أدم وبنيه عندما أعطانا نعمة العقل... نعمة العلم... بل أن العزيز الحكيم قد أعطانا نعمة التفكير والإختيار والقرار ومن ثم تحمل تبعة قراراتنا.

فإذا ما صدقنا في نعمة العقل التي منحنا أياها العزيز الحكيم، فإننا لا يمكن أبدا أن نتجاهل الحكمة من هذه النعمة ألا وهي التفكير والتدبر وإعمال العقل، وهو ما لا يكون إلا عندما نوقن أن الإختلاف الفكري واجب و أنه حق إنساني لا يمكن حجبه.

لهذا كان الإختلاف من وجهة نظري هو في الفكر في الأساس أما التطبيق فهو نتيجة... أو محصلة لما يهدينا إليه فكرنا. فمن كان علي قناعة بأن الإختلاف يكون فقط في التطبيق وليس في الفكر فهو كمن يصدق في إمكانية الإنجاب بدون حمل... أو كمن يصدق أن إستنساخ النعجة يغني عن سنة الله في خلقه... أو كمن يصدق أن الخرفان تستنسخ ولا تولد... وقد يكون هذا هو مذهبهم في تكوين جمهوريتهم من الخرفان.

والغريبة في الحوار الذي دار بيني وبين صديقي أن الحوار بدأ و إنتهي ولم أستطيع خلاله أن أوضح له مقصدي عندما كنت أخبره عن تدني مستوي الحوار أو دعونا نسمي الأمور

بحقيقتها ونقول بمنتهي الصراحة إنعدام الحواريين طوائف المجتمع المختلفة وهذا هو الموضوع الذي كنت أنتوي مناقشته فيه ولكنه كالمعتاد قد ذهب بنا إلى حيث يستطيع هو أن يجادل ويفرض رأيه عن طريق وضع الدين كمرجعية أساسية لأي نقاش وبطبيعة الحال فإن الغلبة ستكون لمن يسمي نفسه إسلاميا لإن الآخر لن يكون له نفس المرجعية التي لن تظهر في مسماه أو سمته.

ولهذا وجدتني أعيد الكرة مرة أخري مع صديقي في محاولة أخيرة لأن أضعه علي أول طريق التحاور وقبول الآخر وهو الأمر الذي يدعيه قولا ولكن يفتقده فعلا.

- أنا: يا صديقي العزيز، إنت فاكر صلح الحديبية اللي تم بين الرسول صلي الله عليه وسلم وبين كفار مكة
- صديقي: طبعا، وده يوريك قد أيه سماحة الإسلام وميله للسلم
- أنا: تمام، أتفق معاك ولكن
- صديقي: لكن أيه بقي...إعترض بقي علي دي كمان
- أنا: يا أخي إسمع... إفهم الأول اللي أنا عايز أقوله وبعدين إعترض.. هوه الإعتراض عندكم فريضه
- صديقي: عندكم...مين عندكم دول...هوه إنت لازم تشخصن أي نقاش
- أنا: لا حول ولا قوة إلا بالله...طب خليني أقولك بس أنا عايز أقول أيه وبعدين إعترض بكيفك... ممكن؟
- صديقي: إتفضل... سمعنا
- أنا: صلح الحديبية بدأ لما أرسلت قريش سهيل بن عمرو لعقد الصلح مع المسلمين وهو واحد من ألد أعداء المسلمين و أكثرهم تطرفا في حينه طبعا
- صديقي: طبعا، ده حتى كان حابس ولاده الإتنين علشان ما يهاجروش مع الرسول صلي الله عليه وسلم
- أنا: تمام، الله ينور عليك ولاده عبدالله بن سهيل بن عمرو و أبو جندل
- صديقي: طب ده إنت مذاكر تاريخ الصحابه كويس أهوه... ربنا يهديك
- أنا: يا عم وهو حد قالك أن إسمي كوهين ولا إليشع...يا عم أنا محمد و أبو والدي أسمه علي كمان.

- صديقي: طب يا عم الشيخ...إتفضل إشجينا فتح الله عليك.

بالطبع فإنه عندما أخذ الحديث هذا المنحني الديني فقد فتح هذا شهية صديقي الذي تصور أنني أنازله في ساحته التي لن أستطيع أن أنال منه لإنه هو المتمكن من أدو اته في هذه الساحة والدليل أنه إسلامي.

- أنا: لما بدأ الطرفين في كتابة صحيفة الصلح قال علي بن أبي طالب أكتب بسم الله الرحمن الرحيم، ولكن سهيل بن عمرو رفض وقال ((أما الرحمن، فما أدري ما هو؟ ولكن اكتب: باسمك اللهم كما كنت تكتب)) فرفض المسلمون إلا أن تكتب بسم الله الرحمن الرحيم حتى تدخل رسول الله صلي الله عليه وسلم وقال بل أكتبوها بأسمك اللهم... فكتبها علي.
- صديقي: ماشي... كل ده معروف وكمان رفض سهيل بن عمرو أنه يكتب هذا ما قاضي عليه محمد رسول الله وقال لو علمنا أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولكن أكتب محمد بن عبد الله
- أنا: الله ينور عليك...أيوه كده...إبتدينا ناخد وندي أهوه... وطبعا إنت عارف إن الرسول صلي الله عليه وسلم قال (إني رسول الله، وإن كذبتموني... اكتب محمد بن عبد الله)
- صديقي: طبعا لإنه لن ينال منه تكذيبهم... فهو رسول الله ولو كره الكافرون.
- أنا: تمام...تمام... ولكن ليه بأقولك القصة دي ؟
- صديقي: قول لي...كلي أذان صاغيه
- أنا: مغزي القصة دي يا صديقي العزيز إن الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم لم يرفض رأي الآخر ولم يحقره بل بالعكس سمع وتحاور...و أكثر من كده كمان... أقره بالرغم من إختلافه كليا وجزئيا مع فكر المسلمين وجماعتهم...موش بس إختلف مع فكرهم...ده إختلف مع عقيدتهم... مع مدلول العقيدة لما و افق الرسول صلي الله عليه وسلم إن يكتب الصلح بدون ما يكتب محمد رسول الله اللي هي نصف الشهادة.
- صديقي: ده كان فتح من ربنا سبحانه علي نبيه الكريم علشان يمكن للمسلمين بعد كده من فتح الجزيرة كلها و إيصال الإسلام لكل قبائل العرب بعد ما يأمن شر

قريش... ده حتى بعتوا رسائل للفرس والروم والحبشة ومصر علشان يهدوهم للإسلام.

- أنا: تمام... كلامك كله مظبوط...لكن إنت عرفت الكلام ده بعد كده لكن وقت الصلح ماحدش من المسلمين كان عارف كل الكلام ده...حتى إن عمر ثار وهاج لو تفتكر
- صديقي: أيوه... إيوه...تقصد لما قال ((لما نرضي الدنية في ديننا))
- أنا: بالظبط كده... لكن أنا عايزك تبص للموضوع بنظرة تانيه خالص... عايزك تبص لآليات الحوار والنقاش والمصالحة والمهادنة .. عايزك تلاحظ جمال ديننا ... رقته ... سماحته ... رفقه بالآخر حتى وإحنا متأكدين أنه علي باطل... عايزك تبص لحكمة الرسول عليه الصلاة والسلام لما قبل من الكافر اللي هوه متأكد من كفره زي ما هوه متأكد إنه رسول الله.
- صديقي: عايز تقول إيه، أنا موش فاهمك بصراحه
- أنا: الحوار يا صديقي مالهوش دعوة في الأساس بموضوع مؤمن وكافر، الحوار له علاقة بآليات، بأبجديات، ببديهيات ... الحوار لازم يكون في إتجاهين ... مافيش حوار في إتجاه واحد أبدا
- صديقي: بديهي
- أنا: يبقي لما تتحاور مع حد في أي موضوع، لايمكن تفرض عليه أنه يتفق معاك الأول علي المرجعية لإنه لو إتفق معاك أصبح الحوار في إتجاه واحد ... يعني بقي مافيش حوار في الأساس
- صديقي: ياعم ماتزعلش، بلاش موضوع المرجعية دي خليني أنا في مرجعيتي الدينية وخليك إنت في مرجعيتك العلمانية الليبرالية
- أنا: لا حول ولاقوة إلا بالله ... منين بس جبت التخاريف دي ... ياعم إسمعني الأول وبعدين أحكم علي مرجعيتي إنها دينية ولا علمانية ولا بطيخ
- صديقي: ماشي ... ماشي ... سيبنا من المرجعية وقولي بقي مغزي كلامك ده كله أيه
- أنا: هوه إنت لسه مافهمتش ... هوبا ... كده تبقي الحالة مستعصية

إن المشكلة تكمن في الأساس في التكوين النفسي والذهني والعقلي لهؤلاء المنتمين إلى الجماعات التي تصبغت بالطابع الديني لإنهم قد تربوا علي فكر السمع والطاعة، لقد تم

تدريبهم علي إيقاف خلايا التفكير في المخ بعد أن تم تفريغ خلايا الذاكرة من محتوياتها ومن مرجعيتها الدينية أو السياسية وإعادة حشوها بالفكر الأوحد لمؤسس هذه الجماعة حتى يصبح كل من ينتمي لهذه الجماعة فردا في قطيع يأتمر بأمر قائده ويفعل ما يطلب منه دون نقاش أو جدال لإن الجدال عادة مايكون دليل الخروج علي الجماعة .. والخروج علي الجماعة دليل بطلان العقيدة .. وبطلان العقيدة دليل الكفر، فيصبح الجدال في مضمونه هو دليل الكفر.

وأعتقد أن مشهد أحمد راتب وهو يقول لعادل إمام في فيلم الإرهابي ((لا تجادل ولا تناقش يا أخ علي)) هو المشهد الذي يصور طبيعة النقاش بين المنتمين إلى هذه الجماعات فيما يسمي بماستر سين فكر الجماعات.

إن الباحث في أمر بداية أي دعوة دينية أو سياسية أو فلسفية سيجد أن هذه الدعوة تبدأ في الأساس من قناعة شخصية جدا لصاحب هذه الدعوة والتي تأخذ في التعاظم رويدا رويدا من كونها فكرة فلسفية تصبح بعدها رؤية تتملك منه لتصبح له منهجاً إلى أن تتحول إلى عقيدة مستبدة تتملك عليه عقله وحياته فلايري إلا من خلالها ولا يعقل إلا بها ولا يقبل أي رأي معارض لها فيبدأ بعدها في الدعوة إليها بعد أن تتملكه ويقتنع أن دعوته هي لخير البشرية وإن هو منعها فكأنما قد منع عطية إلهيه أرسله بها الله ليهدي بها الناس ويبصرهم طريق الحق.

<u>إن أصحاب هذه الدعوات يتصورون أنهم خلفاء الرسل علي الأرض</u>... هذا إن لم يقتنع بعضهم أنهم في الأساس رسلا من الله ... وكلاهما في الغي سواء.

والغريب في أمر كل هذه الدعوات الإنسانية، أنها جميعا تتشابه في آليات النشأة والبداية. كل النظريات الفلسفية أو الدعوات المجتمعية أو الحركات التبشيرية أو الدعوية التي تنتهج نهجا دينيا سواء كانت إسلامية أو مسيحية أو يهودية أو بوذية أو حتى طبيعية... كلها تبدأ من نقطة الإستبصار حيث يقتنع صاحب الدعوة أنه قد بصر بما لم يبصر به أحد من القوم و أنه قد أعطي هذه المنحة الآلهية علي علم عنده حتى يستطيع أن يقوم بدوره في هداية البشرية.

كل الدعوات الإنسانية بدأت جميعها بفكر الدعوة إلى المذهب الذي إبتدعه مؤسس هذه الجماعة وإعتنقه مريديه . كلها بدأت علي أنها حركات دعوية إجتماعية تهدف إلى خلق

فكر عقائدي جديد يدعو إلى المجتمع الفاضل حسب رؤية مؤسس الجماعة . و اللافت للنظر أن كلهم بدأوا من نفس النقطة... النهضة بالإنسان... النهضة بالمجتمع... النهضة بالأخلاقيات.. والمدهش , أنهم جميعهم إتفقوا علي عدم التطرق في بداية الدعوة إلى السياسة أو إلى الإنخراط السياسي.

فبداية أي دعوة تكون عادة بمخاطبة الفرد ومداعبة أحلامه في و اقع مشرق و غد أفضل، وبطبيعة الحال فأنه لا يمكن أن ننهض بالتطبيق إلا إن صلح الفكر. ولأن الفكر هو نتاج العقيدة، فإن جميع هذه الدعوات قد عمدت إلى التركيز علي مفهوم ومضمون العقيدة الإنسانية في المقام الأول، فإن إستطاع صاحب الدعوة أن يسيطر علي فكر متبعيه، فإنه بهذا يكون قد إستطاع خلق نقطة الإنطلاق التي يستطيع منها أن ينشر منهجه ويجعل منها مذهبا يتبعه من يتبعه في زمنه و يسير علي خطاه من يعتنقون فكره في الأزمنه اللاحقه.

ولكن مكمن الخطورة في كل هذه الدعوات الإنسانية علي مختلف مرجعيتها يأتي في مرحلة ما بعد النشأة، أو مايمكن تسميته مرحلة تطور الدعوة بما تحويه من أفكار صائبة أو ما إلي غير ذلك من تحولات في المنهج تؤدي إلي الإنحراف في الفكرة الفلسفية الأساسية التي نشأت عليها الدعوة في الأساس بدون أن يدري أحد عن هذه التحولات.

تكمن الخطورة في المحاولات التي يقوم بها منظري الدعوة لتطوير مفردات الفكرة وإعتناق أجزاء معينه تعنيهم من عموم فكر هذه الدعوة وتعظيمه وتغليبه علي أصل الدعوة التي أصبح لها تابعين ومريدين يعتنقون المذهب ككل و قد بدأوا في جني ثمار عقيدتهم التي يصدقون أنها هي الصحيحة ودونها الباطل. تكمن الخطورة عندما تتحول الفكرة من رؤية شخصية لصاحبها إلى عقيدة يتبعها مجموعة ومستعدين لأن يضحوا من أجل إثبات صحة عقيدتهم بكل نفيس وغالي.

إن أي فكرة بشرية لا تمثل خطورة بذاتها طالما ظلت في إطار الأفكار أو المذاهب الفلسفية أو الرؤي الإصلاحية التي تهدف إلى تفسير الو اقع الذي نحياه للوصول إلى غد أفضل. يتماثل في ذلك فكر أصحاب العقائد الإنسانية مع فكر الفلاسفة منذ أيام أرسطو أحد أعظم المفكريين في العالم والذي ساهم بمفرده في تنوير العالم منذ بداية دعوته في العام 360 قبل الميلاد وحتي يومنا هذا.

أرسطو الذي أسس واحدا من اهم مراكز الابحاث العلمية والبيولوجية والتاريخية والشؤون الحكومية والادارية، والتي كانت تناقش كل المواضيع التي يتطرق اليها العلم في ذاك العصروقد دونها في كتبه ومؤلفاته بعد ان قام بتحليلها ووضع النظريات الفلسفية والعلمية والمنطقية التي توضح فكره وتثبت أراءه، ولهذا سمي بالمعلم الأول حيث يعتبر واحدا من اشهر الذين كتبوا الأبحاث في السياسة والمنطق والعلم والفلسفة.

و أفلاطون الذي تحدي طبقة الأرستقراطيين التي ينحدر منها وجعل من مكانته وإمكاناته سبيلا لكي يبحث عن سبل إيجاد المدينة الفاضلة بما تحويها من مذاهب سياسية ومذاهب مجتمعية وشرائع حاكمة وعقائد إنسانية حيث حكي لنا في كتابه الجمهورية عن الدولة المثالية والمدينة الفاضلة حتى أنه تكلم عن الجمهورية والإشتراكية والشيوعية وشيوعية النساء إلا أنه قد ربط جمهوريته بالآلهه التي كانت في ذلك الوقت هي رمز الكمال كما و أنه قد أغفل ربط السياسة بالإقتصاد مثلما فعل بعد ذلك إبن خلدون في مقدمته الشهيرة والتي لو كان فعلها أفلاطون لكان أحدث طفرة في علم السياسة في وقته.

وسقراط الذي يعتبر من أهم مفكري العالم حتى وقتنا هذا، والذي كان يعتقد بوجود مدبرواحد للكون وإن كان مرغما علي الإعتراف بألهة الأغريق في وقتها حتى لا يعادي فكر الدولة التي كان يحيا وسطها. ولكنه كان يغذي فكره بما يراه من حقائق المعيشة التي إعتاد أن يكتشفها في جولاته بين العامة وهو ما جعل فكره محببا للناس حتى إنقلب عليه النظام الحاكم لإنه كره النظام الديمقراطي الذي رأه ناقصا ولا يخدم كل شرائح المجتمع فما كان منهم إلا أن حكموا عليه بشرب السم لإتهامه بثلاث تهم، انكاره للآلهة، ودعوته إلى إله جديد، و افساده للشباب الذي فتن به والتف حوله مأخوذا بسحرافكاره وحواره. ويكفي أن نعرف أن سقراط كان يهتف وهو يحتسي السم قبل موته... المجد لمهندس الكون الأعظم.

ولم يخل تاريخ العرب أيضا من منظري الفلسفة الأغريقية الذين إجتهدوا لأن يكون لهم مكانتهم في تاريخ الفلسفة والرؤي الإنسانية التي شكلت وجدان الحضارة الإنسانية فنجد الفارابي الذي لقب بالمعلم الثاني بعد أرسطو لما أشتهر به من إستيعابه للمذاهب الفلسفية وقدرته علي إعادة صياغتها بما يتماشي مع العقائد المتبعة في زمنه حيث كان

يعتبر كتابه أراء أهل المدينة الفاضلة إمتداد لفكر أفلاطون وإعادة إحياء له بنظرة عربية تؤكد أن الفكر لا وطن له وأن الدين لا يتعارض مع الفكر الفلسفي.

و إبن رشد الفيلسوف الإسلامي الأندلسي الذي يعتبر واحدا من أهم فلاسفة المسلمين الذي إختلف عليه الناس وإن كان فكره لايزال باقيا لإنه كان فكرا متحررا من قيود التبعية الفكرية عندما صحح فكر الفارابي و إبن سينا في نظرتهم لأفكار أفلاطون وأرسطو وذلك حينما أقدم علي تفسير أثار أرسطو حتى أتهمه علماء الأندلس في وقتها بالكفر والإلحاد عندما أدعي أن هناك نوعين من معرفة الحقيقة، الأولي هي معرفة الحقيقة استناداً على الدين المعتمد على العقيدة وهو ما لا يمكن إخضاعه للتمحيص والتدقيق والفهم الشامل. أما المعرفة الثانية للحقيقة هي الفلسفة، والتي يملكها عدد من النخبويين الذين يحظون بملكات فكرية عالية تمكنهم من حفظها من خلال نظراتهم الفلسفية المتجردة . فما كان جزاؤه إلا أن تحرق كتبه ويشرد من الأرض ولكن سنة الكون دوما كانت ولاتزال في أن الفكر أبدا لا يموت فكان أن أحرقت كتبه ولكن ظل فكره موجودا حتى يومنا هذا.

ولم تقف الحركة الفلسفية فقط علي العلماء والمفكرين العرب المسلمين، بل كان هناك أيضا منصور بن سرجيوس الذي عرف فيما بعد بيوحنا الدمشقي والذي كان من أعظم فلاسفة العرب اللاهوتيين وهو أول من جمع خلاصة الفكر اللاهوتي للكنيسة اليونانية القديمة حتى إعتبرته الكنيسة اليونانية واللاتينينة واحدا من قديسيها.

وفيلسوف العرب أبو يوسف يعقوب الكندي إبن إسحق أمير الكوفة في زمن الخلافة العباسية والذي إعترف به فرانسيس بايكون وبأرائه وجعله في الصف الأول من الفلاسفة مع بطليموس وأرسطو وسقراط حيث كانت له العديد من الرسائل في إلهيات أرسطو التي قام بتنظيرها وإعادة إحيائها من منظور العرب المسلمين في وقته حتى أطلق عليه فيلسوف الإسلام في الغرب.

أما أول من فصل بين الدين والفلسفة في البحث وفي مناهج التحليل فكان العظيم إبن باجة الذي وضع العديد من المؤلفات في شروح نظريات أرسطو الفلسفية حيث عمد إلى وضع رؤيته الدينية لهذه النظريات والتي فصلها عن رؤيته الفلسفية وهو ما مثل سبق يحسب لإبن باجة في عدم التعارض بين التحليل الفلسفي للمعتقدات الإنسانية وبين اليقين الديني لهذه المعتقدات وإن كان هذا المدخل قد تم إستغلاله فيما بعد من قبل

بعض المجتهدين ليجعلوا من فلسفتهم عقيدة بحد ذاتها وهو ما مثل خطرا فكريا تعاني منه البشرية حتى يومنا هذا.

أما حجة الأسلام وعبقري الفلسفة الدينية زين الدين الغزالى فقد أنشأ مذهبا فريدا في تبسيط علوم الدين حتى جعل من الدين مادة سلسة يفهمها العامة من خلال كتاباته التي إمتازت بسلاسة الأسلوب وسهولة المعني حتي أصبح الدين وتفسير اته أمرا محببا لعامة الناس بما يتعارض مع المعمول به في وقته حيث كان معظم إن لم يكن كل المفسرين يعمدون إلى تغليف تفسيراتهم بشئ من الغموض حتى يكون لهم الصبغة الكهنوتية التي تحافظ لهم علي المكانة في نفوس الناس.

وفي تاريخنا الحديث يوجد العشرات بل المئات من الفلاسفة الذين أثروا فكر الإنسانية وشكلوا حضارتها وغذوا ثقافتها بأفكارهم التي إعترض عليها الكثير وينكرها أيضا الكثير ولكنها لازالت باقية لإن الإنسانية لا تعيش أبدا علي الفكر الأوحد .

ولإن الثابت الوحيد في الحياة هو التغيير... لهذا يجي أن نصدق أنه لايمكن أن يبقي أي شئ علي حاله أبدا , لأن كل يوم جديد يأتي لنا بفكر جديد يجعلنا نفكر فيما لدينا من معتقدات وثو ابت تربينا عليها . فالفكر الإنساني الموجه يأخذنا من منطقة ثبات الفكرة إلى منطقة ثبات الفكر لإن التغيير في الفكر هو الثابت الوحيد إذا ما كنا نصدق فعلا أن لدينا عقلا يفكر ويتدبر ويأتي بالجديد كل يوم.

و يعتبر ديكارت هو أبو الفلسفة الحديثة حيث شكل فكره المتناقض بين الفكر اللاهوتي ذو النظرة الدينية الآحادية لكل ما يتعلق بنظريات النشأة والوجود وبين فكر الإستنتاج المنطقي الذي برع فيه للدرجة التي جعلته يناقض أفكاره وعقيدته عندما أطلق نظريته في التفكير العكسي حيث قسم العالم إلى وحدتين متكاملتين ومتناقضتين في نفس الوقت وهما الجسد والروح فكان أن وضع أساس للنظرية المادية التي ترجع الأمور إلى التفاعل الجسدي بناء على التحليل المنطقي للأشياء ثم وضع مقابلا لها متمثلا في النظرية المثالية التي تنظر للأمور بنظرة روحانية بناء علي التحليل العقائدي لأصل هذه الأشياء.

أما السير فر انسيس بايكون فهو الفيلسوف العالم الباحث الذي أمتلأت شخصيته بالتناقضات التي لم يعثر لها علي تفسير حتى حينه. وهو من وضع في كتابه الأطليند وصف

للدولة المثالية الحديثة التي ثار بسببها جدل كثير خاصة أنه كان يرجع أصل العلوم في وقته إلى علماء وفلاسفة العرب.

ومانويل كانت الذي تحدي الكنيسة في زمنه بكتابه نقد العقل الخالص الذي لاقي بسببه الكثير من الهجوم من رجال الدين والكنيسة عندما نشر أراءه الفلسفية التي كانت مناهضة لسيطرة الكنيسة علي الحكم وذلك عندما طرح فكرته التحررية التي تقضي بأن حرية الإنسان إنما تنبع من طاعته لقانونه الأخلاقي الذي ينبع من نشأته وثقافته وما نشأ عليه من أصول تربية وعقائد إنسانية وأن من يبحث عن حريته وجب عليه أن يطهر قانونه الأخلاقي من سيطرة الغير عليه حتى ولو كانوا من الكهنه والقساوسة ورجال الدين... !!!!

<u>وقد إستمد هتلر سياساته و أفكاره الشديدة التطرف من فكر الفيلسوف هيجل الذي نادي بفكر عبادة الدولة</u>. لقد إقتنع هيجل بأن الدولة هي الفكرة المقدسة علي الأرض وأنها لم تقم من أجل الأفراد بل أن الأفراد قد وجدوا من أجل الدولة. لقد ذهب هيجل بفكره إلى مداه عندما رأي أن الدولة لايجب أن تربطها صلة الواجب بمن حولها من الدول وأن الحرب بذاتها ليست شرا من الشرور إن كانت تدافع عن فكرة وكيان الدولة لأنه لايوجد دولة شريرة أورديئة ولكن هناك نظرة خاطئة لفكركل دولة تدافع عن كيانها لأن مصلحة كل دولة كامنة في قانونها الأعلي الخاص بها بغض النظر عن النزعات السياسية المختلفة التي قد تعترض طريق الدولة في الحفاظ علي مصلحتها العليا وهو ما يعتبر تبرير لأي عدوان تقوم به أي دولة سواء في الداخل أو الخارج من أجل مصلحتها. وقد يجد الكثير منا أن هذا الفكر متطرف وعدو اني ولكن هتلركان له ر أيا مغايرا جعله يعتنق هذا الفكر بل ويواجهه العالم كله من حوله بسبب فكره أطلقها هيجل.

وفي بدايات القرن الماضي أطل علينا الفيلسوف الأمريكي جون ديوي بفكره التحرري الذي يعتبر حجر الأساس لمعظم الحضارات الإنسانية المعاصرة لما تضمنه من إعلاء لقيمة الفرد في المجتمع ونداؤه الشهير بأن الفكرة لايكون لها قيمة إلا إذا أعطت للإنسان قيمته كفرد في المجتمع.

<u>لقد وضع ديوي اللبنة الأساسية للفكر الرأسمالى الذي قامت عليه أمريكا</u> عندما نادي بتهيئة الفرصة أمام الفرد ليجعل من نفسه عضوا عاملا في المجتمع لإن المجتمع لن يقوي إلا إذا قوي أفراده وأعطي الفرصه لكل فرد به لإثبات نفسه.

أفكار ونظريات فلسفية ودعوات عقائدية وحركات تحررية قامت منذ بدء الخليقة وحتي يومنا هذا وستستمر حتى قيام الساعة لإن هذه هي طبيعة الخلق، البحث عن أصل الأشياء وإعمال العقل والتدبر في كل شئون الدين والدنيا لكي يصبح ماننكره اليوم ثابتا غدا في حين يصبح ثوابت اليوم هي ما سننكره غدا بعد أن يخرج علينا فلاسفة الغد برؤيتهم التي عميت علينا اليوم.

ولكن هل قبولنا بأفكار اليوم وإعتناقها يجعلنا عبيدا لهذه الأفكار؟

هل إتباعنا لهذه الأفكار يلغي فرصتنا في مراجعتها والتدبر في مدي صلاحها لأمور ديننا ودنيانا وفكرنا و أفكارنا اليوم؟

هل إقتناعنا بأفكار ونظريات خرج بها علينا منظرين أو فلاسفة أو شيوخ أو رهبان تفقدنا الحق في مناظرة هذه الأفكار و إنكارها إن وجدنا أنها قد حرفت أو أنها لم تعد صالحة لزماننا أو أنه قد تولد عنها دعوات تكفيرية تقسم المجتمع وتعادي أمنه وسلامة أفراده؟

كل هذه الأفكار الفلسفية ومثلها الكثير أطلت علي الإنسانية خلال الآلاف من السنين بواسطة بعض المجتهدين الذين تمردوا علي الثوابت التي كان يفرضها علي المجتمع أصحاب الحظوة والقوة والسيطرة سواء من رجال الدين أو البلاط الحاكم أو المنتفعين سواء بالإقتصاد أو المكانة أو الجاه أو السلطان.

ولكنها جميعا لم تتعدي كونها أفكارا فلسفية أو رؤي إصلاحية أطلقها أصحابها في محاولة منهم لتحريك ثوابت المجتمع الراكدة لكي يدفعون الناس إلى التفكير في يومهم و إلى الحلم بغد أفضل وهو ما لم يمثل يوما خطرا علي المجتمع وإن كان يمثل في وقتها خطرا علي الفئة الحاكمة التي كانت تناهض الفكر والتفكير والأفكار بشكل عام.

أما ما شكل خطورة علي المجتمع فكان هو الحركات الإصلاحية (كما يدعي أصحابها)، والتي قامت علي الإستثمار في الأفكار والرؤي الفلسفية أو العقائدية، ومن ثم إستهدفت جمع الأتباع حول الداعية بعد إعتناقهم لفكره وتجييشهم بعد مبايعته علي الولاء و السمع الطاعة لهذا الفكر بالرغم من أن كل فصول التاريخ تخبرنا بل وتثبت أنه لم ولا ولن يوجد فكر إنساني صحيح علي المطلق لسبب بسيط جدا ... أنه فكر بشر و أنه مهما علا في فكره فإنه يحتمل الصواب والخطأ وهو إلى الخطأ أقرب لإننا جميعا نعلم تمام

العلم أن الكمال لله وحده وأن الإنسان مهما وصله من العلم فهو كان ولايزال كفورا جهولا.

لذا كانت كل الدعوات التبشيرية والكيانات الأصولية وفكر التكتلات المذهبية قد إختلطت وتبدلت أفكارها التي كانت تبدي في ظاهرها السلام الإجتماعي والنهضة بالبشرية فأصبحت جميعها وقد إنطوت في باطنها علي فكر السيطرة علي مقدرات المجتمع وتوجيه أفراده إلى إعتناق مذهب بعينه ألا وهو المذهب الذي يدينون له ولا يقتنعون إلا بصحته وإلا كان كل من يخالفهم في الفكر علي باطل ويصبح للكفر أقرب منه للإيمان ويصبح المجتمع في مجموعه هو العدو الأول لمذهبهم وصاحبه و أتباعه لتصدق وقتها مقولة شمشون الجبار... عليّ... وعلي أعدائي.

لقد إجتمعت كل هذه الدعوات المبطنة علي سياسة واحدة في نشر مبادئها مهما إختلفت في مرجعيتها الدينية أو المجتمعية إلا أنها جميعا قد بدأت من نقطة التغيير والإصلاح والتحريك المجتمعي وعدم قبول ثو ابت المجتمع القائمة البالية ورفض العبودية الفكرية لما ألفوا عليه أبائهم الأولين...

كلهم بدأوا من تقديس التفكيروالتدبروالتغيير... حتى نشأت الجماعة وقوت وأصبح لها مريدين وتابعين ومنتمين مستعدون لتقديم أرواحهم فداء فكر هذه الجماعة، <u>فتحولوا من تقديس الفكر إلى تقديس صاحب الفكره</u> وشتان بين هذا وذاك.

بل أنه عندما قوت شوكة هذه الجماعات، كان أول مبدأ لها بعد النشأة هو رفض وتأثيم وتجريم بل وتكفير من يفكر في مراجعة أفكار الجماعة أو أن يحاول التجديد في عقيدتها مثلما فعل من أسس هذه الجماعة منذ زمن ليس بالبعيد بعد النشأة .

لقد كان أول ما رفضته هذه الجماعات هو أن يبدأ أي فرد من أتباعها في إعمال العقل والتدبر والتفكير في العقيدة التي أنشأها مرشد وأمير الجماعة وكأن نعمة العقل قد أنعم بها العزيز القدير فقط علي هذا المرشد الأمير ومن خلفوه أما الأتباع والمريدين والمؤيدين والمناصرين وكل من دون الأمير ليسوا إلا... قطيع من الخرفان محرم عليه التفكير وإلا سقط في فخ المجادلة فهوى إلى هوة التكفير.

التديين والتسييس

منذ بداية الخليقة، علم الإنسان أن السيطرة علي مقدرات الشعوب لاتكون إلا عن طريق مدخل الدين... مدخل العقيدة...مدخل القناعة الفكرية . منذ بداية الخليقة عمد كل من أراد ملكا أو جاها أو حتى قيادة مجتمعية إلى أن يصبغ فكره بالطابع الديني أو الطابع اللاديني وكلاهما في السيطرة والوصول سواء.

منذ بداية الخليقة عمد كل طامع في ملك أو في سلطة أو في مكانة مجتمعية إلى تحويل الفكر البشري الإجتهادي محدود النظرة " البشرية" إلى كونه مرجعية تشريعية تقديسية تعطي للرأي البشرى القداسة التي تُحَرِم معارضته أو تفنيده , وهو ما يوضح أن الهدف الأساسي كان في الحفاظ علي المصالح الشخصية في الخصوص أو الفئوية في العموم ولكنها أبدا لم تكن مصالح دينية لإن الدين لم ولن يكون حكرا علي شخص أو جماعة مهما بلغت من آيات الزهد والورع.

أما على الصعيد الخاص بالسياسة و السلطة والوصول إلى سدة الحكم، فقد عمد كل من طمع في الحكم إلى توظيف جماعة التابعين المعتنقيين لفكرهم الآعور الذي تم صبغته بصبغة الدين و المعتقدات الإنسانية والإصلاحات الإجتماعية للوصول لأغراض سلطوية سياسية يحكمها رغبة دفينه لأصحاب هذا الفكر في الإنفراد بالحكم وتكوين دويلتهم التي تدين بالولاء والطاعة والتبعية الفكرية فقط لصاحب هذا الفكر بغض النظر عن تعارض هذا الفكر مع المعتقدات السائدة أو خروجهم علي وحدة المجتمع الذي يعيشون وسطه.

إنها هذه الشهوة السيادية المتأصلة داخل كل منا منذ يوم ولادته وحتي يوم مماته والتي تجعل كل منا يحلم بأن يحكم ويتحكم فيمن حوله ويكون له من القدرة مايجعله قادرا علي تجميع الناس من حوله فيأتمرون بأمره ولايردون له أمرا ويدينون له بالسمع والطاعة عندما يكون له الولاية عليهم، إنها شهوة الحكم.

عندما خلق العزيز القدير بني أدم أعطاهم العقل ليتدبروا به أمرهم كما وأعطاهم من الشهوات ما تتحكم في درجة أيمانهم و إنصياعهم لحكمه وبين قدرتهم علي تحكيم عقلهم أو إحتكامهم إلى شهواتهم تأتي درجة أيمان كل إنسان وبالتالي تتحدد نسبة فلاحه في إجتياز إمتحان الدنيا أو الإخفاق فيه.

وقد جعل الله سبحانه وتعالى الشهوات درجات مابين الشهوات السائدة والشهوات السيادية. والشهوات السائدة هي تلك الشهوات التي تتحكم في جميع بني أدم علي مختلف أشكالهم وألوانهم و إنتمائاتهم بنفس القدر من التملك لإنها شهوات حسية ملموسة مثل شهوة الأكل والشرب والنوم والجنس . فكلنا تتملكه هذه الشهوات، وكلنا نستجيب لها في نهاية الأمر إذا ما تملكتنا هذه الشهوة , كل حسب قدرته ولكنه في النهاية لابد أن يستجيب لها وإلا نغصت عليه عيشته وجعلته يفقد الإحساس بنعيم الحياة. فمن منا يستطيع أن يصبر علي ألم الجوع، أو من منا يستطيع أن يقاوم النوم و إلى متي ؟.

أما الشهوات السيادية فهي تلك الشهوات النفسية التي تحيا بداخلنا وتتملكنا ولكننا لا نستطيع أن نطلق لها العنان إلا إذا سخرنا لها قدرتنا وأوجدنا لها المقومات اللازمة لتحقيق هذه الشهوة. كلنا لدينا شهوة التفاخر سواء بالعلم أو بالمال أو بالنسب أو بالأعمال، ولكن هذه الشهوة لانطلقها إلا إذا كان لدينا ما نتفاخر به أو إذا ما أوجدنا لأنفسنا ما نتفاخر به حتى ولو كان حفظنا لبعض آيات القرأن.

<u>كم مرة جلستم مع بعض الناس لتجدوهم يبدأون في تحويل مجري الحديث حيث يستطيعون أن يدعموا حديثهم ببعض الآيات التي تثبت أنهم أهل ذكر</u>, وهو ما يجعلهم يستطيعون التفاخر أمامكم بما يحفظونه من أيات ليستدلوا بها علي مدي علمهم وتفقههم في الدين.

ولكن تبقي شهوة الحكم هي الشهوة...إنها الشهوة التي تولد داخلنا ونحن لازلنا أطفال عندما نستمر في البكاء والصراخ إذا لم يستجيب لنا الأهل فيما نطلبه لنجعل من طلباتنا أوامر لاتقبل إلا التنفيذ وإلا ملئنا أسماعهم صراخا وعويلا حتى يستجيبوا لنا. وبطبيعة الحال , فإننا عندما نكبر، تكبر معنا هذه الشهوة ولكنها تظل كامنة داخل كل فرد فينا لانستطيع إخراجها لإننا فقدنا ميزة دلال الطفولة التي كانت تجعلنا نحكم تحت وطأة

صراخنا وحب الأخرين اللامتناهي لطفولتنا ودلالنا وإحتياجنا لهم , فنبدأ في البحث عن المقومات الجديدة التي يمكن أن تصل بنا إلى سدة الحكم.

إن شهوة الحكم لايمكن إطلاقها إلا إذا توفرت لها من المقومات مايجعلها مقبولة من الآخرين لإنها شهوة تتولد داخل الإنسان ولكن يلزمها في المقابل شهوة الإستكانة إلى قبول تسلط الآخرين.

فالإنسان الذي تتملكه شهوة الحكم لابد له من أن يعززها بالكثير من إصباغ العلم أو القدرة أو القوة أو الثقافة أو المعرفة أو الجاه علي نفسه بما يعطيه القدسية التي تجعل ممن حوله يميلون إلى إشباع شهوتهم في الإستكانه إلى تسلط من هو أقدروأعلم و أقوي حتى يكون لهم حسن جزاء التابعين المخلصين .

لهذا سنجد أن التاريخ يحدثنا عن عدد قليل جدا من القادة الذين غيروا مسار التاريخ بما أتيح لهم من فرص التحكم في شعوبهم من خلال فرض قوتهم المالية أو البدنية أو الفكرية أو العلمية أو حتى الشخصية الكاريزمية وتعزيزها بالهالة القدسية التي أعطوها لأنفسهم وفي المقابل إستسلمت لهم الشعوب وسارت ورائهم وقبلوا أن يموتوا في سبيل القضية التي حلم بها القائد وجعل منها محورا لتمكينه من الحكم والأمثلة علي ذلك كثيرة جدا ولكن مهما بلغ عدد هؤلاء الحكام أو القادة فما هم إلا ألوف وسط بلايين البشر.

ودعونا نعود بالذاكرة إلى قديم الزمان منذ نشأة التاريخ وتكوين الدول والإمبراطوريات والكيانات المجتمعية التي تشكل تاريخ البشرية والذي منه نستمد حاضرنا ونستطيع أن نرسم مستقبلنا. عندما بدأ المصري القديم في الاستقرارفي الوادي و التأمل في الموجودات من حوله , خرج بنتائج هذا التأمل و هي عقيدة المصري القديم و حضارته التي إعتنقها وظلت باقية حتى يومنا هذا.

لقد إمتاز المصري القديم بصفة قلما وجدت في أي أمة أخري زامنته أو جاورته . لقد إمتاز المصري القديم منذ بداية حضارته بالارتباط القوى بعقيدته التي تغلب علي كل من عاش علي أرض مصر من فراعنه وهكسوس وبطالمة ورومان ووصولا إلى العرب بمختلف ممالكهم ومرورا بالمماليك وصولا إلى المصري اليوم.

لم يكن ملك مصر على مر التاريخ المصري القديم مجرد حاكم أو مالك للأرض ولكنه كان رمزديني، فأحيانا يعتبر إله كما في الدولة القديمة أو قد يعتبر شخص مكلف من قبل الإله أو قد يتم تنصيبه ابنا للإله لإنه بهذا الوصف كان يجد قابلية من الشعب لحكمه بدون الدخول في أي صراع فكري أو سياسي لإن الشعب المصري بصفة خاصة وشعوب العالم من حوله بصفه عامه كانوا يرفضون أي حاكم أو ملك له مرجعية سياسية ولكنهم يقبلون علي إستحياء من إصطبغ بالصبغة الكهنوتية وكان حكمه قائما علي مرجعيته الدينية فيصبح رفض الحكم هو رفضا للدين وهو ما لايقبله العامة الذين يجدون في الدين خلاصهم من متاعب وشقاء الحياة التي يعيشونها.

على مر التاريخ المصري الفرعوني إقترنت دائما السياسة بفكرة التديين وإصباغ أهل السياسة بالصبغة الدينية , حتي أصبح هدف أي صراع سياسي هو في الوصول إلي الجماعة الأكثر سيطرة والأعمق تنظيما ومباركة ذلك من قبل الشعب الذي تعود علي أن لا يرفض الحكم الذي له مرجعية دينية وعقائدية تتماشي مع عقيدة المجتمع.

ونظرا لإن قابلية الحاكم إرتبطت بالدين والعقيدة عند المصري القديم، لهذا وجدنا الأطراف المتصارعة على الحكم وقد لجأت إلى تديين السياسة للحصول على مباركة الشعب لمن سيحكم حتى وإن كان أبعد مايكون عن الدين.

بل أن الحاكم المصري عندما كان يواجه بعض المعوقات التي قد تؤثر على قابليته للحكم مثل الأصل الملكي كما في حالة الملك تحتمس الرابع الذي لم يكن من اصل ملكي خالص فنجده وقد إستعان بكهنة رع لتأليف قصته المشهورة المذكورة على لوحة الحلم الموجودة حاليا في جبانة الجيزة بين قدمي تمثال أبى الهول و التي بمقتضاها يوضح انه مكلف من قبل الإله (رع حور أختى) لكي يحكم مصر وهي القصة التي مكنته من اعتلاء عرش مصر والحد من سلطة كهنة العقيدة المنافسة عقيدة آمون ليكون تحتمس الرابع هو من أوائل الذين إستخدموا فكرة الإستعلاء بالأوامر الآلهية لكي يصل إلى الحكم ويخضع الشعب لمشيئة الألهه التي قررت أن تنصبه حاكما بغض النظر عن إستحقاقه لهذا المنصب من عدمه طالما أنه حصل علي تعميد الكهنه بأنه مكلف من قبل الآلهه.

كما ويخبرنا التاريخ أيضا عن الملكة حتشبسوت التي كانت تريد الاستقلال بحكم مصر وهي امرأة وهو ماكان تمنعه أو ترفضه تقاليد المجتمع من تولي أمرأة لحكم البلاد ولكنها

إستحضرت قصة تحتمس الرابع لتقوم بالإستعانة بكهنة آمون لتأليف قصة الولادة الإلهية المذكورة على جدران معبدها في الدير البحري و التي بمقتضاها استطاعت أن تثبت إنها ابنة الإله و أنها الأحق بحكم البلاد و بالفعل استطاعت أن تستقل بالحكم. و هكذا كان الحكام دائما ما يلجأون إلى الكهنة لكي يؤلفوا لهم القصص الدينية التي تعطيهم القابلية للحكم وكان الشعب في كل الأحوال يقبل حكم الدين ويعليه علي العقيدة المجتمعية السائدة مهما تضمنت من تناقضات.

وعلي الجانب الأخر قامت بعض المذاهب الدينية بتوليد ثورة عقائدية لتحقيق أهداف سياسية كما حدث في حالة الملك اخناتون صاحب فكرة عقيدة أتون الجديدة التي ألغت كل العقائد الأخرى بأطرها و كهنتها و علت بفكرة الإله الواحد و الكاهن الواحد الذي أعتبر أنه هو المتحدث الأوحد بأسم ذلك الإله ليصبح في نفس الوقت الملك الحاكم وبهذا كان من السهل عليه الاستقلال بالسلطة و الحد من نفوذ أي سلطات دينية أخرى غير سلطة الملك الحاكم الكاهن .ويجدر التأكيد أننا هنا لا نناقش صحة الفكرة العقائدية من عدمها ولكننا نتعرض فقط لطرح فكرة إستخدام العقيدة بغرض الوصول إلى الحكم أو إلى البقاء فيه وهذا هو لب الموضوع.

لهذا نجد أن إستخدام العقيدة في الحضارة المصرية القديمة كان بمثابة الوقود للصراعات السياسية , مما أدى إلى تفكك المجتمع وتغييب جموع الشعب الذي تفرق علي عقائد و مذاهب مختلفة كلا حسب قدر ثقافته وتصديقه في عقيدته بصفة عامة أو حسب قدر إنتفاعه من الدخول والإنخراط في هذه العقيدة بصفة خاصة وهو ما أدي إلى تفكك البلاد و الوصول إلى مرحلة الاضمحلال , بما فتح المجال للقوى الاستعمارية من الخارج لاحتلال البلاد مثلما حدث في فترة الاضمحلال الثانية في العصر المتأخر.

لقد كان هذا الاستخدام المسيس للدين سبباً رئيسيا من أسباب ضعف الدولة المصرية القديمة وبالتالى إضمحلال الحضارة المصرية بل وزوالها كلية في عصور ما بعد الحضارة المصرية القديمة وقيام الحضارات المتعاقبة علي مصر فيما بعد ذلك.

ولكن يذكر التاريخ أن المصريين لم يكونوا بهذه المسالمة التي يمكن تصورها من إستسلامهم وتقبلهم لحكم الكهنة وسياسات ملوك الفراعنة التي تم تديينها وتعميدها من قبل كهنة الآلهه. فالتاريخ يخبرنا أن المصريين القدماء قد قاموا بأول ثورة في التاريخ

بالشكل الذي نراه علي شاكلة ثورات اليوم وذلك في أواخر القرن الخامس قبل الميلاد مع نهاية عهد آخر ملوك الأسرة السادسة وآخر ملوك الدولة القديمة «بيي الثاني» بعد أن إستمر حكمه لفترة دامت نحو 96 عاماً، حيث تولى الحكم وعمره أربع سنوات وامتد به الحكم حتى بلغ مئة عام وهي أطول فترة حكم في تاريخ مصر القديمة.

أما السبب المباشر لهذه الثورة كما يقول الباحث الأثري أحمد صالح مدير آثار أبو سمبل والنوبة فتكمن في تراجع نظرة المصريين لحكامهم «الملوك الآلهة» حتى وصلت إلى إعتبارهم «أنصاف الآلهة»، مشيراً إلى أن «مينا» موحد القطرين كان اسمه «ابن الإله»، هذه النظرية دفعت الملوك بمن فيهم «بيي الثاني» لإساءة إستخدام السلطة الممنوحة له والتي تم مباركتها من الشعب بعد أن دعمها الكهنه، ولكن التحول الذي طرأ علي نظرة الملك لشعبه كخدم لمشيئته الملكية المدعومة من الآلهه وما تبعها من تغيير في سياسات الدولة من إهمال رعاية الشعب وتوفير القدر النذير من متطلبات العيش والإهتمام بإنشاء المعابد والمقابر والتي تطلبت الإستيلاء على موارد الدولة المالية كلها بل وفرض الضرائب الغير مسبوقة علي الشعب في حين خصصوا جزءاً قليلاً من متحصلات الدولة لرعاية أمور الشعب، كل هذه الأمور جعلت المصري القديم يثور علي هذه السياسات العرجاء بل ويثور علي كل المقدسات الدينية ليعلن في إباء أن السياسة ولو تم تديينها، فإنها لا تصلح.. إلا إن راعت حقوق الشعب.

نعم ثار المصريون القدماء ليعلنوا كفرهم بأصحاب السلطة الدينية وقد خرجوا عليهم في إعلان رسمي لرفض السياسة الغاشمة حتى ولو تم تديينها، حيث اكتشف المصريون القدامي أن الملك وحاشيته وكهنة المعابد ما هم إلا أصحاب مصالح ونفعيين ولا يهمهم إلا الثراء بعيداً عن الشعارات التي يرفعونها باسم الألهه أو بإسم إعلاء العقيدة.

لهذا إنقلب المصريون على الكهنة وهاجم الثوار المقابر والمعابد التي كانت تمثل قواعد الحكم الديني، رغم أن المصريين من الشعوب المدمنة لمظاهر العقيدة الدينية، ويعملون في حياتهم لكي يؤمنوا حياتهم في العالم الآخر أكثر من عملهم لتأمين حياتهم في هذه الدنيا وهو الأمر الذي إشتهرت به مصر الفرعونية ولكنه إستمر كطابع خالص للمصريين مع إختلاف أنظمة الحكم عليهم وتغيير المعتقدات الدينية من الديانات الفرعونية بكافة أشكالها إلى دخول الديانات الإغريقية والتي تبعها الديانة المسيحية بعد الإحتلال الروماني لمصر و إنتهاء بإنتشار دين الإسلام في مصر حتى يومنا هذا.

ولكن كل هذه المعتقدات لم تؤثرعلي عقيدة الإنسان المصري التي جعلته يعمل لأخرته قبل دنياه وجعلته يصدق كل ما تخبره به هذه العقيدة ويثبته له كهنتها الذين إكتسبوا مكانتهم داخل وجدان الشعب المصري طالما إحتفظوا بمصداقيتهم و أثبتوا إنحيازهم إلى الشعب أمام طغيان الحكام وهو ما إفتقده كهنة الآلهه قبل قيام هذه الثورة التي كفرت بهؤلاء الكهنة ومن ثم بالملوك الذين يؤيدونهم.

وبقيام هذه الثورة والتي إستمرت لفترة طويلة من عمرالشعب المصري إنتشرفيها أعمال الشغب والبلطجة إلى الدرجة التي أطلق عليها المؤرخين أنها ثورة الجياع تماما كما يطلق علي ثورات هذا العصر، فقد دخلت مصرفي مرحلة من عدم الإتزان لم تنتهي إلا عندما تم إختيارحاكم من الشعب هو الملك أمنمحات الأول.

ولكن لإن طبيعة هذا الشعب الذي ولد التاريخ علي يده كانت تنطوي علي هذه المرجعية الدينية في كل نواحي الحياة، حتى بعد أن لعب القدر دوراً كبيراً في إختيار الملك المصري الجديد الذي إستطاع توحيد المصريين وإعادة بناء الدولة وذلك حسب بردية «نفرتي» التي أخبرتنا عن الملك أمنمحات الأول بصفته «ابن الشعب» و الذي وجد نفسه يتصدر الأحداث في زمن الثورة نظراً لخلفيته العسكرية، ولكن كالعادة بدأ الناس في التشكيك في دمه الملكي أو أنه «ابن الإله» أو ممثل للإله بما لا يعطيه الحق في حكم البلاد، لتظهرقصة «أميني» الملك الذي يأتي من الجنوب لحكم البلاد و التي اقنع الناس أنفسهم بها ليقبلوا أمنمحات الأول كملك لمصر وليتم تعميده من قبل الكهنة وكأن الحكم لا يكون إلا لمن أعطي الصبغة الكهنوتية وتم قبوله أولا من رجال الدين قبل أن يقبله الشعب ويقرله بالحكم...عجيب أمرهذا الشعب... يثورويفورثم يأتي بصورة مستنسخة مما ثارعليه.

ويخبرنا التاريخ عن أعمال الشغب التي تمت أثناء هذه الثورة أنها كانت غيرمسبوقة وأنها كانت دموية بالشكل الذي تحوّل معها لون النيل إلى الأحمر ولجأ المصريون لحفر الآبار بقرب النيل ليشربوا مياهاً نظيفة! فقد اقتحم الشعب أثناء الثورة الأهرامات والمعابد ودورالكهنة في إعلان صريح عن ثورة المصريين القدامي علي النظام الكهنوتي الذي دعم نظام الحكم الفاسد وفي رفضهم لكل ما تم تقديسه وقتها , حيث هاجم المصريين تماثيل الآلهه التي كانت تحمي المقدسات الملكية وقاموا بسرقة مومو ايات الملوك وحاشيتهم وألقوا بها في الطرقات كإعلان للثورة علي المقدسات الدينية، كما وقامت الجماهيربسرقة الكنوزالموجودة بهذه القصوروالمعابد وهو ما يعتبرهجوماً على النظام الحاكم.

كما قام الثوار حسب بردية «نفرتي» بمهاجمة مجالس القضاء وحرق مستندات القضايا وإلقائها في الشارع مؤكدين أن القضاء لم يكن نزيهاً في عهد «بيبي الثاني» ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل هاجموا المكاتب الحكومية التي توجد بها السجلات التي تضم مديونيات الشعب وقيمة الضرائب المفروضة عليهم والتي كانت هي السبب الإقتصادي المباشر في قيام هذه الثورة ليتم إخلاء طرف الشعب بإرادة الشعب من كل مستحقات الجباية التي فرضها عليهم الملك الإله الذي رفضه الشعب ورفض وصايته علي الحكم.

وقد أطلق أنصار الطبقة الحاكمة من الحاشية الملكية وكهنة المعابد في ذلك الوقت علي هذه الثورة «ثورة الجياع» أو «ثورة الفقراء» كما ورد في البردية التي وثقت الثورة و حاولوا تصويرها على أنها «انقلاب اجتماعي» في حين أنها كانت ثورة بكل ما تعنيه هذه الكلمة لأن المصريين تحركوا في وقت واحد وفي أماكن متفرقة من البلاد لإسقاط نظام حكم بيبي الثاني بكل ما تضمنه من هيمنة سياسية ودينية، أعقبها فترة إنتقالية تضمنت أربعة أسر حاكمة ولكن لم يدوم حكمها كثيرا حيث يخبر التاريخ أن مصر قد تولي الحكم فيها 70 حاكما خلال 70 يوما من شدة الإضطرابات التي جاءت بها هذه الثورة ولإصرار الشعب علي رفض كل ما كان علي علاقة بنظام حكم بيبي الثاني

وهو مايظهر التغيير الجذري في رؤية المصري القديم للحاكم العادل الذي يجب أن يكون حكمه لصالح الشعب حتى وإن كان مدعوما بمباركة الألهه وتأييد كهنتهم، إلا أن سر الملك يبقي دائما في قدرة الحاكم علي إحتواء شعبه بالشكل الذي يقبله الشعب أولا وأخيرا، فإن لم يكن تديين السياسة هو الحل، فليكن إذا تسييس الدين وهو ما سنراه واضحا جليا خلال الفصول التالية.

عندما فتح الاسكندر المقدوني مصر في خريف عام 332 , و بمجرد أن وصل إلى منف – عاصمة الدولة المصرية في حينها - حتى سارع إلى تقديم القرابين للآلهه المصرية الوطنية؛ وتتويج نفسه في معبد فتاح على نهج الفراعنة القدماء وكأنه أحد هؤلاء الملوك الفراعنة؛ و السؤال هنا هل كان الاسكندر حقيقة يؤمن بالعقيدة و الآلهة المصرية القديمة ؟ هل قرر الإسكندر المقدوني الفاتح العظيم - تلميد الحكيم أرسطو الذي ينتهج المدرسة الأرسطية الفلسفية ويتبع العقيدة والثقافة اليونانية - أن يتبع العقيدة المصرية القديمة بمجرد دخوله لأرض مصر؟

بالطبع لا يمكننا التصور بحال من الأحوال أن يتحول هذا الشاب ذو العقلية الفذة والذي تربي بين عظماء الفلاسفة في زمنه وحارب من أجل عقيدته وسار إلى أقاص الأرض من أجل إعلاء ثقافته وعقيدته بل وقوميته، من الصعب جدا أن نصدق أنه تحول فجأة بمجرد دخوله مصر إلى إعتناق الديانة المصرية. ولكن الو اقع يخبرنا انه لم يريد بفكرة تتويجه من قبل آلهة المصريين إلا أن يحصل على قابلية المصريين لحكمه ودخول مصر سلميا ضمن الإمبراطورية التي كونها. لهذا فقد إختار كالعادة تسييس الدين لتحقيق ذلك وكان الوضع مؤهل لذلك بعد عصر من الاضطهاد الديني عاشه المصريون من قبل الفرس أثناء حكمهم لمصر بعد وقوع الدولة المصرية القديمة.

و لعل ما يؤكد نظرية تمسك الاسكندر بالحضارة الإغريقية التي تربي عليها وحارب من أجلها وفتح أقاصي الأرض إعلاء لها انه يوم خرج من بلاده قاصدا فتح الشرق فقد أعلن انه ر افع لواء الحضارة الإغريقية و لهذا نجده بعد تتويجه في منف أنه قد أقام حفلا إغريقيا رياضيا موسيقيا خالصا حسب الطقوس والمراسم الإغريقية التي تربي عليها وشاركه فيها المصريين ممن قبلوا بحكمه بعد تتويجه من كهنة معابدهم بعد أن أعتبروا أن طقوس الإحتفال الأغريقية هي مشاركة منهم لمليكهم الجديد الذي شاركهم عقيدتهم فشاركوه هم إحتفاله.

و من هنا يتضح لنا أن سياسة الإغريق بداية من الاسكندر المقدوني وحتى نهاية العصر البطلمى كانت تعتمد في المقام الأول على تسييس الدين لبسط السيطرة على الشعب و الإنفراد بحكم مصر وقهر أي مقاومة شعبية لحكمهم الذي تم صبغته بالشكل الديني العقائدي بما يمنع المصريين من مناهضته.

يتجلى هذا الفكر لنا بشدة في العصر البطلمى بعد أن استقل بطليموس الأول بحكم مصر بعد أن أعلن نفسه ملك مؤله على مصر و أعطى لنفسه حق ملكية أراضى البلاد و اعتبره حق ديني منحته أياه الألهه المصرية ؛ فما كان منه إلا إنه أقام ثلاث ولايات إغريقية تعامل معاملة الولايات الإغريقية ولها كافة حقوق المواطنين من التمتع بالثقافة الأغريقية و هذه الولايات كانت الإسكندرية و بطولوميس و نقراطيس، أما بقية الاراضى المصرية و التي كان يسكنها المواطنين المصريين الأصليين ذوي الثقافة المصرية و العقيدة المصرية فكانت أراضيهم كلها تعد من أملاك الملك الإله و أهلها هم عبيد له يعملون في خدمته ويعيشون عبيد إحسانه وعطاياه.

وتدل الوثائق التاريخية الهيروغليفية و الديموتيقية أن الملك بطليموس الأول حمل بعض ألقاب ملوك الفراعنة التقليدية كما فعل أيضا الملك بطليموس الر ابع الذي إتخذ كامل صفة الملوك الفراعنة ليضمن ولاء المصريين التام له عندما قرر في عهده الاعتماد علي المصريين في تكوين جيش قوي يمكنه من تحقيق مخططه التوسعي فما كان منه إلا محاولة التقرب منهم عن طريق الدين لكي يضمن ولائهم.

و لكن البطالمة من داخلهم وعلي مدي فترة حكمهم لمصر التي إستمرت قر ابة ثلاثمائة عاما تولي خلالها 15 ملكا وملكة من البطالمة الحكم كانوا متمسكين بعقيدتهم الإغريقية و آلهتهم الإغريقية و هذا التمسك كان يظهر لنا في الولايات التي تم فصلها لتعامل معاملة الولايات الإغريقية في مصر. و لكن يجب الإشارة هنا إلى إدراك البطالمة لتأثير مكانة الكهنة المصريين على عامة الشعب وقدرتهم علي نشر الهدوء والسكينة بين جموع الشعب بمجرد إشارتهم لمكانة الملك الدينية وتثبيت الآلهه لحكمه وقرارته، وهو ماجعلهم يعملون حثيثا علي إستمالتهم عن طريق الأموال في معظم الأحوال وعن طريق الحظوة والمكانة في بعض الأحوال والترهيب من فقد الحظوة في أغلب الأحوال، وذلك لاستغلالهم في تثبيت حكمهم وإحكام قبضتهم علي الشعب لقبولهم ملوكا لمصر وشعبها.

و مثلهم مثل كل من جاء لحكم مصر، لم يدرك البطالمه فكرة النزاع العقائدي في مصر بين كهنة منف و كهنة آمون وقدرة كل فريق علي الإستنصار بأتباعه الذين لايوالون ملكاً أيا كان، ولكنهم يوالون عقائديا ونفسيا وجسديا لكهنة عقيدتهم ومن يرتضونه حاكما عليهم. لهذا كان يتقلب الأمر عليهم لنجد توتر في علاقة البطالمة مع كهنة آمون مقابل تحسن العلاقة مع كهنة منف و العكس بالعكس علي فترات.

وقد أدي هذا بطبيعة الحالى ظهور الضغائن التي أنتجت الثورات الشعبية التي بدأت بتأييد ديني من الكهنة حتى أهلكت هذه الثورات الحكومة المركزية البطلمية وكانت سبب رئيسي من أسباب ضعف دولة البطالمة و انهيارها لصالح الحكم الروماني في مصر.

و الغريب في الأمر أن الملك بطليموس الأول قد حاول جمع الكهنة لخلق ديانة جديدة "ديانة سير ابيس" للجمع بين العقيدتين المصرية و الإغريقية والتأليف بين قلوب الشعب في محاولة منه لتسييس الدين عن طريق خلط الأوراق والجمع بين المعتقدات المختلفة وإعلاء عقيدة جديدة يمكن أن تصبح هي العقيدة السائدة لكل الشعب حتى يستطيع

الإنفراد بالحكم بعيدا عن أي منغصات أو أطماع سلطوية من أي عقيدة أخري وهو ما يماثل محاولة الملك المصري القديم اخناتون ولكن مع الفارق أن إخناتون كان يدعو إلى الآله الأوحد أتون في حين أن بطليموس الأول قد عمد إلى الجمع بين الآلهه في ثالوث حاكم مكون من الإله سير ابيس الاغريقى و الألهه المصرية ايزيس و إبنهما هاربوكر اتس الذي يعتبره البعض محاكاة لأسطورة خلق الإله حورس.

وقد أقدم الملك بطليموس الأول علي هذه الفكرة عندما لاحظ تعدد الفرق و الأجناس ذات الثقافات الدينية المختلفة مما قد أثر فعليا على وحدة البلاد و شكل تهديدا حقيقيا للحفاظ على ثروة مصر التي كانت من وجهة نظرة مرتبطة بأنغماس المصريين داخل العقيدة الإغريقية. و رغم أن ديانة سير ابيس هذه قد انتشرت ليس فقط في مصر بل في معظم دول البحر المتوسط لكنها لم تحقق الغرض السياسي المرجو منها حسبما تفيد كل كتب التاريخ التي أهتمت بدراسة هذه الحقبة.

لم تستطيع هذه الديانة الصمود أمام تمسك المصريين بعقيدتهم القديمة و حتى من عبدوا ثالوث سير ابيس عبدوهم بصفتهم آلهة مصرية و هو نفس ماحدث مع الإغريق الذين لم يروا في هذه الديانة إلا أنها شكل من ألهتهم الإغريقية.. لهذا لم تنجح هذه الديانة في استقطاب قلوب المصريين ولا الإغريق لأنه كان من الواضح جدا أنها ليست إلا محاولة سياسية لتسييس الدين فشلت كما فشلت من قبل عبادة أتون علي يد إخناتون.

هل استطعنا أن ندرك قدم فكر تديين السياسة أو تسييس الدين؟

هل استطعنا أن نري جليا أن هذه الفكرة هي من أساسيات ومبادئ الفكر السلطوي الإنساني وأن معظم الحضارات الإنسانية إن لم يكن كلها قد إنتهجت هذا الفكر ليس لأنه الفكر الأصوب ولكن لأنه أقصر الطرق التي تمكن الأقلية الحاكمة من السيطرة علي الأغلبية المحكومة التي بيدها مباركة أمر الحكم و دعم إستمراره وإعطاء الصلاحيات لمن بيده الحكم... أنه أقصر الطرق للسيطرة علي الشعوب التي قد تعلي من الحاكم حتى تؤلهه أو قد تهوي به إلى أسفل السافلين إذا فقدت أيمانها بمصداقية دعوته وتأكدت من عنصريته الفكرية وولاؤه القبلي.

لم يقف هذا الفكر العنصري عند حد المصري القديم بل تدرج مع السنين ووصل إلى كل الحضارات من حوله التي نشأت موازية للحضارة المصرية أو حتى في الأزمنه اللاحقه والأمثلة كثيرة ... كثيرة.

في العصر الأول من بداية الحكم الروماني لمصر، كان الرومان ينظرون إلى معتقدات المصريين نظرة دونية مليئة بالإحتقار حيث كانوا يعتقدون مثلهم مثل كل من يعتقد في صحة معتقداته فلا يري من معتقدات الآخر إلا سفاهتها ودونيتها. لكن سرعان ما تغيرت هذه النظرة إزاء استمساك المصريين بمعتقداتهم حيث أدرك أباطرة الرومان حاجتهم لإستخدام هذه المعتقدات بدلا من تسفيهها وذلك لإصباغ حكمهم بالشرعية اللازمة للحصول على قابلية الشعب لحكمهم و ضمان إخلاص الشعب لهم .

فما كان من الرومان إلا أن ساروا علي درب من سبقوهم من البطالمة في اتخاذ صفة الفراعنة، فوجدنا حاكم مصر الروماني وهو يتشبه بالفراعنة فلا يركب النيل وقت الفيضان و يقدم القرابين عند بلوغ النيل أقصى ارتفاع و غيرها من المظاهر التي إعتاد عليها المصريين. كما اخذوا عن المصريين و الإغريق أيضا فكرة تأليه الملوك فقرنوا الأباطرة بالآلهة مثلما قرنوا الإمبراطور أغسطس بالإله زيوس أو عندما قرنوا الإمبراطور نيرون بالإله أجاثادايمون , أما في علاقة الرومان بالفرق الدينية المختلفة داخل مصر فقد اتبعوا سياسة فرق تسد حتي يستطيعوا تحويل فكر هذه الفرق في النزاع فيما بينها بدلا من التوحد و الثورة على الرومان.

أما في الفترة الثانية من حكم الرومان وهي التي بدأت بعد ظهور المسيحية و انتشارها حتى أصبحت الديانة الأولى منذ عهد ديوقلديانوس حتى دخول العرب فسنجد أن الأمر قد تحول من تسييس الدين إلى فكر تديين السياسة حيث انتشرت المسيحية في مصر منذ بداية القرن الثالث الميلادي و تمكنت من التغلب على الأفكار والعقيدة الوثنية التي حكمت مصر قرونا طويلة إلا أن الخلافات بدأت تظهر بين المسيحيين أنفسهم عند ظهور بعض الفرق صاحبة الأفكار الجديدة مثل الاريوسية و النسطورية .

و لكن الخلاف الأبرز الذي استمر حتى الآن قد بدأ بخلاف بين كنيستي روما و الكنيسة المصرية عام 451 بعد ارتقاء الإمبراطور مرقيانوس العرش حين رفض الأنبا ديسقورس بطريرك الإسكندرية المو افقة على بعض المسائل الإيمانية التي أوردها لاون أسقف روما

عن طبيعة المسيح الذي استخدم نفوذه ليقنع الإمبراطور بعزل ديسقورس عن منصبه مما أشعل الخلاف لتبدأ حقبه من المذابح و الاضطهاد نتيجة هذا الاختلاف الفكري الديني بين الأرثوذكس أتباع كنيسة الإسكندرية من جهة و الكاثوليك أتباع كنيسة روما من جهة أخرى وهو ما تحول إلى قرارات سياسية ظالمة على الشعب المصري أدت إلى انهيار مصر اجتماعيا و تفككها بما ساعد على الفتح العربي للبلاد فيما بعد.

و نستطيع أن نعتبر الفترة الثانية من حكم الرومان هي مرحلة التطور التي تحولت بالصراع الفكرى العقائدي ليصبح صراعاً سياسياً خالصاً، و إن كان لا يمكن هنا بمكان أن نعتبر أن هذا الصراع كان نتيجة لتسييس الدين ؛ بل أننا نستطيع أن نجزم بأن الخلاف الديني هو الذي اثر على الساسة و الحكام و تحكم بقراراتهم وهو ما يجعلنا نعتقد بأن هذه الفترة كانت هي المحك الرئيسي لفكرة تديين السياسة التي بدأت جلية منذ هذا العصر لتبقي فكرة غالبة لمعظم مدعي الإصلاح حتى وقتنا هذا، حيث عمد كل من أتي بعدهم إلى فرض معتقداته الدينية بقوة العقل والمنطق في البداية ثم بقوة الصراع والغلبة لاحقا و إنتهاء بقوة السلاح إذا ما أقتضي الأمر ذلك.

لقد سار كل طالبي السلطة والراغبين في الوصول إلى الحكم علي درب رجال الدين الرومان الذين كانوا يقاتلون من أجل فرض الفكر المذهبي أولا بدعوي نشر الدين وتحكيمه ثم لتستقيم السياسة بعد ذلك عندما تدين لهم البلاد بالحكم.

وعندما إتجه العرب لفتح مصر، لم يكن هذا عن مقصد سياسي بقدر ما كان نتيجة للصراع الاسلامى الروماني عندما رفض الرومان السماح للمسلمين بتبليغ رسالتهم عندما تمادوا في إضطهاد هذا الفكر الجديد و محاربته مما دعي المسلمين إلى محاربة الروم والإجهاز علي إمبراطوريتهم حتى يستطيعوا إتمام دينهم وتبليغ رسالتهم الدينية حسب عقيدتهم وقتها بأن إبلاغ الرسالة هي جزء لايتجزأ من الدين.

ونستطيع أن نرصد بداية فكرة تسييس الدين لدى المسلمين بعد عودة الصراع مرة أخرى إلى شكله العرقي الذي كان دائراً في الجاهلية بين بنى أمية و بنى هاشم و الذي إستفحل عند إنشاء الدولة الأموية و توريث الحكم ليزيد بن معاوية بن أبى سفيان و من هنا سارع الخلفاء الأمويين في استخراج الفتاوى من العلماء المسلمين لتأييد حكمهم و صلاحيتهم للحكم.

من هنا بدأت فكرة تسييس الدين في الدولة الإسلامية لكسب القابلية الشعبية للحكم دون اعتراض ولتطبيق شكل من أشكال الثيوقراطية مستنكرين مبدأ الشورى في الإسلام بعد إقرار الحكم بالتوريث في بني أميه بما حدد فرص اى فصيل للوصول الحكم إلا عن طريق الطعن في دين أو نسب الفرقة الحاكمة وهو ما حدث مع المتشيعين لآل البيت بالحكم الذين كانوا يمثلون قوي المعارضة السياسية لنظام الحكم القائم من خلال دعواهم بإستحقاق الخلافة لعلي فقط كرم الله وجهه وللحكم والولاية في ذريته من بعده.

ويمكن الجزم أن هذا الفكر قد تأثر كثيرا بفكرة تسييس الدين و تبعات الصراع العرقي الذي كان دائراً في ذلك الوقت حيث اعتبر الشيعة أن الخليفة يجب أن يكون من النسب العلوي و اعتبروا ذلك فرض كفاية ولهذا بدأ صراع الأنساب و اشتد من الجانب الأموي و العباسي من بعدهم حتى حدث أن إنقسم الشيعة علي أنفسهم بين الزيدية والإمامية.

ولكن تبقي الحقيقة أن الإنقسام الذي حدث بين جماعة أهل السنة وجماعة المتشيعيين لآل البيت قد بدأ في الأساس كخلافاً سياسياً و فكرياً بين جماعتين يدين كلاهما بالأسلام وتضم كلا منهما فصيل من صحابة رسول الله صلي الله عليه وسلم يشهد لهم الجميع بالتقوي والورع والثقل الديني إلا أن هذا الصراع السياسي قد أخذ منحني الإنقسام الديني المذهبي فقط عندما بدأ الناس في الإنقسام والتشيع لطائفة ضد طائفة لتتحول الفكرة من صراع سياسي علي السلطة إلى عقيدة مذهبية طائفية تخرج بدائرة الصراع من حكم الدولة إلى حكم الجماعة أو الفرقة أو الطائفة وسنسرد فصلا كاملا لتوضيح هذا التحول الذي نشأ عنه فكر الجماعات الإسلاميه فيما بعد.

والمعلوم والثابت الذي لايقبل الجدال , أن نتائج هذا الإنقسام كانت وخيمة على الأمة الإسلامية بما أحدثه من تفرقة طائفية إلي المذهبين السني والشيعي ومن ثم إنقسام كل مذهب بعد ذلك إلى العشرات من الطوائف بعضها أخذ الصبغة الدينية المسالمة والآخر أخذ الصبغة الجهادية الإستشهادية ولكن الأخطر كان في الطوائف أو الجماعات التي تسترت بالطابع الدعوي وجهزت داخلها فرق إستشهادية , حيث انتشرت هذه الجماعات بصفتها جماعات دينية دعوية ولكن أهدافها كانت سياسية خالصة حيث كانت تحث أتباعها علي الشهادة في سبيل إعلاء حكم الجماعة بعد أن كانت الشهادة في سبيل إعلاء الدين ونصرته لتبدأ حقبة من العنف والإرهاب الذي إصطبغ بشكل الدين بينما ظل جوهره سياسيا يهدف إلى تمكين حكم الجماعة علي من دونها من جماعات المسلمين.

ولكن أخطر ما نشأ عن هذا الإنقسام الطائفي بين جماعات المسلمين كان في إهتزاز ثقة عامة المسلمين في علمائهم وإختلافهم حول فكرهم وصحة فتواهم وسلامة نو اياهم، حيث تجمع الناس حول العلماء الذين كان لهم الغلبة السلطوية ورفضوا كل من كان له أفكار تحررية تتماشي مع سماحة الإسلام وتسامحه لمجرد أن فكره كان مناهضا للحاكم أو مستهدفا لفكر علماء الجماعة بغض النظر عن صحة أو خطأ أيا منهم لإن التبعية أصبحت للجماعة الأكبر أثرا والأقوي وصولا إلي عامة الشعب , وبالتبعية من توليه من علمائها الذين يدينون بالولاء لأميرهم بغض النظر عن علمه وتفقهه في الدين.

و قد كان هذا الأمر مستغرباً جدا من جماعة تدعي علي نفسها أنها جماعة المسلمين أيا كانت عقيدتهم أو مذهبهم، لإن هذا الفكر يتعارض شكلا ومضمونا مع أصل الشريعة ومنهج الدعوة الإسلاميه حيث أنه من المفترض أن عالم الدين هو شخصية مستقلة تخرج على الناس فقط بما ينصه ويقره الشرع و لا يتأثر بعرف أو سياسة أو فكر جماعة حتى ولو كانت الجماعة هذه هي الجماعة الحاكمة، ولكن هذا التسييس جعل الكثير من العلماء كالألعوبة في ايدى الخلفاء بما جعلهم تابعين لقراراتهم السياسية بحيث أصبح كل من يجاهر بمعارضته لهذا الفكر السقيم عرضه للكثير من المصاعب التي وصلت إلى حد السجن و الحبس و التعذيب .

هذا هو ما حدث مع الإمام الشافعي و الإمام بن حنبل , و أيضا مع القاضي احمد بن رقابة و مثله كثيرين ممن تمسكوا باستقلالية العلماء وعرضوا أراءهم و أفكارهم بحرية أمام الحكام دون اى حرج فكان مصيرهم السجن والتعذيب أو علي أضعف الأيمان... النفي.

و من اشهر القصص التي وردت في الصراع بين الحكام وعلماء الدين في مصر قصة احمد بن طولون أثناء صراعه مع الخليفة الموفق في سعيه للاستقلال بملك مصر، فإذا بإبن طولون يسعي لإستخراج الفتاوى من العلماء ببطلان دعوى الموفق في توليه الحكم ويعلن نفسه حاميا للخليفة المعتمد المغلوب على أمره . وعندما رفض القاضي بكر بن قتيبة - و كان من اكبر فقهاء العصر في ذلك الوقت - الإذعان لدعوي أحمد بن طولون كان مصيره مثل مصير كل من سبقوه أن ألقي به في السجن حتى أواخر أيام حكم بن طولون الذي شعر بالندم على ما إقترف في حق الشيخ الجليل الذي دعي بدعوة الحق فقام بالإفراج عنه و طلب منه السماح ولكن القاضي رد عليه و قال: ((شيخ فان عليل مدنف و الملتقى

قريب و القاضي هو الله عز وجل)) ويقال أن أثر هذه العبارة كان شديدا على نفس بن طولون حتى انه أغشى عليه عند سماعها.

ويمكن الجزم بأن فكرة الخليفة المطاع بموجب الشرع الديني قد برزت علي وجه العموم أثناء الخلافات الإسلامية المتعاقبة والتي بدأت بعد إنتهاء عصر الخلفاء الراشدين وبداية من عصر الخلافة الأموية التي إستهلت و أقرت وعززت فكر توريث الحكم في جماعة بعينها وهو ما ولد فكرة أن الاعتراض علي الخليفة المؤيد من قبل الشرع والدين وشيوخ الأمه - الذين هم بطبيعة الحال شيوخ الجماعة التي تدين بالولاء للخليفة الحاكم - كان يعتبر خلاف مع الشرع و الدين وخروج علي الجماعة وهي الفكرة التي أستمرت في معظم البلدان العربية والإسلامية حتى وقتنا هذا لنجد أن الجماعات الشيعية قد تبنت نفس الفكرة عندما بدأت في إنتهاج فقه الولاية تماما كما فعلت أيضا الفرق السلفية التي خرجت من تحت عباءة المذهب السني حيث إنتهجت نفس الطريق بالدعوة إلى التسليم المطلق والولاء والسمع والطاعة لأمير الجماعة أو مرشدها أو حاكمها.

ولكن الحقيقة أن كلاهما سواء الشيعة أو جماعة أهل السنة قد تشابها في التطبيق وإن إختلفا في الفكر والمذهب ومرجعية العقيدة . وصدق الله العظيم عندما قال: ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ﴾ .

وتعويلا علي ماسبق توضيحه، فإنه يمكن القول بأن فكرة تديين السياسة التي بدأت منذ قدم التاريخ منذ عصور الحكم الفرعوني لمصر وحتي في عصور البطالمة من بعدهم لم تكن بدعة في الحكم حيث أن فكرة إستخدام الدين كمحرك للشعوب هي من فطرة الخلق التي جبل عليها الإنسان منذ الخليقه بعد أن أعطاه الله نعمة العقل ليتدبر في أمر الخلق من حوله ويحاول أن يجد مرجعية لكل أمور حياته ومعيشته والتي لم تكن أبدا إلا المرجعية العقائدية التي يجتمع عليها البشر سواء من كان منهم علي ديانات التوحيد أو من كانوا حتى علي الديانات الوثنية، إلا أن البشر جميعا فطروا علي أن يقبلوا ما تحكم به كهنة عقيدتهم ضد ما تحكم به سياسات حكامهم .

لهذا عمد كل من رغب أو تولي الحكم لأن يعطي سياساته المرجعية الدينية أو اللادينية حتى يصبح في مأمن من إنقلاب شعبه عليه. أما من لم يستطيع تديين السياسة لبعده عن سدة الحكم أو لعدم وجود الدعم البشري الكافي لسياساته فقد عمد إلى تسييس

الدين حتى يعطي الأفضلية لمذهبه العقائدي فيتمكن من أن يحشد الأتباع بالقدر الذي يؤهله لدخول المعترك السياسي ولكن في النهاية يتساوي الأمران لإن كلا منهما لم ولن يهدف أبدا إلى إعلاء صوت الدين بقدر ما كان ولا يزال يهدف إلى تحقيق المكاسب السياسية التي تساعده علي فرض توجهه ومذهبه وحشد الأتباع والأنصار حتى يتم لهم التمكين في الأرض...

ألا لعنة الله علي مسيسين الدين... ألا لعنة الله علي مدينيين السياسة.

إنقسام أم ردة

كان أول من إبتدع لقب « الجماعة » هم الأُمويّون أثناء صراعهم مع العلويين وذلك عندما أطلقوا على العام الذي تمّ فيه التسليم بالحكم لمعاوية عام الجماعة ... ولكنهم لم يكونوا يقصدون أبداً جماعة المسلمين الذين هم أمرهم شوري بينهم بل كان المقصد الجماعة التي تأسّست على الغَلَبة ولصالح الفئة الحاكمة والتي لاينازعها أحد في ملكها أو في حق توريث هذا الحكم و إستخلافه إلا لمن أرتضوه هم حاكما عليهم.

وقد بقي الانتماء لمدلول الجماعة رهناً بطاعة الحاكم والانصياع لأمره حتى ولو كان باطلا، حيث إعتُبِر أن الحاكم هو من إرتضته الجماعه أميرا لها ونصبته حاكما شرعيا عليها بحيث يصبح كل من تمرّد على الحاكم في إحياء سنّة أماتها أو إطفاء بدعة أحياها خارج على الطاعة مفارق « للجماعة » مستحقّ للعقاب النازل على المفسدين في الأرض بحكم شيوخ الجماعة من الذين إرتضوا هذا الفكروسخروا فتواهم لدعم وتعضيد هذا الفكر الأعوج مهما كان قدروعلم من يعارضه.

ويكفي أن نعلم أن الصحابي الجليل حُجربن عديّ الذي كان ينكرعلى المغيرة وزياد سبَّهم أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه، وأنهم كلّما تمادوا في ذلك صعّد هو من إنكاره، فما كان من زياد إلا أن كتب لحاكم الجماعة "معاوية" يطعن في ولاء حُجر وأصحابه ومخالفتهم لفكر« الجماعة » من لعن المخالفين لحكم الجماعة الخارجين على الولاة بما يجعلهم في حكم الخارجين من الطاعة. فما كان من "معاوية" إلا أن أمربقتلهم وهو يحتج بقوله : ((إنّي رأيتُ قتلهم صلاحاً للأُمّة، وأنّ بقاءهم فساد للأمّة))، ليصبح قتل صحابي من أصحاب الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم صلاحا للأمه و إبقاؤه علي قيد الحياة هو مفسدة للأمة بأمر حاكم الجماعة وبمباركة شيوخ وعلماء الجماعة و بتصديق ومؤازرة من تبعهم من الذين تم السيطرة علي عقولهم فأصبحوا لايصدقون إلا مايقوله علماء الجماعة ولايرون إلا مايريهم أمير الجماعة ولايعلمون من الدين إلا ماتقره جماعتهم.

هكذا بدأ فكر الجماعة بحاكم طامح لإعادة أمجاد قبيلته بني أمية وتمكينهم من الحكم بعد أن أفقدهم الإسلام هذا الجاه بل وخرج من يدعي بأحقية بني هاشم في الإستئثار بالحكم، فلم يرضي إلا أن يزيح من طريقه كل من ينازعه مجد قبيلته ويجمع حوله بعض من تفقهوا في الدين ليسخروا علمهم وفتواهم في إثبات أحقيته في الحكم ليقوم بعدها بتجييش التابعين الذين تم حشو أدمغتهم بهذا الفكر العنصري ليسيروا كما القطيع حسبما تشير إليهم عصا الأمير وهو يريهم الهلاك بصورة الشهادة ويريهم القتل بصورة القصاص ويريهم الإختلاف بصورة الخلاف. ويكفي أن نعرف أنه عندما قتل عمار بن ياسر وهو من قال عنه رسول الله صلي الله عليه وسلم: ((ويحك إبن سميه، تقتلك الفئة الباغية))، فإذا بالناس تخرج علي معاوية وتنعت جماعته بالفئة الباغية فما كان من معاوية إلا أن رد عليهم القول بأن من قتله هم من أخرجوه للقتال...والعجيب أن الناس قد قنعوا بمقولته وإستمروا في حربهم وكأنهم كانوا فقط يريدون عذرا أيا كان لكي يعموا قلوبهم ويغيبوا عقولهم.

هل لهذه الدرجة يضل الناس في تبعيتهم الفكرية ؟ هل لهذه الدرجة يفقد الناس قدرتهم علي الإستبصار بحقائق الأمور عندما يتم حشرهم داخل جماعة و إقناعهم أن هذه الجماعة فقط هي من تملك صحيح الدين وأن دونها الباطل؟ هل لهذه الدرجة يمكن تغييب عقول الناس إذا ما قنعوا أن عقيدة جماعتهم هي كل دينهم؟

لقد بقي فكر الجماعة حتى يومنا هذا لايخرج أبدا عن هذا الفكر العنصري مهما حاول التخفي تحت عباءة الفكر الدعوي والمطالبات الإصلاحية والمظاهر التسامحية، إلا أنه هكذا بدأ فكرا عنصريا لا يصدق إلا في عقيدته يرحب بكل من يتفق معه من مسلمين أو مسيحين أو يهود أو حتى كفاراً أو مجوسيين ويدخل كل من يختلف معه في طائفة الخارجين عليه المطرودين من رحمته الملعونين من الدين.

هكذا قُلب الدين رأساً علي عقب حين جُرِّدت كلمة « الأمير» من كلّ مقوّماتها وضوابطها الشرعية التي بها نعت عمر بن الخطاب كأميرا للمؤمنين لتصبح بفعل جماعة المسلمين فيما بعد لقباً من نظير «الفرعون» و «النمرود» و «القيصر» و «كسرى» وغيرها من الألقاب التي أطلقتها الأمم علي حكامها. بل هكذا جردت كلمة الجماعة من معناها اللغوي التي تعني إجماع الأمة لتصير مرادفا للغلبة من أتباع الحاكم، ولنجد الجمع من الصحابة والتابعين بل و أهل بيت الرسول صلي الله عليه وسلم يتم إعتبارهم من

المفسدين في الأرض إن هموا خرجوا علي الحاكم الذي ولي نفسه علي جماعتة، ورفضوا عقيدة وفكر « الجماعة » حتى أصبحوا من الساعين إلى الفتنة مستحقي القتل، لتبقي الجماعة رهناً بطاعة « الخليفة » دون النظر إلى طريقة استخلافه أو صلاح فكره أو إستواء حكمه وبغض النظر عن رأي علماء الأمة طالما كان رأي علماء الجماعة يقر حكم أمير الجماعة ويثبته.

عندما خطب الوليد بن عبد الملك يوم مبايعته بالخلافة قال: ((أيّها الناس، عليكم بالطاعة، ولزوم الجماعة، فإنّ الشيطان مع الواحد! أيّها الناس من أبدى لنا ذات نفسه ضربنا الذي فيه عيناه، ومن سكت مات بدائه)) لقد لخص الوليد فلسفة الجماعة في كلمة واحدة " الطاعة "... فقط الطاعة ولا شئ أخر، فمن لزم الطاعة فقد أصبح واحدا من الذين أطلقوا علي أنفسهم لقب الجماعة يأمن بجوارهم ويفزع بتركهم. و هذا هو الفكر والعقيدة التي ظلت باقية حتى يومنا هذا تميّز أهل أي جماعة دينية أو سياسية أو فكرية أو عقائدية لتجعل ولائهم فقط لجماعتهم وحاكمها قبل الوطن ومؤسساته وسيادة دولته.

وفي المقابل ظهرت جماعة أخري دانت بالولاء لآل بيت الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم وتشيعوا لسلالته من أبناء فاطمة وعلي بن أبي طالب .. وهؤلاء هم من أطلق عليهم لقب الر افضة لقيامهم بشق عصا الجماعة حسب مفهومها الأموي وطالبت بالحكم في آل البيت ودار بينها وبين حكام بني أميه الحروب الكثيرة والتي إنتهت جميعها بقتل آل البيت وبقاء حكم بني أميه ليستقيم حكم الجماعة ضد مطالبة الر افضة بالحكم وهو مايثبت ولا يدع معه مجال للشك أن تديين السياسة كان هو الهدف الذي يسعي إليه كلا الطرفين بغض النظر عن صحة أو خطأ دعوي كليهما . وليصبح هذا الفكر هو الإرث الملعون الذي توارثه أحفاد الجماعتين ليخرجوا علينا ببضع وسبعين فرقة كما أخبرنا الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم. ولتري كل فرقه نفسها علي الصواب بينما تري كل من يخالفها علي الباطل وليكون لكل فرقه أميرهم الذي يأتمرون بأمره ولايرون إلا مايري وليثبتوا جميعا قول الحق: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ﴾.

عندما بدأت الردة عن الإسلام بعد موت الرسول صلي الله عليه وسلم، وجاء المرتدون إلى الخليفة الأول أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه يرتضون من دينهم مايرتضونه إلا أن يدفعوا الزكاة وكان رأي جماعة المسلمين وقتها أن يتم المهادنة معهم حتى يفرغوا من قتال الفرس

ثم يرجعون عليهم ليعيدهم إلى الصواب، فقد فاجأ أبو بكر جماعة المسلمين بقولته التي زلزلتهم وجعلتهم كلهم يرجعون عن رأيهم ويو افقونه علي قراره بحربهم ولو في عقال عنزة.

لقد أبصر أبو بكر رضي الله عنه ما لم يبصره عموم المسلمين جميعا عندما أخبر عمر أن الجزيرة العربية جميعها لم ترتد عن الإسلام إلى عبادة الأوثان وهي الأقرب إلى الردة حيث أنهم كانوا علي عهد قريب منها ويملكون من الدو افع مايجعلهم يعودون إلى عبادة ما كانوا يعبدون هم و أبائهم الأولون بعد موت الرسول صلي الله عليه وسلم. إلا أن العرب إرتدوا عن إتباع كل الدين إلى مايرتضونه هم من بعض الدين ... لقد رأي أبو بكر أن الردة لم تعد في عموم الدين الذي حفظه العزيز القدير، ولكن الردة قد أصبحت في بعض الدين كل حسب رؤيته وقدرته علي إقناع من حوله وتفسيره لأحكام الدين.

لقد لخص آبو بكر رضي الله عنه أمر ردة المسلمين التي نحن عليها حتى الآن في جملة واحدة وهو يخاطب عمر عندما كان يحاول أن يثنيه عن قراره بحرب من أرتدوا ويحاول إقناعه لكي يأخذهم باللين فقال له: ((رجوت نصرتك وجئتني بخذلانك ؟ أجبار في الجاهلية وخوار في الإسلام ؟ إنه قد انقطع الوحي، وتمَ الدين، أوَينقص و أنا حي))

لقد تبين للصديق أن الردة في بعض الدين هي أعظم من الردة في عموم الدين و أنه لو تركهم يأخذون من الدين بعضه لفتح بابا علي الإسلام لن يستطيع أحد درئه. ووالله الذي لا إله إلا هو أنه لصادق ... ووالله الذي لا إله إلا هو إنه لهو الصديق، وها نحن الآن نعيش عصر الردة الجزئية لمفهوم الدين ليؤخذ منه ويترك ويعمل ببعض الدين ويكفر ببعضه الآخر ونحن بين هذا وذاك لانستطيع لها درئا...لله درك يا خليفة رسول الله.

نعم إنها الردة التي بدأها بعض من أدعوا النبوة من أمثال مسلمة بن حبيب أبن حرب أو "مسيلمة الكذاب" كما أطلق عليه رسول الله صلي الله عليه وسلم عندما أرسل له رسالة يقول فيها: ((من مسلمة رسول الله إلى محمد رسول الله: آلا إنى أوتيت الامر معك فلك نصف الأرض ولي نصفها ولكن قريش قوماً يظلمون)) . فرد عليه الرسول صلي الله عليه وسلم الرساله وجاء فيها: ((من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب، السلام على من أتبع الهدى، أما بعد،..... ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

و أيضا كان هناك طليحة بن خويلد الأسدي ممن إرتدوا بعد وفاة النبي صلي الله عليه وسلم حيث إدّعى النبوة في قومه بني أسد وتبعه بعض من قبائل طيء وغطفان في أرض نجد، إلا أنه هزم مع أتباعه على يد خالد بن الوليد في معركة بزاخة ودخل الإسلام على إثر ذلك. والعجيب في الأمر أنه بعد أن أسلم وأحسن إسلامه، فقد شهد القتال مع خالد بن الوليد، فإذا بأبو بكر الصديق يكتب إلى خالد ان استشره في الحرب ولا تؤمره، وهذا من فقه الصديق حيث فطن أنه ما إدعي النبوة إلا حباً في الزعامة، فماكان منه إلا أن أعطاه بعضا مما يحب ولكنه لم يفرط فيما وجب عليه من إتمام الدين.

أما عبهلة بن كعب بن غوث العنسي المذحجي المعروف باسم "الأسود" و"ذي الخمار" فقد إدعي النبوة في حياة الرسول الكريم وقاتل معاذ بن جبل وهو من أعمله الرسول صلي الله عليه وسلم علي اليمن والذي قام بالهرب واللجوء إلى "بني السكون" أحد بطون كندة لإنه كان متزوجا منهم. وقد إستولي الأسود علي كلا من صنعاء ونجران وحضرموت و الإحساء حيث تبعته بعض قبائل اليمن لتعصب فيهم إذ أنها رأت في الزكاة أتاوة يدفعونها لقريش. وقد تم قتل العنسي علي يد فيروز اليمني بعد أن أرسل الرسول صلي الله عليه وسلم إلى قبائل المسلمين في اليمن يطلب منهم مقاتلة العنسي بعد أن إستشري شره وأصبح يشكل تهديدا للدولة الإسلامية فقام فيروز بالإتفاق مع زوجة الأسود -إزاد الفارسية - والتي كانت له سبية وهي من قامت بسقيه الخمر حتى ذهب في سكرته ودخل عليه فيروز وقتله لينهي بهذا أول ردة في الإسلام في عهد الرسول صلي الله عليه وسلم.

وفي عمان ظهر لقيط بن مالك الأزدي، وإستطاع أن يستولي عليها من أمرائها الذين إستغاثوا بأبي بكر الصديق فأرسل له جيش عكرمة بن أبي الحكم ليقضي عليه ويعيد قومه إلى الإسلام وليرتضوا الزكاة التي حاولوا تحت إمرة نبيهم الكذاب أن يمتنعوا عنها.

أما البحرين فقد كان يقطنها كلا من بنو عبد القيس وبنو بكر وقد إرتدوا بعد موت الرسول صلي الله عليه وسلم عندما قالوا لو كان رسولا ما مات، فثبتهم الله بالجارود وهو من سادة بنو عبد القيس الذي سألهم عن الرسل والإنبياء الذين أرسلهم الله من قبل، إن كانوا قد أخبروهم أم أنهم رأوهم رؤي العين فقالوا: بل خبرناهم ولم نراهم فسألهم: فأين هم الآن فأجابوه أنهم قد ماتوا، فعندها ثبتهم بقوله أن الرسل يموتون ولكن الدين لا يموت فثبتوا علي الإيمان وعادوا عن ردتهم بل وخرجوا مع المسلمين بعد ذلك في حروبهم و أبلوا في ذلك بلاء حسنا.

ومن العراق أتت سجاح بنت الحارث بن سويد بن غفقان التميمية المسيحية التي أدعت النبوة بعد موت الرسول صلي الله عليه وسلم بما كان لها من العلم أخذته من ثقافتها العر اقية المسيحية في وقتها. وقد تبعها جمع من عشيرتها من كبار بني تميم حيث بلغت بها الجرأة وسوء تقدير الأوضاع أنها قد أقنعت أتباعها بالتوجه إلى الحجاز لغزو مكة والإستيلاء علي الخلافة من أبو بكر و أتباعه. ولكن من المفارقات أنها في أثناء سيرها عرجت علي مسيلمة الكذاب حيث تزوجته و إنضمت تحت لو ائه وبعد هزيمته وقتله علي يد جيش المسلمين تابت وأسلمت وصلح إسلامها حتى ماتت في البصرة.

والجدير بالذكر أن الردة التي حدثت بعد موت الرسول صلي الله عليه وسلم كانت كثيرة و إنتشرت بين معظم قبائل العرب وخاصة تلك التي بعدت عن مركز الحكم الإسلامي وقتها في المدينة وأن معظمها قد نشأ تحت إمرة من أدعوا النبوة الذين عملوا علي تجميع الناس من حولهم من خلال تبسيط الدين وإعطاء الرخص لما تم تحريمه من قبل كأباحة الربا مثلا أو أن يتم تقنين الزنا أو تحليل شرب الخمر حتى أن مسيلمة الكذاب عندما خرج علي أتباعه فقد قام بإسقاط صلاة العشاء والفجر عن المسلمين للتخفيف عليهم.

لهذا كان إجتماع الناس علي هؤلاء المدعيين هو إجماع علي الرغبة في تخفيف بعض الدين أو للحصول علي رخصة فيما إشتهته أنفسهم ومنعهم الدين عنه أو كان نصرة لشخص عذب الكلام ألحن اللسان طامح في الحكم وبنصرته يصبح محكوم اليوم في سدة الحكم غدا، وأغلب الظن أن الأخيرة كانت ولازالت هي المحرك الرئيسي لكل من سار أو يسير أو سيسير في هذا الدرب وكل من جعل من الدين غطاء لجمع الناس حول فكر أو عقيدة فردية لتكوين جماعة مذهبية طائفية تعتنق فكر أميرهم وتعمل بأمره وتسير علي نهجه حتى يتم تجييش الحشود ممن إقتنعوا بهذا الفكر المغلف بطابعه الديني ولكن باطنه ملئ بصراعات سياسية ورغبات سلطوية وخطط إستحكامية وجميعها لا يهدف إلا لنشر فكرهم الذي لايرون إلا صحيحه وبالتالى جمع أكبر قدر من الأنصار والمؤيدين لهذا الفكر تحت ستار الدين ليصبح من يعادي هذا الفكر معاديا للدين ومعاديا بالتبعية لله ورسوله فيجوز محاربته وقتله وإستباحته حتى يتم التمكين لهم ولجماعتهم ولعقيدتهم المذهبية إلى أن يستطيعون أن يحكموا بما أنزله عليهم مرشدهم وأمير جماعتهم من تفسيرات عوراء لصحيح الدين تجعل كل من يرفض فكرهم خارج علي جماعتهم و بالتبعية من الخارجين علي عموم الدين الذي نصبوا أنفسهم حماة له فيصبح القتل هو

جزاء من خرج علي جماعتهم في حين يبيح لهم نفس هذا الفكر الأعور الخروج علي الحاكم الشرعي جهادا في سبيل عقيدتهم وهم علي قناعة أن جزاءهم ليس إلا النصر وتبعاته أو الشهادة وأجرها... أي دين هذا..!!

هكذا بدأت حركات التغيير في الإسلام في عهد الرسول صلي الله عليه وسلم ممن أرادوا مشاركته الرسالة والنبوة عندما رأوا أن النبوة هي أفضل الطرق للوصول إلى الحكم و إحكام السلطان و تحصيل الأموال و الفوز بالغلبة فما كان منهم إلا أن خرجوا علي الناس بدعواهم التي كان ظاهرها دعاوي التجديد الديني والإصلاح المجتمعي بكل ما تتضمنه من فتاوي وشروحات مذهبية تعطي الأفضلية دائما لمن تبع هذه العقيدة وتصورهم أنهم فقط علي الحق وأن نصرهم حق علي الله سبحانه إن هم نصروه فيكون لهم الجنات التي تجري من تحتها الأنهار.

و لكن القارئ لسيرة هذه الجماعات سيجد أن معظم قادة هذه الجماعات قد قاموا بتصوير بعض عطايا جنتهم المزعومة علي الأرض بالإغداق بالنعم علي من تبعهم في سبيل إقناعهم بعقيدتهم التي تثبتها رؤيتهم المادية لثمار جنتهم من رغد العيش ونعيمه الذي نراه يظهر علي كل من يتبع هذه العقائد كلا حسب درجة إنخراطه في الجماعة ومقدار تحمسه له حيث يكون الجزاء دائما مساويا أو يزيد لمقدار القناعة الفكرية المذهبية التي يبديها هؤلاء الأتباع وهو ما يتطلب للأسف مقداراً مساوياً من التغييب الفكري بحيث أنه كلما زادت قدرتهم علي تغييب عقول أتباعهم ومحو كل ما تعلموه وتربوا عليه من أسس تربوية وعقائدية ودينية ومجتمعية ليستبدلوه فقط بفكر جماعتهم وأميرهم ومرشدهم الذي يمليه عليهم بل ويكافئهم به أيضا علي حسن أيمانهم بعقيدة الجماعة ليستحقوا حسن الجزاء في الدنيا بفرض نصيبا لهم من غنيمة الجماعة قبل أن يستحقوا حسن الجزاء في الأخرة إن صح أيمانهم وماتوا علي عقيدتهم العرجاء.

أما الإنقسام الذي حدث في الأزمنة اللاحقة بين الجماعة والر افضة فقد ظل محصوراً في كونه إطاراً سياسياً بين أتباع علي كرم الله وجهه وبين أتباع معاوية الذي كان يري أحقية الحكم في بني أميه وخاصة بعد أن تمت بيعته من بعض المسلمين بعد و اقعة التحكيم المعروفة. إلا أن الفرقة والخلاف والإنقسام الحقيقي قد أخذ شكله العنصري الذي نحياه اليوم عندما تم تطبيع الصراع بشكله الديني البحت حيث أطلقت الجماعة علي نفسها أهل السنة وجعلت من الر افضه أهل البدعة.

يخبرنا إبن سيرين الذي توفي عام 110 هجرية عن أول ظهورلهذا التقسيم في حديثه الذي قال فيه ((كانوا لا يسألون عن الإسناد حتّى وقعت الفتنة، فلمّا وقعت الفتنة سألوا عن الإسناد، ليُحدَّث حديث أهل السنّة ويُترك حديث أهل البدعة)) . وهو الفضل الذي أعطته الجماعة لنفسها ولأتباعها بكونهم أهل السنة يحدثون بما رأوه وعلموه من أحاديث الرسول صلي الله عليه وسلم في حين جعلت غيرهم من الر افضة في مقام أهل البدعة فلايحدثون بحديثهم ولا يعتدون بإسنادهم.

وبهذا أعطت الجماعة نفسها حق الوصاية علي الدين و المحافظة علي سنة الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم و شككت في المرجعية الدينية لكل من خالفها وبالتالى أسقطت عنه أحقية الولاية علي المسلمين، وهو ما شكل بداية فكر تديين السياسة في الدولة الإسلامية بعد أن تحكمت النزعة القبلية لتجعل من الحكم هدف بذاته يسعون إليه ويقدمون عليه أي مصلحة مهما علت بل وجعلوا من الدين وسيلة لديمومة حكمهم وهو الشر الذي أبتلينا به منذ أيام معاوية حتى يومنا هذا وندفع ثمنه يوما بعد يوم.

وبإنقسام الإسلام إلى مذهبين سياسيين في البداية بين جماعة أهل السنة المؤيدين إلى حكم معاوية وبين الر افضة المتشيعين لآل البيت بدأت حقبة جديدة في تاريخ الطو ائف الدينية التي كانت تجتمع علي عقيدتها تحت لواء أميرها أو وليها في حين أنها تظهر ولائها للحاكم حتى وإن إختلفوا علي أحقيته في الحكم ولكنه كان ولاء ضعف وإستكانة حتى يتم لهم التمكين في المحافظة علي جماعتهم وفكرهم وعقيدتهم وهو ما كان يمثل الهم الأكبر لكل جماعة حيث إنتهجوا فكر التقية الذي كان يعطيهم الحق في إظهار ما لا يبطنون خشية بطش حاكم أو خشية التنكيل بمذهبهم و أتباعه.

لقد تحول الأمربعد هذه الفتنة من غلبة المجتمع إلى غلبة الطائفة .. من غلبة الوطن إلى غلبة الحدود اللاجغر افية لفكر الجماعة .. لقد تحول الأمر للأسف من غلبة الدين الذي إرتضاه لنا العزيز الحكيم إلى غلبة العقيدة المذهبية التي يرتضيها أمير الجماعة لإتباعه.

وحتي يمكن أن نعلم كيف بدأ هذا الإنقسام، فإنه لابد لنا من معرفة قصة نشأة فكر الإنشقاق والخروج علي جماعة المسلمين التي بدأت في نهاية عصر ذي النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه، حيث بدأ الخوارج في ثورتهم بعد أن إنقسموا إلى ثلاث جماعات سميت جميعها بالخوارج كما أطلق عليهم جماعة أهل السنة فيما بعد إلا أنهم قبلوا بهذه

التسمية ولم يجدوا فيها حرجا إذ أعتبروا أنفسهم خوارجا من الخروج علي الحكم الجائر أو الخروج في سبيل الله وهو ما أعتبروه تشريفا لدعوتهم ومذهبهم.

وقد بدأت الخوارج في ثلاث فرق هي:

- الأزارقة: أتباع نافع بن الأزارق الحنفي . من بني حنيفة قوم مسيلمة الكذّاب . وهو صاحب الأسئلة المعروفة في غريب القرآن التي أجابه عليها ابن عباس رضي الله عنه. وقد دخل الأزارقة في حروب كثيرة مع الأُمويّن في البصرة وبلاد فارس دفاعا عن مذهبهم وعقيدتهم بعد أن توقفوا عن مساندة فكرة التشيع لأهل البيت، حتّى فَنوا على يد المهلّب بن أبي صفرة في زمن عبدالملك بن مروان
- النجدات: أصحاب نجدة بن عامر الحنفي . من قوم مسيلمة أيضاً . وقد تمكّنوا من الاستيلاء على البحرين وحضرموت واليمن والطائف في بداية صراعهم مع بني أمية إلا أنهم قد إختلفوا عن الأزارقة في فتوي التقيّة و القعود عن القتال حيث خالفت النجدات الأزارقة في جواز التقية وفي جواز القعود عن القتال . ولهذا سميت النجدات أيضا بالعاذرية لأنهم عذروا القاعد عن القتال لعذروهو ما أباح لهم عدم وجوب نصب العداء للإمام إلا إذا اقتضت المصلحة تمشّياً مع حالهم في التقية التي آمنوا بها . وقد تلاشت دعوتهم تلقائيا عندما توقفوا عن أمر القتال ودخلوا في زمرة الجماعة راضيين مستصغرين.
- الإباضيّة: وهي الفرقة الباقية حتى اليوم من بين سائر فرقهم الأُخرى والمنتسبين إلى عبدالله بن إباض. ويجدر الإشارة إلى أنهم لم يستعملوا هذه التسمية في بادئ عهدهم بل كانوا يسمّون أنفسهم جماعة المسلمين أو أهل الدعوة ولم تظهر التسمية بالإباضية في مؤلّفاتهم إلا بعد ثلاثة قرون تقريباً. أما مبادئهم التي ميّزتهم عن الفرقتين الأخرتين فكانت كما أعلنها ابو بلال مرداس بن حدير، وهو أحد المحكّمة الأُولى الذي انفصل عن المارقة في البصرة، قائلاً: ((والله إنّ الصبر على هذا .يعني الظلم الأُموي . لعظيم.. وإنّ تجريد السيوف وإخافة السبيل لعظيم.. ولكنّنا ننتبذ عنهم، ولا نجرّد سيفاً، ولا نقاتل إلا مَن قاتَلنا)). وهذا هو المبدأ الذي ميّز هذه الطائفة عن غيرها من الخوارج بل يمكننا القول أن هذا المبدأ هو الذي حفظ لها وجودها وبقاءها في أشكالها المختلفة وطوائفها المتعددة إلى يومنا هذا عندما وضعت القتال وجعلت من بقائها في حد ذاته هدفا يفوق وصولها للحكم إلى حين.

وقد إنفردت الإباضية في وقتها بعقيدتها التي جعلت من القرأن مرجعا أساسيا لها ولمسند الربيع بن حبيب الأزدي البصري، وهو ماكانوا يسمّونه « الجامع الصحيح » ويعتقدون بصحّة كلّ ما فيه سواء كان مسنداً أو مرسلاً، حيث جعلوه أصحّ كتاب بعد القرآن. وقد كان هذا هو بداية الإنشقاق الفكري عند جماعة المسلمين حيث إتفقوا جميعا علي القرأن ككتاب منزل من عند العزيز القدير سبحانه ولكنهم جعلوا من تمام العقيدة التصديق في مسند الإحاديث يقبلون ما يقبلون منها ويرفضون ما يرفضون إن هم إختلفوا مع المسند.

ولهذا وجدنا جميع الطوائف التي خرجت فيما بعد سواء من تحت عباءة جماعة أهل السنة أو جماعة أهل البدعة كما أطلق عليهم، قد جعلت المرجعية الفقهية قائمة فقط لبعض علمائها أو كتابها أو منظريها يحتكمون إليها عند الإختلاف ويرجحونها ضد أي فكر مناهض لفكرهم وهو ما جعل الدين كله فيما بعد يعتمد علي المرجعية الفقهيه و الرؤية الشخصية للأمير وعلي النواحي التفسيرية لأصول الدين وعلوم القرأن لكل جماعة كل حسب إجتهاده وعلمه وقدراته الفقهيه إذا كان من العالمين بأصول الدين أو حسب طموحاته السلطوية ونزعته السياسية إذا كان من المدعيين المتخفيين برداء الدين.

و الخوارج هي بطبيعة الحال إحدي الفرق الإسلامية التي نشأت في نهاية عهد الخليفة عثمان بن عفان وبداية عهد الخليفة علي بن أبي طالب، نتيجة الخلافات السياسية التي بدأت في عهد عثمان عندما قنع هؤلاء الخوارج بدعوة زعمائهم من أمثال عبد الله بن سبأ -الذي إختلف علي وجوده المؤرخين- الذين هاجموا عثمان بن عفان وأتهموه بمحاباة أهله و أقاربه وإغداقه عليهم في العطايا والمناصب والهبات. ولأن معظم هؤلاء الخوارج كانوا من القراء حفظة القرأن، فقد لاقت دعواهم صدي في نفوس بعض الناس ليلتفوا حولهم وينقلبوا علي أمير المؤمنين ويحيطوا بمنزله بل ويخرجوا عليه حتى قتلوه... وهم حملة كتاب الله وقراءه وحفظته... !!!

نعم كان في عثمان رضي الله عنه وأرضاه نزعة قبلية وكان يري في صلة رحم قومه من قريش كرامة ولا يراها سبة بل أنه عندما لامه الإمام علي وأخبره أن الشيخين (يقصد أبو بكر وعمر) كانا لايضعان أنفسهما موضع ريبة ولا يولون من أقاربهم درءا للشبهه، فإذا بعثمان يدفع بمنطقه في أنهما ترك صلة رحمهما درءا للشبهه وتقربا لله سبحانه و أنه يصل رحمه تقربا لله ولا يري في ذلك شبهه.

نعم كان لعثمان رؤية خاصة عندما جمع لمعاوية حكم الشام وهو من ولاه عمرا قبل عثمان رضي الله عنهما ولكن بعد موت يزيد أخوه لمعاوية وكان واليا علي الأردن فإذا بعثمان يجمع لمعاوية الأردن مع الشام كما ضم له فلسطين بعد موت حاكمها عبد الرحمن بن علقمه ثم يقوم بعزل عمير بن سعد الأنصاري و إلى حمص ليضمها إلى ولاية معاوية فيعقد لمعاوية الأجناد الأربعة ويمكنه من أن يبسط ولايته علي بلاد الشام جميعا حتى أن الناس من حوله كانوا لايرونه واليا معينا من قبل أمير المؤمنين، بل كانوا يرونه ملكا متوجا علي بلاد الشام من شدة بسطته علي الحكم وطول ولايته التي إمتدت منذ عصر عمر إلى عصر عثمان والتي إمتدت إلى مايزيد عن عشرين سنه حتى نهاية عصر علي، ليقوم بإعلان نفسه خليفة المسلمين ويجعل من بلاد الشام حاضرة الإسلام وعاصمته.

نعم فرض عثمان علي دولة الإسلام ولاة من بني عصبته من قريش عندما ولي الوليد بن عقبه (أخوه من أمه) علي بلاد الكوفه بالرغم من رفض أهل الكوفه له وتعللهم بأن الوليد كان من المذمومين في عهد رسول الله وأنه قد نزل في ذمه قر انا . حيث غش الرسول وكذب عليه، و أنزل الله فيه قر اناً ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ والمقصود بالفاسق هنا هو الوليد كما أخبر علماء التفسير. وبالرغم من أن عثمان كان علي قناعه بمنطقه ولا يقبل كثيرا المراجعة من أحد إلا أنه عندما أقام أهل الكوفة الحجة علي الوليد بأنه يعاقر الخمر حتى أنهم قد سرقوا منه خاتمه أثناء سكرته، فقد إستدعاه عثمان للمدينة بل و أقام عليه الحد والذي نفذه فيه الإمام علي رضي الله عنه وأرضاه.

وبعد عزله للوليد، قام بتعيين سعيد بن العاص واليا علي الكوفة وهو ما تقبله أهل الكوفة ووجدوا فيه حكما صائبا...وهو ما يوضح أن عثمان لم يكن من المتشبسين بفكره وقناعته، أوكان ممن لا يسمعون ولكنه في حقيقة الأمر كان ممن يسمعون ولكن يسيرون وفق قناعتهم في تناول مسئولياتهم... وشتان بين هذا وذاك .

إلا أن سعيد بن العاص قد أثار أهل الكوفه عليه عندما كان يتحدث إليهم في مجلسه ليخرج عليهم بقوله ((إنما السواد بستان لقريش)) وهو مايعني أن قريش قد سادت علي أرض العراق، فيثور الناس علي سعيد وهو من أرتضوه من قبل ولكنهم ثاروا علي نزعته وقبليته ولم يرتضوها منه لإنهم لم يكونوا يرون فضلا لقريش عليهم ولا حتى بسبقهم إلى الإسلام.

ونعتقد إعتقادا يقينيا أن السبب الرئيسي في إشتعال هذه الثورة علي حكم عثمان يعود إلى التزامن الذي حدث بين أحداث الكوفه والأحداث التي حدثت في مصر عندما كافأ عثمان عبد الله بن أبي سرح - أخو عثمان في الرضاعة - والذي أبلي بلاء حسنا في فتوحاته الأفريقيه، فما كان من عثمان إلا أن ولاه علي مصر بعد عزل عمرو بن العاص وهو الأمر الذي رفضه أهل مصر ومشايخها وأرسلوا في ذلك الوفود إلى المدينة ليثنوا عثمان عن رأيه لإنهم قد علموا من أمر عبد الله أنه كان رجل سوء و أنه قد إرتد عن الإسلام وقد أهدر الرسول صلي الله عليه وسلم دمه يوم الفتح إلا أن عثمان قد شفع له عند الرسول ليعلن توبته وإسلامه.

ولكن عثمان لم يكن يري في أخيه جاهليته بل كان يري فيه إسلامه وفتوحاته التي حققها لنصرة الإسلام فثبته علي حكم مصر. ويذكر التاريخ أن عثمان قد كتب له ليترفق في معاملة أهل مصر ويتلطف بهم، إلا أنه زاد في سطوته وقام بمعاقبة من إشتكوه لأمير المؤمنين، وهو ما أدي بطبيعة الحال إلى إشتعال سخط الناس علي هذا الوالي المستبد الذي لم يكن يعرف للناس أقدراهم. وهو ما يمكن إعتباره نوعا أخر من القبلية الفكرية التي فصلت بين الوالي ورعيته تماما كما حدث بالكوفه مع إبن العاص ليجتمع الساخطين تحت لواء رفضهم لحكم عثمان الذي ولي عليهم من لا يعرفون للناس قدورهم...فكانت الثورة علي عثمان هي ثورة علي عودة القبلية وتحكمها في أركان الدولة قبل أن تكون ثورة علي نزاهة ونقاء سريرة عثمان التي لن ينال منها أبدا ثورة من ثاروا عليه.

ويثبت التاريخ والمؤرخون أن عثمان لم يكن مستبدا في حكمه و أنه كان يأخذ قومه باللين، إلا أن التاريخ يثبت أيضا أن عثمان كانت له قناعته في إثبات الفضل للسابقين في الإسلام ولقومه من قريش ولعصبته من بني أميه وكان يري أن هذا من صميم الإسلام لإن الله قد خلقنا طبقات ودرجات و أنه لا ضير أبدا من إثبات الأفضلية لشخص علي شخص أو لقوم علي قوم...وهذه قناعته ومنهجه الذي كان يحكم به فجعل معظم الولاة علي الأمصار من بني قريش كما وأغدق في العطاء وتوزيع الأموال علي أهل قريش بصفة عامة وعلي بني أمية بصفة خاصة وهو ما دعي بعض كبار الصحابة للخروج علي عثمان مثلما أنكر عليه أبو ذر الغفاري سياساته الماليه وعطاياه الكبيره لإبن عمه مروان بن الحكم وأخاه الحارث حتى قام عثمان بنفيه من المدينة إلى الشام عند معاوية فما كان من أبو ذر إلا أن أنكر

علي معاوية نفسه البذخ في الإسراف وفي تشييد القصور. ليقوم عثمان بنفيه مرة أخرى إلى الربذه وهي محطة للقو افل تبعد عن المدينة حوالي 170 كيلو متر وفيها مات أبو ذر وحيدا كما أخبر الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم عندما قال: ((رحم الله ابي ذر، يأتي وحيدا، ويموت وحيدا، ويبعث يوم القيامة وحيدا))

وكما رفض أبو ذر الغفاري سياسات عثمان، رفض أيضا عمار بن ياسر من عثمان أمر توليته لأقاربه دون باقي المسلمين و أمر إطلاق يده في المخصصات المالية ليغدق بها علي من يشاء من قومه الأمر الذي إستقال بسببه عبدالله بن الأرقم من خز انة بيت المال في المدينة وكذلك فعل عبد الله بن مسعود من بيت مال الكوفه إعتراضا علي سياسات عثمان المالية في توزيع أموال المسلمين علي أقاربه من بني أميه دون باقي المسلمين.

أما عمار فقد جاهر برفضه لسياسات عثمان في أكثر من موضع حتى أنه قد إستثاره ذات مرة في جمع من الناس فأمر عثمان بضربه حتى أصيب بفتق وهو الشيخ الكبير، ليخرج عمار وهو يقول: ((والله ليست هذه أول مرة نصاب فيها)). وقد إعترض عمار وجاهر بمعارضته في أمر نفي أبو ذر الغفاري إلى الربذة ولام فيها عثمان بل وجاهر بذلك علي الملأ حتى أمر عثمان بأن يلحق عمار بأبي ذر، فيعترضه الإمام عليّ في محاولة منه ليثنيه عن قراره ولكن عثمان هاج وثار حتى وكأنه كان سيأمر بنفي الإمام علي أيضا إلى الربذة، ولكنه ما أن هدأ وعاد إلى طبيعته اللينه حتى رجع في قراره ولم ينفي لا عمارا ولا عليا.

أما طلحة بن عبيد الله فهو أحد أعلام المدينة وأغنيائها الذين كانوا في مجلس الشوري الذي كونه عمر قبل موته لإختيار من يحكم بعده، إلا أنه كان في تجارته خارج المدينة وقتها وعندما عاد كان المجلس قد بايع عثمان في وقتها فإمتنع عن البيعة إلى حين ثم عاد وبايع عثمان بعد تدخل ومساعي عبد الرحمن بن عوف وهم من كان يربطهم ثلاثتهم أعمال وتجارة. ولكن التاريخ يقول أن طلحة قد أنكر علي عثمان سياساته بل أنه قد وصل إلى الحد أن شارك مع من حاصروا عثمان في منزله.

إذا لم يكن المسلمين راضيين عن سياسات عثمان وقد أنكر عليه ذلك العديد من الصحابة الذين يشهد لهم التاريخ بفضلهم وورعهم ومكانتهم في تاريخ الإسلام ومو اقفهم المشهودة مع رسول الله صلي الله عليه وسلم كما يشهد تماما بفضل ومكانة عثمان وهو أحد المبشرين بالجنة.

إلا أن كل هؤلاء الصحابة لم يخرجوا علي أمير المؤمنين بحد السلاح ولم يتجهوا إلى قتاله وقتله ولم يجعلوا إختلافهم مع سياسته خلافا فقهيا يستخدمونه للخروج علي الحاكم الذي ولي أمر المسلمين ببيعة المسلمين أنفسهم. لقد أدرك المسلمون وقتها أن عثمان كان يتصرف بناء علي قناعته التي سيتحمل هو وزرها إن أخطأ ولكنهم لم يستغلوا هذا الرفض كدافع وحافز لزحزحته عن ولايته لإنهم لم يكونوا دعاة حكم ولا سلطان . كان مبتغاهم أن يُحكَموا بعدل الله أي أن يكون عليهم حاكما يعدل فيهم لا أن يكون أحدهم هو الحاكم لكي يطبق عدل الله بنفسه، لذا كانوا يحاولون تقويم أميرهم ليحكم بينهم بالعدل. أما الخوارج ومن هم علي شاكلتهم، فقد كانوا يريدون أن يحكموا هم بأنفسهم، وأن يقوموا بتطبيق العدل كما يرونه وكما فهموه وهو ما لايكون إلا بيديهم حتى ولو أعملوا السلاح فيمن خالفهم، كان الخوارج علي قناعة أن العدل لن يطبق إلا إن تولوا هم الحكم، كان الخوارج ولازالوا علي قناعة أن لهم كل الحق في الخروج علي الحاكم الذي ولاه المسلمون إن هم لم يرتضوا حكمه ولكن لا يحق لأحد أن يخرج علي فكرهم وعقيدتهم العرجاء إن هو أنكرها عليهم، وهذا هو الفارق بين المسلمين والخوارج في أبسط صوره.

كان عموم المسلمين يطمحون إلى تحقيق العدالة في أي صورة من صورها بغض النظر عن من هو في سدة الحكم، لأن المسلم الحق لا يجعل أبدا من طموحه لتحقيق العدالة سببا ودافعا لأن يرفع السلاح في وجه ولاة المسلمين حتى وإن أنكر عليهم تصرفاتهم وسياساتهم، المسلم الحق يرضي بما أرتضته الأمة ولا يجعل من دعواه سببا في زرع الفرقة بين المسلمين لإن الإختلاف مع الحاكم هو أمر بديهي مسلم به مهما كان عدله ومهما كانت مكانته ولكن هكذا هي النفس البشرية التي يسترعيها دائما أخطاء الآخرين ولو صغرت وتنسي أخطائها مهما كبرت.

لقد روى الإمام البخاري في صحيحه عن الصحابي الجليل أبي سعيدٍ الخُدْري أنه قال: بينما نحن عند رسول الله وهو يقسم قسماً -أي يقسم مالاً-، إذ أتاه ذو الخويصرة، وهو رجل من بني تميم، فقال: يا رسول الله اعدل! فقال: ويلك! ومن يعدل إذا لم أعدل، قد خبتُ وخسرتُ إن لم أكن أعدل. فقال عمر: يا رسول الله ائذن لي فيه فأضرب عنقه. وقد أخبر الأمام البخاري في صحيحه عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أنه قال: إذا حدثتكم عن رسول الله حديثاً، فوالله لأن أَخِرّ من السماء أحبّ إلى من أنْ أكذب عليه، و إني سمعت رسول الله يقول: ((سيخرج قومٌ في آخر الزمان، أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام،

يقولون من خير قول البرية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإن في قَتْلِهِم أجراً لِمَنْ قَتَلَهم يوم القيامة)) . لقد أخبرنا رسول الله صلي الله عليه وسلم في حديثه هذا عن هؤلاء الخوارج الذين لم ولن يجدوا حرجا في الخروج علي أمير المؤمنين وخليفة رسول الله إن لم يرضهم حكمه كما خرج ذو الخويصره هذا علي رسول الله ليكون بذلك هو رأس الخوارج وإمامهم الذي سيسبقهم يوم الموقف العظيم.

إن الخوارج كانوا ولايزالوا لايرون من العدل إلا ما قاموا هم عليه وإستطاعوا أن يطبقوه بأيديهم، كان ولازال الخوارج علي قناعتهم بأن ما فهموه من الدين هو فقط الصحيح وأن مادونه باطلا حتى ولو كان من يراجعهم علماء وفقهاء الأمة. هكذا هو فكر من خرج علي المسلمين أنفا ومن سيخرج عليهم اليوم أو غدا لا يقبلون إلا أن يكون لهم ما أرادوا وإلا فلتشهر السيوف وتزهق الأرواح ويعقد لواء الجهاد... وترفع رايات الشهادة في سبيل إعلاء دعواهم ضد المسلمين بطبيعة الحال.

ولكن يجب التوضيح هنا أن خطأ عثمان الأول كما يذكر بعض المؤرخين تمثل في أنه ترك الفتوحات ولم يشغل الناس بالجهاد كما أشار عليه عبد الله بن عامر عندما جمع عماله لبحث كيفية التعامل مع هذه الثورات.

منذ وفاة الرسول صلي الله عليه وسلم إنشغل المسلمون بحربهم مع الفرس وحروب الردة أثناء عصر الخليفة أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه، ثم إنشغلوا بفتوحاتهم لبلاد الفرس والروم في عصر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه ثم إنشغلوا في بدايات حكم عثمان بتثبيت أركان الدولة والفتوحات الأفريقية وهو ما شغل بال المسلمين عن إستدعاء نزعتهم البدوية القائمة علي التفاخر والتباهي بالأنساب، وهو ما حدث بعد أن توقفت الفتوحات بأن بدأت النزعة القبلية تتملك من المسلمين لتبدأ جولات من التفاخر بين بيوت قريش وبعضها البعض من جهه، وقريش وبيوت العرب من جهه، و العرب وبيوت الأمصار من جهه أخري .

أما خطأ عثمان الثاني والأهم فيتمثل في أنه لم يستطيع أن يوأد الفتنة في مهدها و أنه قد ترك من ثاروا عليه حتى تجمعوا من الكوفة ومصر والبصرة وحشدوا الحشود حتى جاؤوه إلى المدينة ليعتصموا بها بعد أن تم رفع سقف مطالباتهم من حدود عزل الولاة الذين

لايرتضونهم إلى أن يقوم أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه وأرضاه بعزل نفسه وترك الأمر للمسلمين ليولوا عليهم من يشاؤون .

لقد تجاوز حلم عثمان مداه في أخذ من ثاروا عليه باللين حين لم يسمع لمطالبهم وهم لازالوا في أمصارهم وأصر علي قناعته ورؤيته، ولكنهم عندما وصلوا إلى المدينة وحاصروه في بيته فقد إختلف الأمر لإن هؤلاء قد قدموا لخلع أمير المؤمنين الذي إجتمع علي ولايته وبايعته الأمة جميعا . إلا أن عثمان كان لايزال يري أن يأخذهم باللين وهو ما لم يجدي مع من قرروا الخروج عليه بل وإستباحة دمه وقتله في شهر حرام.

و لعلنا بعد هذه القراءة المتأنية في تاريخ نشأة الخوارج نستطيع القول بأن الخوارج في العموم هي من أشد الفرق دفاعا عن مذهبها وتعصبا لآرائها لإنهم غالبا من حفظة كتاب الله وهو ما يجعلهم يصدقون في فكرهم ولايقبلون بغيره فكرا، بل يجعلهم يقفون خلف أرائهم في مناهضة حكم أمراء المسلمين مثل عثمان وعلي ومن بعدهم معاوية ويرفضون إيقاف أنهار الدم بين المسلمين والإستماع إلى أصوات عقلاء وحكماء الأمة بمن فيهم عثمان نفسه وعليّ الذي كان يدافع عن عثمان هو وبنيه وأهله بل أنهم لم يستمعوا إلى صوت معاوية الذي كان ينادي بدم عثمان. فإن كانوا قد خرجوا علي عثمان ليولوا عليا، فلماذا لم يستمعوا لعليّ وخرجوا عليه ؟ وإن كانوا قد قبلوا التحكيم فلماذا رفضوه بعد ذلك ؟ يبدو أن الهدف كان ولايزال هو الخروج علي الحاكم أيا كان حتى يكون لهم الحكم فيقيمون العدل حسبما يرونه حتى وإن ظلموا الأمة كلها في سبيل تحقيق عدلهم البالي.

لقد أصر الخوارج على الاختيار والبيعة في الحكم، ورأوا ضرورة محاسبة أمير المسلمين على كل صغيرة وكبيرة وأعطوا لأنفسهم الحق في المحاسبة والحكم بل والخروج علي الحاكم أيضا. كما رأت الخوارج عدم حاجة الأمة الإسلامية لخليفة في زمن السلم إن توقفت الفتوحات وهو ما يمكن إعتباره سببا مباشرا لقيام هذه الحركة التي هزت كيان الدولة الإسلامية عندما توقفت الفتوحات في عصر عثمان بن عفان فلم يجد الناس مايشغلهم عن قتال الأمم والممالك الأخري من حولهم إلا أن يدخلوا في إقتتال داخل الأمة نفسها وكأن الرغبة في الإقتتال أصبحت هي الهدف بذاته التي يخرج له الناس أيا كان الطرف الآخر الذي سيتم الإقتتال معه.

ولهذا نجد أن علي بن ابي طالب كرم الله وجهه قد وضع منهجا قويما في التعامل مع هذه الطائفة التي إرتضت الدم مقابل تمسكها بأفكارها، وذلك عندما منح الخوارج أمانا مشروطا في قولته الشهيرة: ((.. ألا إن لكم عندي ثلاث خلال ما كنتم معنا: لن نمنعكم مساجد الله، ولا نمنعكم فينا ما كانت أيديكم مع أيدينا، ولا نقاتلكم حتى تقاتلونا)) رواه البيهقي و ابن أبي شيبة .

وقد كان هذا العهد مشروطا بإلتزامهم جماعة المسلمين وكف أيديهم عنهم بالبغي والعدوان، أما إذا امتدت أيديهم إلى حرمات المسلمين فقد أوجب الإمام علي كرم الله وجهه دفعهم وكف أذاهم عن المسلمين، وهذا هو ما حدث حين قتل الخوارج عبدالله بن خباب بن الأرت وبقروا بطن جاريته، فطالبهم الإمام علي كرم الله وجهه بقتلته فأبوا، وقالوا (كلنا قتلته وكلنا مستحل دمائكم ودمائهم)، فسل الإمام عليهم سيف الحق حتى أبادهم في موقعة النهروان.

والغريب في أمر هؤلاء الخوارج أنهم قد بايعوا الإمام عليّ بعد خروجهم علي عثمان وخرجوا معه في قتال معاوية الذي طالب بالحكم بعد أن رفع قميص عثمان ليبلوا بلاءاً حسنا في قتال جيش معاوية القادم من الشام وينزلوا به الهزيمة حتى طلب عمرو بن العاص من جنوده أن يرفعوا المصاحف علي أسنة سيوفهم طلبا لتحكيم القرأن قبل أن يفني جيش معاوية أمام جيش علي من الخوارج.

أما موقف على بن أبى طالب كرم الله وجهه من هذا الطلب، فإن أكثر المؤرخين يذكرون أنه وقف منه موقف الحذر الحازم، حيث رأى من أول وهلة أن هذا الطلب إنما يقصد به إيقاع الفتنة، والفرقة بين جيشه من جهة وإعطاء الفرصة لجيش معاوية ليأخذ فترة يستعيد فيها قواه من جهة أخرى، وهو ما جعله يحذر أصحابه من مغبة قبول هذا الطلب والوقوع في شرك حيلة عمرو بن العاص وهو ما أيده بعض من أنصاره من أمثال الأشتر النخع الذي أشرف على إلحاق الهزيمة بجيش الشام، لولا منع على له عن مواصلة الحرب عندما قبل بدعوة التحكيم وأمر جنوده بإغماد سيوفهم.

ولكن يري أيضا بعض المؤرخين أن قسمًا كبيرًا من جيش علي -رضي الله عنه- قد أيدوا البدء في التحكيم و أبوا عليه إلا أن يرضي برأيهم في إيقاف الحرب وغمد السلاح. بل أنهم قد أبدوا مو افقتهم عليه فورًا دون أن يستشيروا عليًّا كما يقول فله وزن، ووصل بهم الأمر

إلى أن خرجوا علي عليًّا نفسه بقولهم أنهم سيفعلون معه إذا لم يوقف القتال ما فعل بعثمان أو سيدفعونه برمته إلى معاوية. وهؤلاء الذين خرجوا علي علياً – كما يقول بعض المؤرخين - كانوا من جماعة القراء حفظة كتاب الله الذين أعطوا الفضل لأنفسهم حتى أنهم قد نادوه باسمه لا بإمرة المؤمنين قائلين له: ((يا عليّ أجب القوم إلى كتاب الله إذ دعيت إليه وإلا قتلناك كما قُتِل ابن عفان، فوالله لنفعلنها إن لم تجب)) وكان أشدهم خروجًا عليه ومروقًا من الدين -كما يقول الشهرستاني- الأشعث بن قيس الكندي، وزيد بن حصين الطائي، ومسعربن فدكي التميمي.

وقد اعتقد هؤلاء القراء أنهم الأعلم بأحكام الدين من عليّ و أتباعه وأن الدين يأمرهم بذلك دون أصحابهم، بل أنهم قد إقتنعوا أنهم هم الوصاة علي الدين وحماته من بغي علياً وأصحابه. ولهذا فما ينبغي لهم الإعراض عن قبوله واحتجوا بقوله تعالى: ﴿لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾، فأرسلوا إلى أهل الشام طالبين منهم أن يبعثوا حكمًا من قبلهم علي أن يبعثوا هم أيضا حكمًا من قبلهم، وأن لا يحضر معهما إلا من لم يباشر القتال فمن رأوا الحق معه أطاعوه.

ولقد كان الأشعث الكندي واحدا من الذين كان لهم دورًا هاما في هذا النزاع فكان ممن يحبذ قبول التحكيم وكان يطمئن عليًا بأن الناس قد سرهم التحكيم، حتى أن معظم المؤرخين قد شككوا في دوره في هذه الفتنة حين وصفه يحيي معمربأنه كان من أكبرصنائع معاوية في هذا النزاع، كما يخبر الشهرستاني بأنه كان من أشد الخارجين على عليّ وأشدهم مروقًا من الدين، و أيضا نعته المسعودي بأنه هو من بدأ هذا الأمر -يعنى التحكيم- و هو من كان المانع لهم من قتال عدوهم حتى يفيئوا إلى أمر الله.

ولكن في العموم فإن المؤرخين من أهل السنة يجمعون أن علياً كرم الله وجه كان متشككا فقط في طلب التحكيم وإن لم يرفضه و أنه قد قبله في حين كان جيشه منتصرا وفي طريقه لوأد هذه الفتنه إحتراما للقرأن الكريم الذي تم رفعه علي أسنة الرماح ونزولا علي رأي جماعة المسلمين من حوله و إلى رغبته الأكيده في حقن دماء المسلمين إن كان هناك سبيلا لذلك دون القتال.

وبالفعل توقف القتال و تم التفاهم على أن يمثل أبو موسى الأشعري عليا بن أبي طالب ويمثل عمرو بن العاص معاوية بن أبي سفيان، وحددوا موعداً للتحكيم وفي طريق عودتهم إلى العراق خرج إثنا عشرألف رجل من جيش عليّ يرفضون فكرة التحكيم بينه وبين معاوية بن أبي سفيان في النزاع حيث رأوا أن كتاب الله قد حكم في أمر هؤلاء البغاة (يقصدون معاوية و أنصاره) ومن ثم فلا يجوز تحكيم الرجال -عمرو بن العاص و أبو موسى الأشعري- فيما حكم فيه الله سبحانه، فأطلقوا صيحتهم التي أصبحت دعوة كل الفرق التي أتت من بعدهم وحكمت السيف في أمر المسلمين عندما قالوا ((لا حكم إلا لله)) وليتم تسميتهم من بعدها "المُحَكِّمة"

إنهم "المُحَكِّمة" الذين لايرتضون إلا حكم الله .. ولكن أي حكم هذا الذي يرتضونه ؟

إنه الحكم الذي يرونه هم فقط أنه الصواب. إنه الحكم الذي يرتضونه هم فقط ويقنعون أنه هو حكم الله. ولما لا وهم حملة كتاب الله وحفظته . إنه حكم الله الذي إرتضوه هم حتى ولو لم يرتضيه خليفة المسلمين الذي بايعوه وحاربوا في سبيل إعلاء حكمه . إنه حكم الله الذي صدقوه هم فقط حتى وإن رأي الإمام عليّ غير ذلك.

إنه الحكم الذي جعلهم يرضون الخروج علي الإمام علي وما أدراكم من هو الإمام علي ؟

الإمام علي إبن عم رسول الله صلي الله عليه وسلم الذي نام علي فراشه يوم هجرته ليفديه بروحه ونفسه... .

الإمام علي صهر رسول الله صلي الله عليه وسلم وزوج إبنته التي هي واحدة من خير نساء العالمين...

الإمام علي والد الحسن والحسين أحفاد وأحباب وقرة عين رسول الله صلي الله عليه وسلم... .

الإمام علي الذي قال فيه من لاينطق عن الهوي ((أنا مدينة العلم وعلي بابها)) ..

الإمام علي الذي كان عند رسول الله صلي الله عليه وسلم بمثابة هارون من موسي وهكذا ظلت مكانته عند خلفاء رسول الله من بعده حتى تولي أمر المسلمين وهو لها كارها.

عندما رفع "المُحَكِّمة" صيحتهم أن لا حكم إلا لله في وجه الإمام علي، فإنهم قد أرسوا مبدأ الخروج علي جماعة المسلمين وقبول إراقة دماء المسلمين نظير الدعوة إلى تثبيت الحكم. لقد أرسي هؤلاء الخوارج بدعة سيتحملون وزرها ووزر كل من سيأتي بعدهم من الأمم ليسير علي نهجهم في فرض فهمه لأحكام الله علي الأمه وفي جواز رفع السلاح في وجه المسلمين إعلاء لقناعة أن لا حكم إلا حكم الله فقط.

لقد قالها الإمام عليّ: ((كلمة حق يراد بها باطل))، ولكن قولته لم تثنهم عن غيهم بل أنه بعد اجتماع عمرو بن العاص و أبو موسى الأشعري وما قام به عمرو بن العاص من التحايل علي مقولة أبو موسي الأشعري ومانتج عنه من تضعيف شرعية عليّ في الحكم و تعزيز لموقف معاوية كما تخبرنا بعض روايات التاريخ، فقد ازداد المُحَكِّمة يقينا بسلامة موقفهم وعقيدتهم حتى طالبوا عليّا برفض التحكيم ونتائجة والتحلل من شروطها و النهوض لقتال معاوية...نعم... لقد إنقلبوا مرة أخري هم أنفسهم علي التحكيم الذي طالما نادوا به... !!

ولكن عليّا كرم الله وجهه رفض ذلك مرة أخري قائلا: ((ويحكم.. !! أبعد الرضا والعهد والميثاق أرجع؟ أبعد أن كتبناه ننقضه؟ إن هذا لا يحل ودونها الرقاب)) . ومن هنا انشق المُحَكِّمة عن عليّ، واختاروا لهم أميرا من الأزد وهو عبد الله بن وهب الراسبي ليخرج "المُحَكِّمة" علي عليّ كما خرجوا من قبل علي عثمان وكأن الخروج علي الحاكم هو جل همهم وعظيم شأنهم.

وقد إنتهي أمر التحكيم برجوع عليّ و أتباعه إلى العراق أميرا للمؤمنين ورجوع معاوية وأصحابه إلى الشام واليا عليها وهو ما يناقض في العموم الروايات القائلة بخلع عليا ومعاوية لإن جميع المؤرخين والعلماء قد أجمعوا علي أن معاوية لم يكن ينتوي الفوز بالخلافة وقتها ولكنه قد رفع راية الجهاد كولي لدم عثمان ومطالبا بقتلته. وقد قام الإمام علي كرم الله وجهه بقتال هؤلاء الخوارج في العام التالي من موقعة التحكيم فيما إشتهر بعد ذلك بموقعة النهروان والتي إستطاع فيها القضاء عليهم وتشتيتهم حتى قام من بقي منهم علي قيد الحياة بإغتياله وهو يصلي الفجر في المحراب ولتكون أخر كلماته قبل لقاء الغفور الرحيم: ((فزت ورب الكعبة)).

إن فكر الخوارج في العموم يقوم علي مبدأ واحد , وهو الإحتكام إلى الله وتحكيم أوامره وهو مايبدو للعموم فكرا دينيا خالصا في ظاهره, ولكنه كما قال الإمام علي كرم الله وجهه ((قولة حق يراد بها باطل)) حيث لايقبل الخوارج إلا حكم الله الذي يرتضونه هم فقط ويبدون إستعدادهم لكي يقاتلوا ويقتلوا في سبيل قناعتاهم وتصميمهم علي إعلاء حكم الله كما يرونه هم فقط .

ولكن الكارثة...المصيبة... اللعنة التي أصابت الأمة من هؤلاء الخوارج ومن تبعهم وسار علي سنتهم أنهم جميعا لايرون إلا صحيح فكرهم ولايقتنعون إلا بما عقلوه من كتاب الله مهما كانت الحجة التي يقيمها عليهم من عارضهم ومهما كان مقامه وعلمه. ولهذا أجدني أعتقد أن هذا هو قمة الإنحراف الفكري والعقلي والإنساني عندما يقبل بعض البشر تغييب عقولهم ليجعلوا من الخروج علي الحاكم فرضا وأمرا شرعيا إن هم رفضوا حكمه، بينما نجدهم في المقابل يرفضون أن يرفض الناس أفكارهم وعقيدتهم إن هي خالفت عقيدة الأمة.

ولكن للأسف فإن هذا الفكر البالى يجد صدي عجيب غريب بين عموم المسلمين وخاصة في هذا العصر الذي إنقسم فيه المسلمين إلى العديد من الفرق والنحل التي تري كل واحدة منها أنها هي فقط علي الحق، فنجدهم وقد قنعوا فقط بما يمليه عليهم علماء جماعتهم وأمرائهم من وحدوية الفكر الذي لا يخدم إلا قضية جماعتهم وأهدافها التي رسمها أميرها مهما إختلفت هذه الجماعات في المذاهب والطوائف والثقافات، إلا أن جميع هذه الفرق قد إتفقت وتوافقت بل وتسير جميعها علي نفس الفلسفة ونفس المنهج في نشر فكر جماعتها والتي تمثلت في خطوات ثابته نراها رؤي العين عند الدعوة لأي فكر جديد:

- دعوي إصلاحية
- صبغة دينية
- تيسيرات عقائدية
- تحسينات معيشية
- منح مادية
- مناهضة إجتماعية
- مطالبات فئوية

- خطط تمكينية
- صراعات طائفية
- إنقسامات مجتمعية

وللأسف فإن جميع الفرق والنحل تنتهج هذا النهج حتى يتم لهم التمكين من فرض أفكارهم وتكون لهم المكانة المجتمعية التي يتم حيازتها بقوة الحكم أو بقوة الفوضي أو بقوة السلاح أو بقوة الإستنصار بالأتباع ولكنها جميعا قوة مستترة تحت غطاء الدين تهدف في النهاية إلى تفتيت المجتمع إلى طوائف صغيرة يسهل الإقتتال بينها.

هكذا بدأت الردة بعد موت الرسول صلي الله عليه وسلم، وهكذا عادت في ثوبها الجديد أثناء الفتنة الكبري لتخرج من ثوب الردة إلى ثوب الخوارج الذين خرجوا علي ذي النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه وأرضاه ثم لتظهر في شكلها الإنقسامي النهائي بين جماعة أهل السنة ممن ناصروا بني أمية في حكمهم وأهل البدعة المارقة ممن تشيعوا لآل بيت النبي صلي الله عليه وسلم لتبقي حتى يومنا هذا جماعات صغيرة تنبعث جميعا بنفس الفكر وتنادي كلا منها بدعواها هي فقط و تري كل من سواها علي خطأ، ولكنهم جميعا شيعة كانوا أو سنة يسيرون علي نفس النهج وكأنهم قد تعلموا جميعهم علي يد نفس المعلم ويقرأون من نفس الكتاب...كتاب فكر التقسيم الطائفي للمجتمعات.

تفكير أم تكفير ..؟!

يخبرنا التاريخ عن سيرة الجماعات التي خرجت علي الأمة في الأزمنة المختلفة والتي أعطت كل منها لنفسها الصبغة التي إستطاعت بها أن تبني به من الفكر مامكنها من أن تبدأ حركتها الدعوية لتقوم بتجميع الأتباع حول هذا الفكر لتنتقل من دعوية الحركة إلى إلزامية العقيدة ومن ثم تدخل في مرحلة التحالفات السياسية التي تدخلها في نطاق فرضية الجهاد في سبيل تلك الدعوي.

ومن خلال رؤية منهجية لسيرة هذه الجماعات بمختلف طوائفها، فإننا سنتمكن من إكتشاف كيف تشابهت كل هذه الدعوات علي إختلاف توجهاتها و أيدوليجياتها ومرجعيتها العقائدية في آليات التطبيق حيث سار الجميع في نفس النهج وعمدوا إلى أن يسلكوا جميعا أقصر الطرق المتثمل في التغطية الدينية لأهدافهم الدنيوية في سبيل تحقيق حلمهم بالوصول إلى الحكم مهما تعددت الأساليب والمسميات والمرجعيات...إلا أن الهدف كان دائما واحد... الحكم

لقد ظل مفهوم العنف في التراث الإسلامي مسيطراً على المشهد الديني والسياسي لفترة طويلة من الزمن، حيث تم تسويق العنف عبر حزمة من المفاهيم الشرعية، مثل: "الجهاد" و"القتال" و "الإقتتال" و "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" ونحوها من المفاهيم التي تعطي دائما الأفضلية الشرعية لمن يهب دفاعا عن دينه ونصرة لعقيدته حتى ضد من هم علي دينه وإن إختلفوا معه في المذهب، بحيث أصبح فكر العنف بهذا التسويق عبر الاستخدام السياسي للمفاهيم الدينية وخاصة الدعوية هو المهيمن على الرؤية الشرعية بصورة عامه والمحرك للدعوات الطائفية للجهاد ضد من يخالفهم الرأي وهو علي دينهم ويتركوا الجهاد المفروض ضد أعداء الأمة.. !!

إلا أن هذه القراءة التبريرية للعنف عبر مفاهيم دينية، لقيت معارضة لها في التاريخ القديم والحديث، وتجلّي ذلك قديما في عدد من النصوص الدينية، واجتهادات عدد من الفقهاء، وخاصة علماء الحجاز، الذين كانوا بعيدين عن "الثغور" والمناطق الساخنة على حدود الدولة الإسلامية. و أيضا علماء المجامع الفقهية الوسطية مثل الأزهر وهم

من كانوا يهدفون إلى الحفاظ علي مكانتهم الدينية من خلال بعدهم عن الحركات السياسية قدر المستطاع.

لقد بقيت تلك النصوص والاجتهادات المعارضة لتعميم الفكر الجهادي مغيّبة عن المشهد الإسلامي العام، بحكم استمرار الصراعات والنزاعات العنيفة علي مر التاريخ، و في ظل خروج تيارات وحركات طائفية جديدة كل فترة من الزمن تعيد إلى الو اقع هذا الفكر والمفهوم العنفي كطريق أوحد لقيام الخلافة الإسلامية أو كمنهج تمكيني لأصحاب هذه الدعوات لنشر دعواهم وجمع الأنصار وفرض عقيدتهم علي المجتمع حيث أنهم جميعا وجدوا أنه لا غني عن تأجيج هذه الأفكار الإقتتالية لتمكين أقلية طائفية تعتقد أنها علي الحق من محاربة المجتمع ككل إذا يرونه دوما علي الباطل بطبيعة الحال.

وقد تعددت أشكال هذه الدعوات من كونها دعوات سلفية تدعو إلى التمسك بأصول الدين حسبما وجدوه وعلموه من سير السلف الصالح، إلى دعوات جهادية حسبما تداولوه بينهم من رؤي مفكرين معاصرين إجتهدوا ووضعوا معالما جديدة لشكل وأصول وعلوم الدين، بالإضافة إلى الدعوات الإصلاحية التي عمدت إلى المزج بين علوم من سبقوهم مع أفكار معاصريهم و إستخدام نماذج عالمية قائمة مجربة عن تكوين الجماعات وتعميق أفكارها التي قد تختلفت معهم في العقيدة ولكنها بالتأكيد ساعدتهم علي وضع البنية التحتية لتكوين جماعتهم.

وحسب ما ذكرنا من قبل أن إستخدام لفظ الجماعة قد بدأ في عصر معاوية عندما تم إطلاق مسمي عام الجماعة علي السنة التي إستقل فيها معاوية بالحكم بعد مقتل الإمام علي كرم الله وجهه ليكون معاوية هو أول من وضع حجر الأساس لتقسيم الأمة لجماعة تابعة للحاكم وجماعة مناهضة لها .. وهو ما جعل معاوية يطلق علي جماعة المسلمين الذين إرتضوا حكمه لقب جماعة أهل السنة ليثبت للناس أنه هو من يحمي سنة الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم وأن جماعته هي التي علي الحق ودونهم الباطل.

ولكن التاريخ يخبرنا أن مصطلح "أهل الحديث" أو"أهل السنة" قد تبلور فعليا على يد الإمام أحمد بن حنبل وذلك عندما تقلدت فرقة المعتزلة المناصب المرموقة في الدولة في عهد الخليفة العباسي المأمون، وأحدثوا ما أطلق عليه وقتها فتنة خلق القرآن حيث إعتبروا أن القرآن كان خطابا زمنيا مقرونا بوقت نزوله ولايجب تقديسه وأن يقبل تفسير

ظاهر القول منه في الأزمنة التالية لأنهم قد أعتبروه كلاما قابلا للتاويل والتحديث والتفسير حسب مقتضيات العقل وحسب مجريات الأمور. وهو الأمر الذي اقتنع به الخليفة وعمد إلى نشره إلى الحد الذي جعله يقرر عزل أي قاضي لا يؤمن بهذا الفكر، مما تسبب في إيقاع الأذى بكل من خالفوه الرأي.

وكان أشد المعارضين لفكر المعتزلة هو الإمام أحمد بن حنبل، الذي خالفهم بل أنه أصر علي المجاهرة بمعارضتهم ونال بسبب ذلك أذىً عظيماً. وانتهى هذا النزاع حين تولى الخليفة المتوكل أمر الخلافة وأطلق سراح ابن حنبل من حبسه ودفع الأذى عن أصحابه، ورفع شأنهم ومنزلتهم في دولته، وانتصر لمنهجهم ومعتقدهم التي أطلق عليها منذ ذلك الحين أهل الحديث والسنة. وكانت نقطة التحول الكبيرة في الصراع بين أهل الحديث والمعتزلة هي مواجهة أبو الحسن الأشعري للمعتزلة، والتفاف أهل الحديث والسنة حوله باعتباره أقوى معبر عن عقائد أهل السنة في مواجهة المعتزلة وغيرها من الفرق التي اعتبرتها كل أهل السنة مخالفة للعقيدة الصحيحة للإسلام.

وفي عهد دولة السلاجقة وبالتحديد في عهد وزارة نظام الملك الذي ازدهر في عهده تعليم عقيدة أهل السنة وفق المنهج الأشعري، حيث بنى له المدرسة النظامية في بغداد، ومدرسة نيسابور النظامية، لتصبح بذلك هي العقيدة الرسمية لدولة الخلافة العباسية حيث نشر الخليفة القادر مرسوماً بالاعتقاد الرسمي للدولة عرف باسم "العقيدة القادرية"، وبقي العمل بها حتى سقوط دولة الخلافة العباسية على يد المغول.

ولكن بالرغم من هذا الخلاف الفكري الشديد بين فكر المعتزلة وفكر أهل الحديث والسنة إلا أنه يجب التأكيد علي أن ظهور فكر المعتزلة و إقتناع الخليفة المأمون بفكرهم الفلسفي كان هو التأسيس الفعلي لما أصبح يسمى الآن بعلم الكلام الذي اختص بدراسة قضايا العقيدة. وهو مايجعلنا نجزم بأن فكر المعتزلة بالرغم من تطرفه الشديد إلا أنه قد مثل بداية التفاعل العقلي والتفكير الفلسفي في كل ما هو سائد دينياً حيث عمد المعتزلة إلى الخوض في تفسير النصوص المقدسة من القرآن وفق أسس عقلية تحديدا وذلك لخدمة قضاياهم السياسية الساخنة والتي أتي علي رأسها قضية الإمامة وتبرير ظهور الحاكم المطلق الذي له الولاية الفقهية حيث إتجه المعتزلة إلى تفسير أي تناقضات في النصوص المقدسة من القرآن بتأويل تلك النصوص بما يحقق انسجامها مع مقتضيات العقل الذي يخدم التوجه الفكري والفلسفي للقائم بهذا التأويل في حينه.

في المقابل , نجد أن خطاب أهل الحديث والسنة بقيادة الإمام أحمد بن حنبل في حينها قد أقر نصوص القرأن كما هي وعلي ظاهر علتها حينما إعتقدوا أنها خارج حدود وإمكانيات المقاربة البشرية معتبرين أن العقل البشري في وضع أضعف من مقاربة قداسة نصوص القرآن والخوض فيها والقدرة علي كشف ما أخفاه الله عزوجل في كتابه مهما أوتي من قدرات تحليلية ورجاحة فقهيه.

أما المعتزلة فقد تمادوا في فلسفتهم حتى وصلوا إلى نفي بعض صفات الذات الإلهية حيث شككوا بل أبطلوا حسب مزاعمهم فكرة وجود العزيز القدير منذ الأزل ومن هذا النفي كان اعتبارهم القرآن مخلوقا أي محدثا.

ومن هنا بدأت المحنة، أو محنة خلق القرآن التي تعتبر من أكبر وأعظم الأحداث في التاريخ الإسلامي بداية من 218 هـ / 833م والتي استمرت قرابة خمسة عشر عاماً.

والقارئ في فكر المعتزلة سيجد أن قضية خلق القرآن قد أضحت بمكانة جوهر نظريتهم في اللاهوت الإسلامي وفي الجدال الذي حاولوا فرضه علي المجتمع الإسلامي بعد إستنصارهم بالحاكم العباسي الخليفة المأمون الذي أمن بعقيدتهم وحاول جاهدا أن يجعلها هي العقيدة السائدة في المجتمع وهو مادفع المجتمع إلى رفضه و إلى ظهور جماعة أهل الحديث والسنة لمقاومة هذا الفكر المتطرف الذي قادته جماعة المعتزلة والتي جعلت من قضية خلق القرآن وجهه ثورية لتحرير المجتمع الإسلامي من التابوهات التي تربي عليها المسلمين والتي كانت ولازالت هي أساس العقيدة الإسلامية حتى يومنا هذا.

إلا أن المعتزلة قد أرادوا توظيف مصطلحات ثورية حديثة في قراءة النصوص الإسلامية - وهي التي تشكل اليوم المحور الأساسي لكيفية توظيف الإسلام في الصراع السياسي بين التيارات الإسلامية – بالشكل الذي يخدم التوجهات السياسية لجماعة بعينها وهو ما عزز التطرف الفكري في التركيز علي المتشابهات من أمور الشريعة والتناقض الفكري في تفسير أحكام الدين وذلك رغبة منهم في إيجاد نقاط الإختلاف عن الفكر السائد وجعل نقاط الإختلاف هي مركز الخلاف مع أي فكر أو عقيدة آخري لتكون المحصلة النهائية هي توليد كافة أشكال الإرهاب خاصة في ظل إتجاه كل فرقة إلى تكفير من يخالفهم في الرأي.

ويعتقد الباحثون في الأحداث التاريخية للدولة الإسلامية أن دو افع المأمون للدخول في هذا المعترك الفلسفي اللاهوتي كانت في الغالب محاولة لتأمين كامل السيطرة من جانب الخلافة فوق المؤسسة الدينية كما فعلت بسيطرتها على السلطة العلمانية في حينها وذلك من خلال إيجاد فكر جديد يتحدي ما تم التو افق عليه بين علماء الأمة وجمع المسلمين حولهم بحيث يستطيع مع إعلاء هذا الفكر الجديد جمع عامة المسلمين حول الحاكم الذي قدم نفسه بوصفه ممثل الله على الأرض، ووريث نبي الإسلام بصفته من أبناء عمومته والقيم والحارس للمعتقد الإسلامي. و نحن إذ نؤكد هنا على أن المأمون لم يعتبر نفسه حائزا على السلطة التشريعية التي تحل محل المصادر الروحية الإسلامية و لا يوجد أي سجل أو تقرير يشير إلى أن المأمون وضع نفسه فوق القرآن.

ولكن المؤكد أن المأمون كان يهدف إلى كسر السيطرة الدينية علي عموم المسلمين - في ظل ترامي أطراف الامبراطورية الإسلامية وقتها - من قبل علماء جماعة المسلمين التي تم تأسيس فكرها وإجادة استخدامه وتوظيفه من قبل بني أمية، وهو ما يماثل تماما ماحدث من قبل فراعنة مصر القدامى عندما حاول إخناتون فرض ديانة التوحيد الجديدة أتون كبديل للديانة السائدة وقتها عن عبادة أمون رع أو عندما حاول بطليموس الأول التحول بعقيدة الدولة المصرية إلى ديانة سير ابيس كبديل للديانات المسيطرة علي كل من الدولة المصرية والأغريقية وذلك في محاولة منه للسيطرة علي عموم شعبه والخروج بهم من تحت عباءة الكهنة ورجال الدين الذين كان لهم اليد الطولي في السيطرة علي عقول العامة... وما أشبه اليوم بالبارحه.

ولكن يجدر القول بأن المسلمين قد توحدوا أمام فكر المعتزلة وذلك من خلال إعلاء فكر أهل الحديث والسنة والتي تكونت من ثلاث طو ائف رئيسية كما حدث بذلك الإمام العلاّمة المواهبي الحنبلي: ((طو ائف أهل السنة ثلاثة: أشاعرة، وحنابلة، وماتردية، بدليل عطف العلماء الحنابلة على الأشاعرة في كثير من الكتب الكلامية وفي جميع كتب الحنابلة)). وهو الأمر الذي سنلاحظ تكراره عند خروج أي جماعة أو طائفة بفكر جديد يناهض الفكر السائد حيث يؤدي هذا الفكر الجديد دائما إلى توحد الطو ائف القائمة والتنازل عن خلافاتها مرحليا في سبيل مناهضة الفكر الجديد أيا كان و الحد من تبعاته التي تبدأ من مستوي الإختلاف الطائفي ثم تتدرج لتأخذ شكل الخلاف العقائدي الذي يؤجج الإرهاب الفكري عندما يتم تكفير فكر الآخر حتى تصل المواجهة إلى حد الإقتتال

وخاصة إذا ماتم الإستقواء في هذا الخلاف العقائدي بالسلطة الحاكمة أو بغلبة جماعة أو بحد السلاح وهو مايعمل علي نقل الخلاف الفكري والعقائدي في الغالب إلى ساحة الإقتتال بكل أشكاله بعد أن يتم تكفيركل جماعة لنظيرتها ويتم رفع رايات الجهاد في وجه الجماعة المخالفة في الرأي.

أما عن نشأة المدرسة الأشعرية التي تعتبر هي المرجعية الأساسية لأهل السنة والكائنة حتى يومنا هذا، فيُرجع المؤرخون نشأة هذه المدرسة إلى الإمام أبا حنيفة النعمان الذي يعتبر هو المؤسس الحقيقي والمرجعية التأريخية للمنهج الذي يسيرون عليه ومن بعده أئمة آخرون ساروا علي الدرب كالشافعي و ابن كلاّب والبخاري. وإن كان التأطير الرئيسي لمنهج الأشاعرة في مواجهة المعتزلة قد حدث على يد أبو الحسن الأشعري الذي يعد أبرز متكلمي أهل الحديث، حيث كان أبو الحس الأشعري معتزليا في الأساس يأخذ المذهب عن الجبّائي، وما لبث أن عارض شيخه ورجع لمنهج أئمة السلف ومنهم أبو حنيفة النعمان والشافعي وغيرهما من متكلمي أهل الحديث في الانتصار لعقائد أهل الحديث والسنة، خصوصا في المسائل المتعلقة بخلق القرآن والقضاء والقدر.

وذكر ابن عساكر أن أبا الحسن الأشعري اعتزل الناس مدة خمسة عشر يوما، وتفرغ في بيته للبحث والمطالعة، ثم خرج إلى الناس في المسجد الجامع، وأخبرهم أنه انخلع مما كان يعتقده المعتزلة، كما ينخلع من ثوبه، ثم خلع ثوبا كان عليه ورمى به للناس فكسب بذلك تأييد العديد من الناس، وكثر أنصاره و مؤيدوه من حكام وعلماء، ولقّبه بعض أهل عصره بإمام السنة والجماعة وهو ما جعله يدخل في صراعه مع المعتزلة لينهي بذلك فتنة إستطاعت أن تسيطر علي فكر وعقل وقلب خليفة المسلمين لتخرجه عن جماعته بل وتجعله يناصبهم العداء .

ولكن الخطر الداهم في إنتشار فكر المعتزلة كان متمثلا في الذهاب والتحول بعقيدة الإسلام ككل عندما عمدوا إلى إخراجه من كونه دينا سماويا مؤيدا ومحفوظا من قبل الخالق العزيز إلى جعله مذهبا فلسفيا يقبل التأويل والتغيير والمناظرة حسب الرؤية والمعطيات البشرية التي تخدم الطموحات السياسية لجماعة معينة والتي تجعل عقيدة هذا المذهب تسود علي كل ما أتفق عليه أئمة جماعة المسلمين وعموم الناس جميعا. وهي الفكرة التي سنراها لاحقا وقد طغت علي كل صاحب مذهب جديد أو دعوة دينية أو روحانية حينما عمدوا جميعا إلى الخروج بالدين من منطقة التقديس إلى منطقة المناظرة

الفكرية حتى يستطيعون معها مناظرة ما تم إقراره من صحيح الدين لإثبات أفكارهم ورؤاهم وتثبيت عقيدتهم عملا بالقاعدة التي تقول: ((أن إبطال الصحيح يُثبِت صحة من أبطله)) وعندها يكون إبطال أي صحيح من الدين حتى عن طريق التشكيك فيه هو الدليل علي صحة المذهب أو العقيدة الجديدة. إنها أقصر الطرق بطبيعة الحال للتلاعب بأحلام البسطاء، ولكنها أيضا أوهنها.

أما مذهب الأشاعرة والذي يعتبر واحد من أكبر وأعم المدارس الفقهية السنية حتى تاريخنا هذا فقد تجمع تحته وحوله وأعتنقه الجمع العظيم من أكبر علماء ومفسري وقادة الأمة الأسلامية في مختلف عصورها حيث ينتسب للأشعرية من الأئمة كلا من القرطبي و إبن كثير وفخر الدين الرازي وجلال الدين السيوطي ومن العلماء المعاصرين الأمام محمد متولي الشعراوي الذي يعتبر أحد أبرز العلماء الأشاعرة في القرن العشرين.

كما ينتسب للأشاعرة كلا من القاضي عياض و إبن الجوزي والحلبي من المفسرين وحسن البنا ومحمد الغزالى ويوسف القرضاوي من العلماء المعاصرين كما إنتسب إليها من القادة التاريخيين كلا من العز بن عبد السلام ونور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي وسيف الدين قطز وعبد القادر الجز ائري وعمر المختار وعز الدين القسام.

وقد إنتشر المذهب الأشعري وتسيد الأمة الإسلامية في عهد دولة السلاجقة وبالتحديد في عهد الوزير نظام الملك الذي اهتم ببناء المدارس وربط المساجد ببعضها والذي كان يرفع من شأن العلماء، حيث تم تدريس المنهج الأشعري في مدرسة بغداد النظامية، ومدرسة نيسابور النظامية، وكانت المدرسة النظامية في بغداد أكبر جامعة إسلامية في العالم الإسلامي وقتها، فلم تنتهي الحروب الصليبية إلا وكان المذهب الأشعري قد ساد المشرق بشكل غير مسبوق.

وعندما قضى السلطان صلاح الدين على دولة الفاطميين في مصر قام بتحويل الأزهر الذي كان على مذهب الإسماعيلية الشيعة – الذي تم فرضه من الفاطميين علي أهل مصر- إلى مذهب أهل السنة والجماعة على منهج الأشاعرة في العقيدة والذي أصبح هو المتسيد منذ ذلك الوقت ليصبح مذهب الأشاعرة هو المذهب الرسمي للجامع الأزهر ومن ثم لمصر والمصريين.

ولكن يبقي السؤال .. إن كان فكر الأشاعرة هو بهذا القدر من التمسك بأصول الدين وعقيدة السلف فما هي الأسباب التي جعلت بعض المنتسبين لهذا الفكر الوسطي السلفي يحيدون عن منهجه الأساسي وصحيح عقيدته التي نشأ عليها هذا المذهب وتبعته الأمة الأسلامية في مجموعها من أهل الحديث والسنة ليخرجوا علي الأمة بإجتهادهم في ما أقرته الأمة ويجعلوا من وحدوية فكرهم هو قبلة جماعتهم؟

أن الباحث في فكر الأشاعرة سيجد أنهم قد أقروا بأن مصدر العقيدة هو الوحي والنبوة المحمدية، وما ثبت عن الصحابة. وهو ما يمكن إعتباره مفترق الطريق بين الأشاعرة و المعتزلة في العموم، ولذا وجدناهم يتجهون في ذلك اتجاهًا معارضًا لاتجاه المعتزلة.

وبالرغم من ذلك , فإنه يجب عدم إغفال حقيقة جوهرية في فكر الأشاعرة حيث أن الدفاع عن العقيدة السليمة، وغرسها في قلوب الجيل الإسلامي الجديد، إحتاج منهم إلى الحديث بلغة العصر السائدة وتبسيط المصطلحات العلمية ومناقشة المعارضين بنفس أسلوبهم العقلي وهو ما مكن الأشاعرة من منازلة المعتزلة وإنهاء فتنتهم التي لم تدم كثيرا.

ويعد الأشاعرة عقيدة الدعوة من أفضل الجهاد وأعظم القربات وأن بناء جيل إسلامي جديد ينتهج العقيدة الصحيحة (عقيدتهم التي جبلوا هم عليها بطبيعة الحال) هو الهدف الأسمي لدعوتهم وأن تثبيت هذه العقيدة لايكون إلا بغرس الولاء والتقديس في نفوس الشباب لشيوخ الدعوة وتحقيق الطاعة المجردة من التشكك في مرجعيات العقيدة أو فكر قادتها حتى لاينزلون بفكرهم إلى منزلة المعتزلة ويذهبون إلى تأويل ما أتفق عليه علماء الأمة حسب المنظور العقلي للنصوص المقدسة، وهو ماشكل مفترق الطرق بين فكر الأشاعرية الحديث وبين كثير من الحنابلة والمحدثين الذين كانوا يتأثمون ويتحرجون من النزول إلى هذا المستوى من التقيد الفكري.

إلا أن هذا الإتجاه الجديد في فكر الأشاعرة قد لاقي القبول بين الكثير من العلماء المعاصرين وعلي رأسهم بطبيعة الحال حسن البنا مؤسس جماعة الأخوان المسلمين حيث إقتنع بدعوته وأمن بفكره بعض من شيوخ ودعاة ومفكري الأمة من أمثال عبد القادر عودة، وسيد قطب، ومصطفى السباعي، ويوسف القرضاوي ومحمد قطب وعمر التلمساني و الإمام محمد الغزالى الذي و افق البنا في عموم فكره وإختلف معه في بعضه

مما جعله ينتفض عن جماعته تماما كما فعل الإمام محمد متولي الشعراوي وسنسرد لذلك فصلا خاصا لاحقا.

أما الطامة الكبري التي ذهب إليها بعض المحدثيين في علوم الدين فكانت في تكفير من يخرج علي فكروعقيدة الجماعة في العموم وهو الفكر الذي كان يلاقي مناصرة وغلبة من مجموعات الشباب التي كانت مدفوعة بالحماسة للزود عن دينها وكانت لا تري إلا فكر قائدها، إلى حد أنها قد إعتبرت من خرج علي هذا الفكروكأنه قد خرج علي عموم الدين ووجب إقامة الحد عليه. وقد وجد هذا الفكر قبولا وشيوعا عند الكثير من الجماعات التي جعلت من الدين سلاحا تشهره في وجه كل من خالفها وهو مايخبرنا عن الكثير من المواجهات التي تمت بين الطوائف المختلفة من المسلمين وبعضهم البعض في سبيل إعلاء مذهبهم وهدم فكر من خالفهم.

وبإنقسام الدين سياسيا بين الداعيين إلى ثبوت الحكم في آل بيت الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم وبين جماعة المسلمين التي إرتضت حكم بني أميه وخرجت لتقاتل أتباع علي كرم الله وجهه و أبناؤه حفدة رسول الله صلي الله عليه وسلم في أحداث فتنة لم ولن يشهد التاريخ الإسلامي مثلها، فقد بدآت الدولة الإسلامية أول فصول التحزب السياسي القائم علي التوحد الفكري والداعي إلى تكفير الفكر المناهض للدرجة التي جعلت من الصحابة الكرام وفقهاء الأمة وعلماء الدين خارجين علي الجماعة لإنهم إنشقوا سياسيا علي الحاكم.

وبالرغم من هذه السماحة الفكرية التي غلفت هذا الفكر، إلا أنه كان ولايزال يتمتع بقدر من العنصريه الفكرية المليئة بالتناقضات التي تجعل من محاولة فهمه هو معضلة فكرية بكل المقاييس. عندما بدأ معاوية حركته الثورية ضد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب لم يكن مطالبا سوي بالقصاص من قتلة عثمان رافعا قميص معاوية والذي أصبح هو المثل لكل من يطلب الحق ويخفي في نفسه ما في نفسه.

إذا.. كان معاوية معارضا لعليا عندما تأخر في أخذ القصاص من قتلة معاوية مما جعله يخرج عليه بل ويناجزه طلبا لما يراه من الحق فإذا به وهو يقف في موقف المعارضه للحاكم الذي ولاه المسلمون ينادي بحقه في أن يطالب بالقصاص وأن يخرج علي أمير المؤمنين في سبيل تحقيق دعوته.

ولكن عندما دان له الحكم غصبا كان أو بالرضي، فإنه قد قام بقتل كل من عارضه ونفيهم من الأرض مقاتلين كانوا أو دعاة أو أئمة أو فقهاء أو حتى إن كانوا من آل البيت.

فمن كان بالأمس معارضا مستحقا أن يستمع له الحاكم ويأتي له بحقه، بل ويضع نفسه في مقام الخصم والند للحاكم وله من الحقوق ما يبيحها له الدين من أمر الشوري وعدم التفرد بالحكم حتى يكون له أن يخرج علي الحاكم ويقاتله طالما كان في صف المعارضه، نجده يعمد إلى تكفير كل من يخالفه في الفكر فوران يصبح في مقام الحاكم , بل ويستخرج الفتاوي من رجالات الدين الذين دانوا له بالولاء والسمع والطاعة ليبدأ في حملة تطهير المجتمع من أصحاب فكر الخروج علي الحاكم.

هكذا فعلها معاوية، وهكذا فعلها الخوارج عندما خرجوا علي عثمان حتى قتلوه يوم كانوا في المعارضة، ولكن بمجرد أن وقفوا في صف الحاكم الذي بايعوه – الإمام عليّ كرم الله وجهه – رفضوا أن يخرج عليهم معاوية مطالبا بدم وليه وكأن المعارضة هي حق مكفول لهم ممنوع علي من خالفهم الرأي.

بل أن عليا كرم الله وجهه عندما خالفهم في رأيهم بالخروج علي التحكيم الذي إرتضته جماعة المسلمين، خرجوا علي حاكمهم حتى قتلوه. إنها الجماعة التي لا تري من صحيح الأمر إلا رأيها هي فقط وتري كل من يخالفها علي الباطل ليصبح الخلاف في الفكر مرجحا للتكفير داعيا للإقتتال. هكذا كانت دعوة كل من إعتنق فكرا مذهبيا يأخذ من الدين بعضه ليعظمه ويجعله محورا لدعوته وينسي أن الدين هو حزمة من العبادات والشر ائع والعقائد لا تنفصل عن بعضها البعض وأنها إن هي إنفصلت فقد فقدت أجمل ما يميز أي دين أو عقيدة ألا وهو الإتساع والمرونة الذي تتيحه التعددية الفقهية والتفسيرات الإجتهادية التي تعطي لكل منا علي قدر سعته وإستطاعته.

لقد نسي هؤلاء المتحزبين أن في إختلافه رحمة وأن جمال أي دين هو في قدرته علي إستيعاب من يعلم ومن لا يعلم بل إستيعاب العامل وغير العامل، المخطئ والمصيب، العاصي و التائب...لقد نسي هؤلاء أن الكفر والأيمان بيد العزيز القدير الذي يقلب القلوب بيده ليجعل من عاصي اليوم مخطئ الغد ويجعل من عدو الدين اليوم من أشد المدافعين عن هذا الدين غدا.

يقول تشرشل في وصفه للأحداث بعد الحرب العالمية الثانية، أن روسيا كانت صديقة بالأمس لتصبح عدو اليوم، وأن ألمانيا كانت عدوا بالأمس لتصبح صديقة اليوم. فالقاعدة أنه لا شئ يدوم و أنه لا يوجد عدوا دائم كما أنه لا يوجد أيضا صديقا دائم .. ولكن الثابت الوحيد انه يوجد دوما .. مصلحة الوطن فقط.

وهكذا هو الأمر في الدين والعقيدة، فلايوجد صالح دائم ولا يوجد طالح دائم، لايوجد مصيب دائما ولا يوجد مخطئ دائما، بل يوجد فقط صحيح الدين ومصلحته وهو المستدام الأوحد الذي يفلح من يسير عليه ويتبعه بحيث لا يأخذ ببعضه فيُخرِج عنه من لا يصدق إلا في صحيح فكره ويكفر كل من عارض هذا الفكر.

إن معظم هذه المذاهب الطائفية إن لم يكن كلها قد إتبع فكر الردة الجزئية حيث تم تغليب بعض الدين علي عمومه فنراهم وقد جعلوا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو علامة الإيمان ودليل صلاح المؤمن ونسوا أن صلاح المؤمن يأتي في صلاح فعله وحسن معاملته للناس من كان منهم علي الإيمان ومن لم يكن. نسي هؤلاء المتفقهين أن الدين المعاملة وأن الناس لا تري من المؤمن ثوبه أو لحيته أو أثر السجود علي جبينه فقط، ولكن يرون منه سماحة خلقه ودماثته، يرون منه قبوله لأخطائهم لإن الله لم يعصم من الخلق إلا رسله وليس أدل علي ذلك من قول الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم: ((كل إبن أدم خطائ، وخير الخطائيين التو ابون))

لم يخبرنا رسول الله صلي الله عليه وسلم أن كل إبن أدم مخطئ، بل قال كل إبن أدم خطائ وهو الإنسان كثير الخطأ. كما لم يقل أن خير الخطائيين التائبين، بل قال أن خيرهم هم التو ابون وهم من يكثرون التوبة بعد كل خطأ يرتكبوه ولم يصروا علي ما فعلوه. نسي هؤلاء أنهم يخطأوون كما نخطأ وأنهم ليسوا بمعصومين حتى يعطون لأنفسهم ولفكرهم القداسة فنصبح إن نحن إختلفنا معهم من الكافرين.

نسي هؤلاء أن القرأن حمال أوجهه كما أخبرنا الإمام علي كرم الله وجهه وأن كل فريق يأخذ منه مايثبت به حجته ليس لصحة ما يراه، بل لإن الله سبحانه وتعالى جعل في إختلافه رحمه حتى ييسر علينا ديننا فلا يكفر بعضنا البعض حتى وإن رأي من القرأن مايقيم به حجته لإن في القرأن حجة لكل من أراد أن يحتج به وكفي دليلا علي ذلك أن

الخوارج قد قتلوا ذي النورين عثمان بن عفان بصحيح القرآن، كما وأحتكموا بين عليا ومعاوية بالقرآن، ثم خرجوا علي إحتكامهم أيضا بالقرأن.

لقد خرجت علينا جميع هذه الطوائف بفكر أعور يقدس صاحبه ويرفعه إلى منزلة الرسل في عيون أتباعه ليصدقوا فقط في دعوته وليصبح من يتفق معهم علي فكرهم من المؤمنين الصالحين ومن يخالفهم مهما علا مقامه وكثر علمه من المُكَفَرين... إنها المعضلة الأبدية بين كل من يعتنق فكرا ويستميت في الدفاع عن حقه في إبداء هذا الفكر بينما ينكر نفس الحق علي كل من خالفه هذا الفكر لإنهم إن خالفوه في فكره ورفضوا عقيدته فقد أصبحوا بالنسبة له من الكافرين بدينه الذي رسمه له مرشده وحدده له إمامه... عندئذ يصبح التفكير دليل وحجة التكفير والعياذ بالله.

طوائف وجماعات

من تحت العباءة المذهبية للإسلام (الشيعة والسنة)، خرجت العشرات من الطوائف والفرق والنحل التي أدعي كلا منها أنه علي الحق ومنهم من أدعي أنه فقط هو الحق ومادونه باطل والبعض منهم قد تطرف في دعونه ليجعل من جهاد الطوائف الأخري فريضة شرعية وذلك عندما تمادوا في تصديق أنهم الحق المطلق وقاموا بتكفير المجتمع من حولهم ليصبح كل من هو ليس علي شاكلتهم خارجا من الملة , ويستحل دمه وماله وأمنه وأمانه إن هو أصر علي عدم قبول دعوتهم ولم يقبل أن يعيش تحت وصايتهم الفكرية والعقيدية التي أعلنوها كحماة للدين أوصياء علي تطبيق الشريعة حاملين لمصابيح الدعوة والتي في سبيلها أعلنوا الجهاد علي من خالف دعوتهم من عموم المسلمين... وياليتهم كانوا بنفس الحمية علي أعداء الإسلام... !!

الأمثلة كثيرة والقصص لا تنتهي والسيرة الطائفية مليئة بالحكايات التي تشيب لها الوالدان. ولكننا هنا سنقوم بسرد بعض قصص الآولين من مدعي الطائفية الدينية والذين أصبحوا هم المثل لمن تلاهم من الأمم في فكر التحزب الديني وهو ما يعتبر إمتدادا لنفس الفكر البالى الذي كان يهدف في الأزمنة السحيقة إلى تسييس الدين لخدمة فكر وأهداف جماعة بعينها والتي تم الدعوة إليها بصفتها دعوة دينية ولكن التاريخ يخبرنا بل ويؤكد لنا أن كل هذه الدعوات لم تخدم الدين بقدر ما خدمت الأغراض السياسية لمؤسسي هذه الطوائف والجماعات .

بل أن التاريخ يخبرنا أن كل هذه الجماعات قد أضرت بالدين وجعلت منه مطمعا لكل أعدائه الذين وجدوا ضالتهم في هؤلاء الجماعات الطامحة للحكم والتي إرتضت في سبيل الوصول إلى غايتها أن تقدم أي تنازلات مطلوبة حتى ولو كانت هذه التنازلات لصالح أعداء الدين حتى تصل الجماعة إلى مبتغاها.

لقد انقسم الإسلام في عمومه إلى فرقتين تنازعا الحكم بينهما منذ عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه وحتي يومنا هذا. انقسم الإسلام إلى الشيعة وجماعة أهل الحديث والسنة وهم من يطلق عليهم اليوم السنيين.

و الشيعة في اللغة العربية تعني الفِرقة والجماعة والأتباع والأنصار والمحازبين لشخص أو عقيدة. حيث أعتبر المؤرخين أن جماعة الشيعة في الإسلام هم من تشيعوا لحكم علي بن ابي طالب كرم الله وجهه ويؤمنون أن خلافة النبي محمد صلي الله عليه وسلم قد حصرت في علي بن أبي طالب وذريته.

بينما عرف المؤرخون جماعة أهل الحديث والسنة بأنهم هم من قبلوا حكم معاوية وألتفوا من حوله وجعلوا من جماعتهم هي جماعة المسلمين عندما أطلق معاوية علي العام الذي دان له فيه الحكم - عام الجماعة - لتصبح هذه الجماعة هي المنوطة بالحفاظ علي الدين وسنة الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم و إثبات سند أحاديثه و إقرار السنة النبوية ومرجعيتها من الصحابة والتابعين والسلف الصالح.

ولكن يذكر لنا التاريخ أن التأريخ الفعلي لإنقسام المجتمع الإسلامي بين مذهب أهل السنة والجماعة ومذهب شيعة آل البيت قد بدأ أيام الحكم العباسي عندما عمد العباسيين إلى تأكيد أحقيتهم في الحكم بصفتهم أبناء عمومة الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم فجعلوا من أنفسهم ومن والاهم أهل السنة والجماعة ومن تشيع لعلي وبنيه هم الشيعة حتي يفرقوا بين آل البيت من أعمام الرسول وبين أبناء علي.

وقد انبثق عن الشيعة فرق و أفكار ومدارس منها من خرج على ما يؤمن به جمهور الشيعة وهم من يوصفون بالغلاة ومنهم من ظل تحت مسمي وفكر التشيع العام. ومنها أيضا طوائف لم تلبث في تاريخ الدهر طويلا ثم انقرضت وهي ما يعبر عنها بالطوائف المنقرضة.

و تنقسم الشيعة في العموم إلى ثلاث أجنحة رئيسية وكل جناح به بعض المدارس الفكرية والفقهية التي تختلف عن بعضها البعض في بعض المفاهيم والتفسيرات وإن إجتمعت كلها علي فكر التشيع لآل بيت الرسول صلي الله عليه وسلم من أبناء علي إبن طالب وعلي فقه الولاية. ويمكن تقسيم الشيعة إلى الثلاث طوائف الرئيسية التي يندرج تحتها العديد من الفرق التي قد إشتهرت في بعض الأحيان عن الطوائف الرئيسية :

- <u>الطائفة الزيدية</u>

وهم من يطلق عليهم الزيود والتي تبلورت في أوائل العصر العباسي في القرن الثاني الهجري وسميت بالزيدية نسبة إلى الإمام زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب كأحدي الفرق الإسلامية الشيعية التي إختلف مذهبها وفكرها وعقيدتها في العديد من النواحي عن الشيعة الإثنا عشرية أو الجعفرية، وهم أقرب الشيعة إلى أهل السنة حيث أنهم يقبلون بالشيخين أبو بكر وعمر ولا يتبرأون منهما, وهم ما بين فريقين, فمنهم من يترضى عنهما, ومنهم من يسكت عنهما من غير ترضية ولا سبّ ويعولون علي حديث الإمام زيد بن علي بن الحسين حيث كان كثير الثناء على الشيخين أبي بكر وعمر والترحم عليهما بل وينهى عن سبهما ويعاقب على ذلك. حتى أن بعض الناس قالوا لا نبايعك حتى تبرأ من الشيخين فقال: كيف أتبرأ منهما وهما صهرا جدي وصاحباه ووزيراه.

أما أكبر ما يميز العقيدة الزيدية هي في كونهم <u>لا يقرّون بتعميم عدالة الصحابة حيث يجدون من الصحابه من يصيب ومن يخطى بل ويذهبون أن من الصحابة من كان علي النفاق أيضا</u>. <u>كما أنهم لايرون العصمة إلا للأنبياء فقط ولايرونها حتى للأئمة من آل البيت بمن فيهم الإمام زيد نفسه</u>.

أما عن شروط الإمامة، فإن الزيدية يحصرون الإمامة في كل من تو افرت فيه شروط الإمامة وطلبها لنفسه وأشهر لها سيفه من البطنين من أولاد الحسن والحسين أبناء علي بن أبي طالب كرم الله وجهه مع إعتقادهم في جواز قيام إمامين في زمن واحد في مكانين مختلفين ولكن الزيدية يرون بل وينادون بوجوب الخروج على الحاكم الظالم و أنه من أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو ما ساعد علي فتح الباب الجهاد في سبيل إعلاء فكر الجماعة حتى ولو بالخروج علي الحاكم الشرعي للبلاد.

و قد تمكنت الزيدية من تأسيس دولة لها في اليمن منذ عصر الخلافة العباسية حتى اقصيت عن الحكم في اليمن بحلول الجمهورية في سنة 1962، إلا أن 30% إلى 40% تقريباً من سكان اليمن لا يزالون علي عقيدتهم المنتمية إلى مذهب الإمام زيد بن علي وأغلبهم ينتمون لقبائل همدان فرعي حاشد وبكيل.

- الطائفة الإمامية

يطلق إسم الطائفة الإمامية على طوائف الشيعة التي تؤمن بأن إمامة المسلمين تأتي نصّاً لكل إمام معصوم من أئمة أهل البيت، فيخالفون بذلك طوائف أخرى مثل الزيدية التي لا تشترط عصمة الإمام من آل البيت. و يسمون أيضا بالجعفرية لاتفاقهم على الأئمة الستة الأوائل ويفترقون من بعد الإمام السادس جعفر الصادق إلى فرق عديدة بسبب اختلافهم على الإمام التالي. ويسميهم بعض خصومهم بالرافضة أو الروافض.

وتنقسم الإمامية في عمومها إلى كلا من الإثنا عشرية والتي تمثل غالبية الشيعة المعاصرين حاليا وإلى الطائفة الإسماعيلية التي إنقسمت علي نفسها إلى الدروزوالنزارية (الأغاخانجية) والتي إنبثق منها جناحها العسكري المسمي بفرقة الحشاشين و إلى المستعلية أو من يعرفون بأسم البهرة.

وتعتبر الشيعة الإثني عشرية أو الرافضة أو الإمامية أو الجعفرية هم الطائفة الأكبر من حيث عدد الأتباع من بين الطوائف الشيعية الأخرى في عالمنا المعاصر حيث تنصرف تسمية الشيعة تلقائيا إلى الإثني عشرية لإنتشارهم وعددهم. وقد أطلقت عليهم هذه التسمية (الإثني عشرية) لاعتقادهم بأنَّ النبي صلي الله عليه وسلم قد نصَّ على إثني عشر إمام خلفاء من بعده، فكانت عقيدة الإمامة هي الركن الرئيسي لعقيدة هذه الطائفة حيث يعتقدون في حديث إبن مسعود عندما سئل إذا كانوا قد سألوا الرسول صلي الله عليه وسلم كم تملك هذه الأمة من خليفة فأجاب أنها ستملك إثني عشر بعدد نقباء بني أسرائيل.

يعتقد الشيعة الإثني عشريَّة بأن <u>التشيع الإثني عشري هو الإسلام الحقيقي المثبت في حياة الرسول صلي الله عليه وسلم والمستحق من بعده، وأنَّ الفرق والطوائف الأخرى قد استحدثت لاحقاً حيث يعتقدون ويصدقون أن مصطلح الشيعة قد أُطلق على أتباع علي كرم الله وجهه منذ أيام النبي</u> صلي الله عليه وسلم عندما أخبر الرسول في تفسير الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ "هم أنت وشيعتك يا علي" كما روى ذلك محمد بن جرير الطبري في تفسيره.

والعلويون هي طائفة من المسلمين الشيعة الإمامية، عقيدتهم هي نفس العقيدة الإمامية الجعفرية ولهم نفس تسلسل الأئمة الاثنا عشر، إلا أن بعض المصادر تخبر انهم قد افترقوا عن الاثناعشرية في ما بعد الإمام العاشر علي الهادي ويقال أيضا أنهم إفترقوا عند الإمام الحادي عشر الحسن العسكري، ولكن العلويون أنفسهم يؤكدون أن لهم نفس تسلسل أئمة الإثنا عشرية

أما الحركة الإسماعيلية فقد بدأت في حياة الإمام جعفر الصادق تيمنا بإبنه البكر إسماعيل، الذي أحبه أبوه محبة شديدة، وكان قومٌ من الشيعة يظنون في حياة أبيه أنه القائم بعده والخليفة له، إذ كان أكبر إخوته سناً، ولميل أبيه إليه و إكرامه له، ولكنه مات في حياة أبيه بالعريض سنة 760م، وحُمل على رقاب الرجال إلى المدينة، ودُفن بالبقيع نحو سنة 140هـ، وحزن عليه أبوه حزناً شديداً، وقيل إنه تقدم إلى سريره ليكشف عن وجهه مراراً وينظر إليه، وكأنه يتحقق من وفاته عند الظانين خلافته له من بعده.

كما قيل أن أخاه - وكان طفلاً صغيراً- كشف الملاءة عن وجهه وهو ميت فأبصره مفتوح العينين فجرى يقول لأبيه: عاش أخي، عاش أخي! فقال والده: ((هكذا هو حال أولاد الرسول في الآخرة)). ولذلك أنكرت طائفة من الشيعة موت إسماعيل وقالوا إن الأمر التبس على أبيه وظنه مات! كما قالت جماعة أخري إن أباه قد ادّعى موته تقية عليه حتي لا يُقصد بالقتل علي يد العباسيين الذين كانوا يتربصون بالشيعة في هذا الوقت.

ولذلك فقد جرى تحقيق رسمي في موت إسماعيل على غير المعهود. ولكن تقول روايات الإسماعيلية أن عيون الشرطة قد ادّعوا أن إسماعيل رؤي بالبصرة و أنه قد مرّ على مُقعد فدعا له، فبرئ بإذن الله، فرفعوا ذلك إلى المنصور الذي بعث إلى الصادق ليخبره أن إبنه إسماعيل من الأحياء و أنه رؤى بالبصرة، وهو ما عمق ظن الإسماعيلية أن إسماعيل لم يمت بل و أنه لن يموت حتى يملك الأرض ويقوم بأمر الناس و أنه القائم لأن أباه أشار إليه بالإمامة وأخبر أتباعه أنه صاحبه، والإمام لا يقول إلا الحق.

وعن قيمة الإمامة وأهميتها للمسلمين يذكر أبو بكر الرازي: ((يجب عقلا على الخلق أن ينصبوا لأنفسهم رئيسا ، أما عن كيفية تنصيب الإمام فهناك الفريق القائل بوجوبها على الله، والقائلين بوجوبها على الأمّة مثلما يعتقد إن جميع الشيعة ما عدا الزيدية وبعض المعتزلة يقولون أن الإمام يجب أن يكون بالنص من النبي أو القائم مقامه، لأنه بنظرهم

أصل من أصول الدين، وأن الامامة واجبة على الله. وهناك طائفة من الفرق الإسلامية تذهب إلى أبعد من ذلك فتقول: إنَّ أمر الإمامة راجع إلى الأمة، لأن الإمامة فرع من فروع الدين، أما الغلاة فقد شذوا وبعدوا حينما اعتبرو الإمامة في مقام الألوهية، أو إثبات للحلولية حيث يحل الآله في بدن الإمام، أو ما شابه ذلك من الأقوال التي لا يقرها عقل ولا تنطبق على حقيقة الدين من شئ. أما الإسماعيلية فقد جعلوا الإمامة إحدى دعائم الدين وأهمُّها بعد النبوءة والوصاية، و أنه لا يستقيم الدين إلا بها)).

وقد تبنت دولة القرامطة مذهب الإسماعيلية في العراق والشام والبحرين , كما وظهرت الدولة الفاطمية في مصر ليتبنوا ويحكموا تحت عباءة المذهب الإسماعيلي الشيعي طوال أكثر من قرنين من الزمان حكم فيها الفاطميين مصر، والذين هم بناة القاهرة والجامع الأزهر وغيره من مساجد القاهرة الفاطمية الشهيرة . ثم ظهرت الدولة النزارية التي امتدت في بلاد الشام كلها وفي العراق و إيران واليمن والهند.

ويجدر الإشارة إلى أن التيار الإسماعيلي في الفكر الشيعي يمثل الجانب العرفاني والصوفي الذي يركز على طبيعة الله والخلق وجهاد النفس، وفيه يجسد إمامُ الزمان الحقيقةَ المطلقة، بينما يركز التيار الإثنا عشري- الأكثرُ حَرفِيةً- على الشريعة وعلى سنن الرسول محمد صلي الله عليه وسلم و علي الإعتقاد في الأئمة الإثنا عشر من آل بيته باعتبارهم منارات إلى سبيل الله. ولكن الإسماعيلية يتفقون مع عموم المسلمين في وحدانية الله ونبوة الرسول صلي الله عليه وسلم ونزول القرآن المُوحى، وإن كانوا يختلفون معهم في أن القرآن يحمل تأويلا باطنا غير تأويله الظاهر، وهو ماجعل أهل السنة وكذلك بعض من الشيعة الاثناعشرية يطلقون عليهم الباطنية.

وفي عهد الفاطميين ومن قلب القاهرة الفاطمية تبلور المذهب الإسماعيلي و اكتسب صفاته المميزة و اكتمل بناؤه العقائدي حيث كان الخليفة الفاطمي هو نفسه الإمام الذي تجتمع له السلطتان الدينية والدنيوية للمرة الأولى منذ خلافة علي، وهو ما يتسق مع الرؤية الكلية للعقيدة حينذاك حيث إعتقد الفاطميين أن الإمامة قد إنتقلت إلى الإمام أحمد إبنَ محمد بن إسماعيل بصفته الإمام الثامن بعد أبيه لذا فهم يرون أن سلالة الأئمة استمرت غير منقطعة حتى اتصلت إلى عبد الله بن حسين الداعي الإسماعيلي الرابع الذي تَسمَّى عُبيدالله المهدي و الذي أعلن أنه هو الإمام الحادي عشر والخليفة الأول من البيت الفاطمي الذي تنتسب إليه سلالته من الخلفاء المهديين بعد أن إنتقلت

الإمامة إلى الخلفاء من البيت الفاطمي من أحفاد السيدة فاطمة بنت رسول الله صلي الله عليه وسلم وزوجة علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

وعقب موت الإمام الثامن عشر المستنصر بالله سنة 487هـ (1094م) نشب خلاف في البيت الفاطمي بين من إرتئوا أن ابنه نزار هو الإمام حسب وصية أبيه، وبين من رؤوا أن إبنه الآخر المستعلي بالله هو الإمام. وقد كان وكيل المستنصر ووزيره المسمي بالأفضل شاهنشاه هو خال المستعلي وأكثر الأطراف المتنازعة نفوذا، مما حسم الخلاف لصالح المستعلي إبن المستنصر بعد أن قام خاله ووزير والده بالدعوة إليه إماما تاسع عشر، كما وقام أيضا بسجن أخيه نزار الذي مات لاحقا في سجنه في الإسكندرية مما دعي الهادي إبن نزار إلى أن يفر في أتباعه إلى آسيا الوسطى حيث نصره الحسن الصباح محدثين بذلك انشقاقا جديدا في الإمامة ما بين مستعلية ونزارية ولتبدأ بعد ذلك حقبة جديدة في تاريخ الشيعة النزارية التي عرفت بعد ذلك بفرقة الحشاشين.

يخبرنا مركز التأصيل للبحوث والدراسات في دوريته التي صدرت بتاريخ 09-05-2012 عن تاريخ فرقة الحشاشين التي انشقت عن الفاطميين لتدعو إلى إمامة نزار بن المستنصر بالله ومن جاء مِن نسله والتي أسسها الحسن بن الصباح الذي اتخذ من قلعة "آلموت" في فارس مركزًا لنشر دعوته وترسيخ أركان دولته بعد أن جعل من نفسه نائبا للأمام المستور من ولد نزار والداعي له ولولايته وإمامته. وقد تميزت هذه الطائفة باحتراف القتل والاغتيال لأهداف سياسية ودينية متعصبة، وكلمة الحشاشين Assassin قد دخلت بأشكال مختلفة في الاستخدام الأوروبي بمعنى القتل خلسة أو غدراً أو بمعنى القاتل المحترف المأجور نسبة لهذه الفرقة التي إحترفت العنف الممنهج.

وقد أطلق الحشاشون علي جماعتهم أسماء عديدة منها "التعليمية" وذلك نسبة لمبدأ التعليم عندهم أي أنهم الفرقة القائمة علي تعلم مبادئ الدين،كما أطلقوا علي أنفسهم أيضا "أهل الوحدة" نسبة لقول ابن الصباح: "الوحدة علامة الحق" وهو ما كان يعني به توحد أتباعه علي مذهبه وفكره الذي يدعو إليه وعدم الخروج عليه، وأطلقوا أيضا علي أنفسهم "الرفاق" إشارة للمساواة فيما بينهم وأنهم رفاق الدرب في نشر مذهبهم وإعلاء صوت الحق الذي هم علي قناعة به أو الموت دونه، وقاموا أيضا بتسمية أنفسهم "القائمون" نسبة إلى "قائم القيامة" وهو الولي المستتر وإيمانهم به.

أما التسمية التي توضح عنصرية مذهبهم فقد ظهرت عندما سموا أنفسهم "محقُّو العصر" تعريضا بأهل المذاهب الأخرى حيث إعتقدوا أن من سواهم هو على الباطل لإنهم هم فقط علي صحيح الدين والدليل أنهم يدعوون " محقو العصر".

وقد نكاثرت القصص عن طبيعة هذه الجماعة وعن حسن الصباح الذي كان ملقبا بشيخ الجبل وكان يعطي أتباعه الحشيش حتى يدمنوه فيدينوا له بالولاء والطاعة كما ذكر الكاتب أنيس منصور في كتابه أعجب الرحلات في التاريخ عن ما ذكره الرحالة ماركو بولو أن الحسن الصباح قد جعل من قلعة آلموت مرتعا مملوءا بالنساء والخمور والحشيش حيث كان يحرق الحشيش كما البخور حتى يذهب بعقل كل من يدخل القلعة وكان يوهم أتباعه أنهم في الجنة بعد أن كان يوفر لهم النساء ويخبرهم أنهن الحور العين اللائي خلقهن الله - سبحانه وتعالى عن هذا الإفتراء- ليمتعن أتباع الحسن الصباح إن هم أدانوا له بالسمع والطاعة وأن من يخرج من الجماعة يخرج من الجنة.

حتى أن ماركو بولو قد أخبر عن أن الحسن الصباح كان يخرج أحد الشباب بعد أن يكون مغيبا تماما ويأمره بأن يلقي بنفسه من فوق الجبل إن هو أراد الخلود في جنته الز ائفة ولا يجد إلا السمع والطاعة.

إلا أن كل هذه القصص ظلت في مقام الحكايات الشعبية ولم يتم التحقق منها تاريخيا وأن كان الثابت من عقيدة هذه الفرقة هو إنتهاجها لفكر الاغتيال المنظم، وذلك عن طريق تدريب الأطفال على الطاعة العمياء والإيمان بكل ما يلقى إليهم وعدم مناقشة فكر الإمام حيث أقنعوهم أن الهلاك في المجادلة ومراجعة أوامر الأمير. وعندما يشتد ساعد هؤلاء الأطفال الذين تم تدريبهم علي السمع والطاعة والولاء الأعمي لفكر الأمير، يتم تدريبهم على إستعمال السلاح وخاصة الخناجر المسمومة، كما ويقومون بتعليمهم طرق الاختفاء وسرية العمل والتفاني في إخفاء الذات والفكر والتوجه .

ولكن الأهم من كل ذلك أن هؤلاء الشباب قد تم تدريبهم أيضا ليقوموا بقتل أنفسهم إن تم الإمساك بهم قبل أن يضطروا للبوح بكلمة واحدة من أسرارهم وهو ما ساعد حسن الصباح ومن بعده من أمراء فرقة الحشاشين علي تكوين طائفة من الفدائيين التي أفزعوا بها العالم الإسلامي آنذاك.

وقد ولد حسن الصباح في مدينة " قم " الإير انية لعائلة شيعية أثنى عشرية عام 440 هجرية ـ حيث تنحدر أصول هذه العائلة من اليمن، وقد أرسله أبوه إلى إحدى المدارس العليا التي كان يرأسها الامام موفق, و التي إشتهرت بأن كل تلاميذه كانوا يلتحقون بمناصب عليا في الدولة. وهناك ألتقى حسن الصباح بكلا من الشاعر والفلكي الفارسي صاحب الرباعيات عمر الخيام, و أيضا إلتقي بنظام الملك الذي صار فيما بعد درة وزراء الدولة السلجوقية الذي دعم ملكهم في بدايته وكان سبب اتساع ملكهم طوال تسعة وعشرين سنة تولى فيها الوزارة.

وقد نشأت صداقة حميمة بين الثلاثة لدرجة أنهم تعاهدوا أن أول من يصل إلى السلطة يدعم الاثنين الاخرين (ورد ذلك في سيرة نظام الملك) وسافر بعد ذلك حسن الصباح إلى مصر حيث لجأ إلى إحدى الزو ايا التي تبشر بتعاليم الاسماعلية ليتعلم جو انب القوة في تلك التعاليم... وخاصة تلك التى ركزت على وسائل تحويل الاتباع إلى مؤمنين مخلصين ومتعصبين, حيث إستطاع إبتكار خطة وأسلوب جديد للسيطرة على أتباعه, فقد أدرك العيوب في الطريقة الكلاسكية للطائفة الاسماعلية, و أنه ليس كافيا قطع وعد للناس بالجنة والسعادة الابدية, فقرر خلق تلك الجنة لهم وتقريبهم من المشاعر الحسية للسعادة الدنيوية التي طالما كانوا يوعدون بها... !!

إختار الصباح قلعة على قمة جبل من جبال البوز في منطقة الديلم بإيران تسمى آلموت، (آل موت) أى "بيت النسر"بالفارسية وهي حصن قديم فوق صخرة عالية وسط الجبال على ارتفاع (2,100 متر وهو مايوازي حوالي 6,900 قدم).

و قد بنيت هذه القلعة بطريقة متميزة بحيث لا يكون هناك إلا طريق واحد يصل إليها ويلف على منحدر صخري شديد الانحدار والخطورة بما يجعل من أي غزو لهذا الحصن عملية وخيمة العو اقب. ويقال أنه قد استولى علي هذه القلعة بالحيلة والخديعة، كما يقال أيضا أنه اشتراها بمبلغ 3،000 دينار ذهبية و قام بتجديدها و تطويرها و بناء التحصينات و تزويدها بالماء عن طريق نظام ري متطور حتى أصبحت آلموت قلعة حصينة لا يمكن اختر اقها فجعل منها قاعدة ارتكاز للانطلاق بدعوته الدينية و تحقيق مآربه السياسية للسيطرة على المناطق القريبة في بلاد فارس ومنها الإنطلاق للسيطرة علي معظم مناطق الدولة الإسلامية بعد ذلك.

وقد تركز فكر فرقة الحشاشين علي الإمتناع في سلسلة من القلاع والحصون، فلم يتركوا في منطقتهم مكانًا مشرفًا إلا أقاموا عليه حصنًا، ولم يتركوا قلعة إلا ووضعوا نصب أعينهم احتلالها. إلا أن الصباح كان شديد الإهتمام أيضا بالجانب الأخر من القلعة وبما خلفه ملوك الدايلم من حدائق تخترقها الأنهار وتملأها الطيور والأزهار حيث أشرف بنفسه علي إعادة تنسيقها كما وقام بشراء العديد من الفتيات شديدة الجمال واسكنهم القلعة وجلب لهم من يعلمهم الفنون والشعر والرقص ليجعل حياتهم ناعمة مثل الأميرات وقبل كل شيء كان يقوم بتعليمهم طاعته والولاء التام له والطاعة العمياء لأوامره ليقوم بعد ذلك بتقديمهن لمن صلح من أتباعه.

وقد بدأ الصباح من قلعة آلموت في تشكيل جماعته التى إشتهرت بإسم "الحشاشين" وذلك لشيوع إستخدامه مادة الحشيش المستخرجة من القنب فى تسهيل السيطرة على أتباعه، وهذا الإسم أطلقه عليهم الفاطميين فيما بعد حيث بدأوا بنعت الإسماعيلية النزارية بهذا الوصف في عهد الخليفة الحاكم بأمر الله أي بعد نشوب النزاع بين المستعلي ونزار بنحو عشرين سنة وإن كان التاريخ لم يؤكد مرجعية هذه التسمية إلا أنها إلتصقت بهم وأصبحت هي التسمية المتعارف عليه لهذه الفرقة حتى تاريخنا هذا. وتعنى كلمة الحشاشين "assassination" التى ادخلت بعد ذلك فى اللغة الإنجليزية بمعنى الإغتيال وهذه لفظة كان يطلقها الصليبيون على الفدائيين من أتباع الصباح الذين كانوا يفتكون بملوكهم وقادة جيوشهم. وتستعمل الكلمة "Assassin" اليوم في كل اللغات الغربية تقريبا حيث تم إستخدام هذه اللفظة كمرادف لكلمة "اغتيال" في اللغة العربية.

وفى قلعة آلموت كان الصباح يقوم باختيار الأطفال حتى يتم تربيتهم وتدريبهم بطريقة شاقة للقيام بعمليات الاغتيالات بعد إعدادهم نفسيا بصفتهم جنود الله في الأرض المدافعين عن الدين ناصري الشريعة، حتى أن بعض الأسر كانت ترسل أبنائها اليه طواعية حتى يجاهدوا فى سبيل توسيع الدعوة الصباحية المقدسة.. !!

وقد أوكل أمر هؤلاء الفتية الى بعض المعلمين يعلمونهم أصول مذهبهم و العديد من اللغات العربية والآرمية والفارسية واللاتينية كما وكانوا يعلمونهم الشعر والأدب..هذا بالطبع فضلا عن تعليمهم العلوم العسكرية على يد قادة بارعين جدا وذلك لخلق كتيبة من المحاربين المتمرسين في فنون القتال والذين هم علي أتم الإستعداد للتضحية بأنفسهم وأرواحهم دفاعا عن فكر جماعتهم وتصديقا لوعود كبيرهم الصباح والذي كان

يطلق عليه بالفعل لقب ((الأكبر)) حيث عمد الحسن الصباح إلى غرس عقيدة التبعية والطاعة العمياء فى نفوسهم بعد أن أقنعهم أنه هو السيد والإمام والمولى وأن الله تعالى قد أعطاه مفتاح الفردوس يفتحه لمن يشاء من أتباعه الإسماعيليين النزاريين الذين يصدقون في دعوته ويقدمون كل نفيس وغالى في سبيلها.

وكانت أول عملياتهم التى قاموا بها قتل وزير السلاجقة نظام المُلْك ويصوّر ابن الأثير في كتاباته أن عملية إغتيال نظام الملك كانت دفاعاً عن النفس حيث قال: ((لما بلغ خبر الاستيلاء على القلعة إلى نظام المُلْك بعث عسكراً إلى قلعة آلموت فحاصروا كل من فيها، وقطعوا عليهم الطرق المؤدية إليهم ومنعوا عنهم المؤونه، حتى ضاق الحسن الصباح ذرعا بهذا الحصار، فأرسل مَنْ رجاله من قام بقتل نظام المُلْك، حيث رجع العسكر عن حصار القلعة بمجرد علمهم بمقتل وزيرهم علي يد رجال الحسن الصباح)).

وقد امتدت عمليات الاغتيال هذه على مدى القرنين الخامس والسادس الهجريين (الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين)، حيث قام أتباع الصباح بإغتيال أمير الرُيْ وهو قائم في دار الوزير فخر المُلْك بن نظام المُلْك إضافة إلى قيامهم بإغتيال الوزير فخر المُلْك نفسه بعد ذلك ومحاولة إغتيال أخيه نظام المُلْك الابن. كما نجح الحشاشين في القرن السادس الهجري من إغتيال أمراء ووزراء وحكام ولايات، ومنها إغتيال حاكم الموصل سنقر البرسقي في "مقصورة الجامع"، وطالت خناجرهم الخليفة العباسي المسترشد بالله وتمكنوا من قتل صاحب أذربيجان السلطان داود بن محمود شاه.

كما أن سيساسات الحسن الصباح لم تقف فقط عند الإغتيالات والتصفية الجسدية حيث عمد أيضا إلى تطبيق سياسة الحرب الباردة وذلك من خلال سياسات الترهيب الفكري عندما أرسل الدعاة النزاريين الذين كان يسبقهم قصص وأخبار الحسن الصباح الإغتيالية وذلك لمناظرة دعاة و أئمة أهل السنة بل وأهل الشيعة الزيدية أيضا والعمل علي تسفيه أرائهم والطعن في عقيدتهم بعد بث الرعب في قلوبهم بأن ينالوا جزاء المعارضة لعقيدة الشيعة النزارية بأن يتم تصفيتهم جسديا وهو ما جعل أئمة هذا الزمان يتخوفون من المجاهرة بعدائهم لهذه الفرقة الإجرامية والإكتفاء بتسجيل أرائهم في كتبهم التي تطعن في هذه العقيدة وتكشف زيفها.

ويذكر المؤرخين عن هذه الحقبة من تاريخ الدولة الإسلامية التي إمتدت إلى عقدين من الزمان، أنه لم يتبق دار سلطان ودولة، في المشرق والمغرب، بمأمن من خناجر الإنتحاريين من فرقة الحشاشين، حيث غُرزت في ظهر الآمر بأحكام الله الفاطمي، وقطعت أوصال المسترشد بالله العباسي، وذبحت ما ذبحت من سلاطين ووزراء السلاجقة، و أفزعت أوروبا بقتل حاكم القدس، وأخيراً تمكنوا سنة 571هـ من الوثوب على صلاح الدين الأيوبي، وهو يتفقد جيشه في قلعة أعزاز شمال حلب ولكنه أفلت من قاتله كما أفلت أيضا من محاولتهم الإغتياليه كلا من محمود الدين زنكي وأسد الدين شيركوه خال صلاح الدين الذان إستطاعا النجاة من أيدي هؤلاء الإنتحاريين.

ولكن يجب الإشارة إلى أن الصباح كان يقوم أيضا بمهاجمة الصليبين تماما كما كان يهاجم رجالات الدولة الإسلامية وذلك حتى يستطيع ضمان تأييد العامة له ولفكره وليستطيع أن يصبغ جماعته بصورة المدافعين عن الإسلام ضد العدوان الخارجي المتمثل في الغزاة من الصليبين وضد العدوان الداخلي المتأصل في جسد دولة الإسلام والمتمثل في الحكام والسلاطين الذين خرجوا من الملة ولم يتبعوا فكر وعقيدة أهل الجماعة والتي هي بالقطع جماعته وفرقته تماما كما رأي من قبل وكما سيظل كل من يأتي بعده لا يري إلا صحيح فكره ولا يعتقد إلا صحة ما يعتقده.

لهذا لم يتوقف حسن الصباح عن شن الهجمات العسكرية ضد الصليبين حتى يستطيع المحافظة علي الصورة التي رسمها لنفسه وجمع من حولها الأتباع بصفته الداعم للإسلام وحامي حمي الدين وظل الله علي الأرض, رغم علاقته المتميزة جدا مع جماعة فرسان الهيكل الصلبية وهو ما أثبته التاريخ بعد ذلك!!

ويخبرنا التاريخ أن هذه الفرقة قد عرضت علي الصليبين تسليمهم دمشق مقابل أن يضمن الصليبين مدينة صور لتصبح هي مقر الفرقة وتحت إمرتها، كما وطلبوا من الصليبين أن يتم ذلك في أحد أيام الجمعة حتى يكون المسلمين منشغلين بعبادتهم فيسهل عليهم فتح أبواب المدينة في غفلة من أهلها، إلا أن حاكم دمشق السلطان بوري إكتشف هذا المخطط الشيطاني وقام بإبطاله وقتل منهم مايزيد عن ستة ألاف شخص.

و قد دخل الحشاشون تاريخ الغرب عندما إغتالوا أحد قادة الحملة الصليبية،وهو أمير مملكة القدس الصليبى حيث أفرد الكاتب الفرنسي برنارد لويس كتابا عن تاريخ هذه

الفرقه أسماه ((الحشاشون... فرقة ثورية في تاريخ الإسلام))، جاء في مقدمته أنه في عام 1332 ميلادية عندما فكر الملك فيليب السادس ملك فرنسا في القيام بحملة صليبية جديدة لإسترداد الأراضي المقدسة التي فقدتها المسيحية نصحه قس ألماني يدعي بروكار دوس وحذره من أنه سيقاتل الحشاشين وهم قوم متعطشون للدماء، أشداء لا يلقون إعتبارا للحياة أو النجاة وأن لديهم قدرات علي التخفي في شكل شياطين ولايسمحون للغريب أن يعيش بينهم، وبمجرد أشارة من كبيرهم يحدثون أكبر قوة تدميرية، وهم يعيشون عند تخوم دمشق و إنطاكية وحلب وفي بلاد فارس ولديهم هيكل تنظيمي صارم ونظام تربوي وتعليمي ممنهج وأنهم قد إغتالوا أمير مملكة القدس اللاتينية كونراد أوف مونتفيرات وأنهم لا يفرقون في القتل بين زعيم مسلم أو غير مسلم ولا حتى الولاة المسلمين.

ويذكر التاريخ أن نهاية هذه الفرقة كانت علي يد القائد المغولي هولاكو الذي غزا قلاعهم ودمرها سنة 1256 م في طريقه لغزو بلاد المسلمين بعد أن طلب من أميرهم ركن الدين خورشاه تسليم قلعة آلموت مقابل الحفاظ علي حياته، وهو ما قام به خورشاه إلا أنه حاول خيانته عندما توجه لمقابلة مونكو خان عظيم المغول في وقتها ليفاوضه في أمر ولايته، ولكن مونكو خان رفض مقابلته وأمر به لهولاكو الذي قام بقتله هو وعائلته في أثناء طريق رجوعه وقام بقتل كل من وقع تحت يديه من النزاريين.

وفي عام 1270 م كانت النهاية الفعلية لهذه الفرقة التي هددت الأمة الإسلامية وزعزت أركان دولتها وذلك بعد أن قام السلطان المصري الظاهر بيبرس بتتبعهم والقضاء عليهم تماما وتدمير أخر معاقلهم في الشام بعد أن إستطاع وقف الزحف المغولي وإنهاء التهديدات الخارجية علي الدولة الإسلامية ثم تفرغ للقضاء علي التهديدات الداخلية التي تمثلت في هذه الفرقة التي إنتهجت سياسة الإغتيالات والتصفية الجسدية لكل من خالفها في الرأي بل ولم يكن لديها أي وازع ديني أو وطني في التعاون مع أعداء الأمة من الصليبين أو المغول للحفاظ علي مكاسبها الخاصة والحفاظ علي كيان جماعتها قائما خلف القلاع التي بنوها وعاشوا فيها في عزلة عن جموع المسلمين وكأنهم ليسوا من المسلمين في شئ وإن كانوا يصدقون بل ويعتقدون في أنهم هم فقط المسلمين المنوطين بالحفاظ علي الدين وأن كل هذه الأمة من حولهم ليسوا إلا مارقة خارجين من الملة لإنهم لم يعتنقوا مذهبهم وقتلهم هو فريضة تهدف لإرضاء الخالق الباري الذي هو برئ منهم ومن أفعالهم إلى يوم يجمعون.

وأكاد أجزم أن إكتشاف هذه الفرقة ومنهجها كان هو الخيط الأول لدراسة فكر العنف التكفيري الثوري عند المسلمين ونشأته وتطوره وتأثيره المتذبذب بين الفكر الشيعي والفكر السني حيث بدأت الثورات في عموم الأمة الأسلامية علي يد من تشيعوا إلى آل بيت الرسول صلي الله عليه وسلم ولكنها قد إنعطفت بعد ذلك لتصبح ثورات داخلية ناتجة عن الإنشقاقات التي حدثت في آل بيت الرسول صلي الله عليه وسلم بين مؤيدي ومعارضي الإمامة في نفس البيت حيث أخذت هذا الطابع الدموي عندما إتجهت إلى تصفية المعارضين من المسلمين ولكن بقيت هذه الصبغة الدموية ملتصقة بالإسلام والمسلمين حتى يومنا هذا كنتيجة طبيعية لتكرار تولد مثل هذه الجماعات المتطرفة فكريا وعقائديا والتي جعلت من السلاح منهجا ومن الدم غاية ومن الإختلاف الفكري خلافا لايحله إلا الدم... دم المسلمين بطبيعة الحال... !!

عندما بدأت الردة في الإسلام، بدأت كما أوضحنا في محاولات جماعية للتنصل من عموم الدين إلى محاولة تجزئته حسبما إرتضي هؤلاء المرتدين ووقفوا خلف زعيمهم يقاتلون في سبيل ما أعتقدوه. عندما بدأت الردة عن الإسلام إستسلم ضعاف النفوس لفكرة أن يأتي لهم من يدعي النبوة بما يرتضونه من التخفيف في الدين والعبادات والشر ائع حتى يعيشون حياتهم بالشكل الذي يرتضونه وكأن لسان حالهم يقول أنهم يعلمون بل ويصدقون في خطأ عقيدتهم ولكنهم بشرا و في حاجة لمن يتحمل وزر دعواه وفتواه حتى يتحللوا هم من خطأ عقيدتهم بينما يستطيعون أن يستمتعوا بما تتيحه هذه العقيدة المنحرفة من تخفيف وتحليل وتبسيط لعموم الدين أو كما يقول العامة والبسطاء... كانوا في حاجة لأن يعلقوها في رقبة عالم...حتى لا تدق رقبتهم .

وهذا ما جعلهم يسيرون وراء زعيمهم أو نبيهم المدعي وهم يقبلون أن يغلبوا عقله علي عقولهم وأن يبدوا فكره علي فكرهم ويقبلون أن يدخلوا في حرب مع المسلمين تمنيا منهم أن يكون في إنتصارهم إعلاء لدينهم الجديد بما ضمنه لهم من هذه السماحيات والمميزات التي ستوفرها لهم هذه العقيدة إن هي علت، في حين يتحمل وزرها من أدعي النبوة فهم إن كانت علي باطل. فخرجوا في جيوشهم يحاربون من أجل ما إعتقدوه حتى وإن أثبت التاريخ خطأ عقيدتهم ولكنه لم يثبت خطأ منهجهم في الدفاع عن هذه العقيدة من الدخول في حرب كانت هي الفيصل في إعلاء كلمة الحق ضد من إرتدوا عن الحق إلى الباطل.

نعم كان هناك خلاف بين جماعة المسلمين ومن إرتدوا عنهم، ولكنه لم يكن خلافا دمويا كما فعلت جماعة الحشاشين، بل كان خلافا عقائديا أنهته حربا متكافئة بين قوتين لكل منها أتباعها ومناصريها لتكون الغلبة هي للفئة الباقية علي الحق إلى يومنا هذا و إلى يوم تقوم الساعة إن شاء الله. لهذا كانت حروب الردة هي أمر داخلي في الدولة الإسلامية لم تعطها أي صبغة دموية أو إقتتالية لإنها كانت جهادا مستحقا في سبيل الحفاظ علي وحدة الأمة التي كانت في مهد تكوينها مثلما فعلت وتفعل كل الممالك من حولها.

أما ماقامت به فرقة الحشاشين من نشر فكر الإغتيالات والترهيب والترويع علي مدي عقدين من الزمان، فقد كان خروجا عن الأعراف والتقاليد والمنهج السوي في الإختلاف حيث حولوا إختلافهم مع عموم الأمة إلى خلافا جوهريا يبيح لهم القتل وليس الإقتتال...يبيح لهم الإغتيال وليس المواجهة... بل يبيح لهم التعاون مع أعداء الأمة والإستنصار بهم إن إحتاج الأمر من أجل بقاء جماعتهم وفكرهم وعقيدتهم...ولتذهب أمة وجماعة المسلمين إلى سجلات التاريخ لتبقي جماعة النزاريين هم فقط الممثلين الشرعيين للإسلام والمسلمين... أو يبقون هم فقط المسلمين ودونهم...الموت.

نعم نعتقد أن الإنقسام بين المسلمين قد بدأ منذ وفاة الرسول صلي الله عليه وسلم عندما إرتد من إرتد عن المسلمين وقام خليفة رسول الله بقتالهم حتى يفيئوا إلى أمر الله. ولكن بالرغم من ذلك ومن كل ما مرت به الأمة بعد ذلك من خروج الناس علي الحكام من أمثال عثمان وعلي وخروج الشيعة علي حكم معاوية، و إنقسام الأمة بعد ذلك بين أهل السنة والشيعة في العصر العباسي، إلا أن جماعة الحشاشين كانت مذهبا مستقلا بذاته في التأسيس لمبدأ ((من خالفني الرأي، كان دمه حلال، ومن و افقني الرأي، كان إسشهاده حقا... لنصرة هذا الرأي)) أو كما نسمع اليوم من دعوي الجاهلين (قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار)، وكأن القتل هو الغاية و الإقتتال هو الهدف، أو كأنهم قد حصلوا علي براءة من العزيز القدير يقرون بها من سيدخل الجنة و من سيقبع في النار.

هؤلاء هم الحشاشون الجدد الذين تم تغييب عقولهم تحت مسمي الدين، ولكن هل سلمت جماعة أهل الحديث والسنة من هذا التفرق الذي أصاب جماعة الشيعة في العصور الأولي من دولة الإسلام؟

هل بقيت الفرقة والتفرق حكرا فقط علي جماعة الشيعة الذين إختلفوا فيما بينهم علي أحقية الإمامة وما ترتب علي ذلك من تطرف في الفكر والعقيدة التي نادت بها كل فرقة أمام من خافها الرأي؟

هل كانت جماعة أهل الحديث والسنة بمنأي عن كل هذه الصراعات الطائفية وإستطاعت أن تحافظ علي وحدتها وكيانها كجماعة واحدة قائمة تعمل بما حفظته من سيرة الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم وسننه وأحاديثه وتدفع عنها كل مشابها من أمور الفتنة أو التحريف؟

في حقيقة الأمر أن جماعة أهل الحديث والسنة لم تتبلور كجماعة وعقيدة إلا في مرحلة متقدمة من عمر الدولة الإسلامية وذلك في القرن الثالث الهجري حيث أن الأمة في هذا الوقت كانت تنأي تحت وطأة الصراع السياسي بين المتشيعيين لآل البيت ودعوتهم لإستحقاق الخلافة في أهل بيت الرسول الكريم عليه وعلي آله وصحبه أفضل الصلوات وأزكي السلام وهو ماجعل الأمة تنقسم بين الشيعة ومن عاداهم وهم من أطلقوا علي أنفسهم لقب الجماعة ليعرفوا أنفسهم علي أنهم جماعة المسلمين الذين إرتضوا الخلافة في معاوية وبني أمية من بعده ولهذا لم يكن علي جماعة المسلمين أن يقوموا بإثبات أحقيتهم لإن الخلافة والإمرة كانت فيهم بالفعل، بخلاف أهل الشيعة الذين بدأوا في البحث وتوثيق كل مايؤيد فكرة أحقيتهم بالحكم وهو ماجعلهم يتجهون إلى جمع الأحاديث والإستدلال بما وقع تحت أيديهم من الأسانيد التي تعضد موقفهم.

بينما وجدنا أن أهل الحديث والسنة قد إكتفوا في هذا الوقت برفض مسند أحاديث الشيعة الذين أطلقوا عليهم وقتها أهل البدعة و إثبات صحة البعض من مسند الأحاديث وهو ما جعل جماعة الشيعة تبدأ في بلورة فكرها وقولبته ووضع سياسة واضحة ومنهج يوضح لب العقيدة الشيعية في فترة بداية تكوين الدولة الإسلامية وهو ما أدي إلى هذه الإنقسامات التي حدثت بين أتباع العقيدة الشيعية المبنية في الأساس علي فكرة التحزب المذهبي، ليخرج من أتباعها من يبدأ في التحزب الطائفي داخل نفس المذهب.

أما أهل الحديث والسنة فقد تأخر تكوين جماعتهم حوالي ثلاثة قرون من الزمان إلى حين بدأت المذاهب في الإطلال علي سطح الأحداث حيث إجتمع الناس حول أئمة الأمة الأربعة وذهبت كل جماعة بأراء إمامها سواء من الشافعية أو المالكية أو الحنابله أو الحنيفيه.

ولكن كل هذه المذاهب الفقهيه لم تتعارض فيما بينها ولم يرفض أحدها الآخر بل دعموا بعضهم وجعلوا من إختلافهم رحمة للأمة وهو ما عمل علي تماسك فكر جماعة أهل الحديث والسنة وتوحد عقيدتهم لفترة طويلة من الزمان خاصة وأن هذه الجماعة كانت في منأي عن أي صراع علي السلطة نظرا لإن مذهبها كان هو مذهب بيت الخلافة مما جعل من إختلاف أئمتها إختلافا محمودا لم يعرف طريق الدم مثلما حدث بين الفرق الشيعية التي كانت تسعي للوصول إلى الحكم وفرض عقيدتها علي الأمة مما جعل التناحر علي السلطة سمة غالبة علي أتباعها في هذا الوقت من الزمان، وهو ماتغير بعد فترة عندما تغيرت خريطة العالم الإسلامي ككل.

إن الثابت من كتب الحديث والسنة والتاريخ الإسلامي أن جماعة الشيعة لم تبدأ في الإنقسام عن الجماعة بسبب تطرفها الديني أو بسبب رغبة شيوخها وفقائها في خلق مذهبا دينيا خاصا بهم بعد إختلافهم مع جمهور العلماء من جماعة المسلمين. إن الثابت كما تخبرنا كتب التاريخ الإسلامي بمختلف توجهاتها و إنتمائتها الحزبية أو الطائفية أو المذهبية أن الإنقسام الذي حدث كان نتيجة توجه سياسي بحت بدأ بالخروج علي عثمان للإعتراض علي السياسات المالية والإدارية للدولة في عهده ثم تطرق إلى دعم عليا في حربه ضد معاوية و إنتهي بالتحزب المذهبي لآل البيت لتبقي جماعة الشيعة منادية فيما بينها مهما تفرقت من طو ائف ونحل وفرق إلى أحقية الإمامة في نسل رسول الله صلي الله عليه وسلم من إبنته فاطمة وزوجها عليّ بن أبي طالب ولتعمل كل طائفة علي عقيدة أهل الشيعة علي إثبات الإمامة ومن ثم إستحقاق الخلافة فيمن يرون من نسل عليّ عن طريق إيجاد الدعم الديني من الحديث والسنة وأراء الفقهاء لإثبات حجتهم وصحة موقفهم من دعم شخص ما لإستحقاق الإمامة.

إذا لم يبدأ الإنقسام في الأمة الإسلامية بشكله الديني المعروف اليوم بين السنة والشيعة كنتيجة لتفرق الدين بينهم، ولكنه بدأ كنتيجة لتفرق الحكم بينهم وكنتيجة لرغبة كل جماعة في التفرد بالحكم علي حساب الجماعة الأخري وهو ما يمثل بطبيعة الحال صراعا سياسيا بحتا لا علاقة له بالدين ولكن لإنه هكذا تجري الأمور في السياسة كما أسلفنا منذ عصور الفراعنة ومرورا بعصور البطالمة الإغريق والرومان، أن يتم تديين أي سياسة حتى يتم التمكين للحاكم وإعطائه الصبغة الكهنوتية التي تدعم حكمه وتضفي عليه من القداسة مايجعل من الإنقلاب عليه أمرا محرما وفعلا مجرما.

لقد إنتهج هذا النهج الخوارج عندما أعلوا قولتهم " إن الحكم إلا لله " حتى ينتصروا في صراعهم السياسي بعدم قبول التحكيم ونتائجه وهو نفس نهج الشيعة الذين جعلوا من أمر الولاية في آل بيت الرسول صلي الله عليه وسلم منحني ديني لا يهدف إلا إلى الوصول إلى الحكم وهو ما جعلهم بعد ذلك يتفرقون في فرق وطوائف مختلفة عندما بدأت كل فرقة في الدعوة إلى الإمام الذي إرتضته حتى وصل الحال إلى ظهور فرقة الحشاشين التي بدأت كفرقة مناصرة لحكم الإمام نزار ضد أخيه المستعلي ولينتهي بها الحال كفرقة من الإغتياليين القاتليين الذين هم أبعد مايكونوا عن الدين وهكذا هو الحال مع كل هذه الفرق التي تبدأ في فرض عقيدتها من منطلق الدين حتى يتم لها التمكين في جماعتها فلا يظهر منها إلا وجهها السياسي القبيح الذي لا يعرف حرمة للدم ولايفرق في طغيانه بين من هو علي ملتهم ومن هو علي غير ذلك، لإنها في الأصل فرقة سياسية تتخفي تحت ستار الدين الذي يتكشف سريعا بمجرد البدء في تحقيق بعض من سياساتهم وبالقدر الذي يحقق لهم سياسة التمكين التي هي فصل القول في هذه الجماعات.

أما عن جماعة أهل الحديث والسنة، فقد إختلف الأمر حيث بدأت هذه الجماعة في كنف حكام الدولة حيث بدأت كجماعة دينية تهدف في الأساس إلى جمع أصول الدين والتحقق من مرجعيته والتعمق في شروح الدين وذلك كان أبعد مايكون عن السياسة في ظل إستتباب الحكم للدولة الأموية والعباسية من بعدها مما جعل الشغل الشاغل لأئمة أهل السنة هو التفقه في الدين ومراجعة أموره والوقوف في وجه الحكام إن هم طغوا في الحكم يعظونهم ويفقونهم في الدين ويراجعوهم في أحكامهم إن هم بغوا علي الأمة... ولهذا ظل علماء جماعة أهل الحديث والسنة في منأي عن السياسة وعن تكوين الفرق الطامحة في الحكم لكونهم كانوا يعيشون في ظل حكام من جماعتهم يدينون بالولاء في الأساس لفكر وعقيدة جماعتهم بخلاف ما حدث مع جماعة الشيعة.

لم يكن مصطلح أهل السنة والجماعة مشهورا في عصر الخلفاء الراشدين ولا في عصر الدولة الأموية بالشكل المتعارف عليه في وقتنا هذا حيث لم يكن هناك إلا مسلمون فقط وإن كان هناك من تم تسميتهم بالخوارج ومن تم تسميتهم بالرافضة أو بأهل البدعة وذلك حتى منتصف العصر العباسي حيث عمد بيت الخلافة العباسي إلى إطلاق هذه التسمية للتفريق بين عموم المسلمين المبايعيين للحكم العباسي وبين جماعة الشيعة التي بدأت تسميتها بعد مقتل علي بن أبي طالب على يد الخوارج من أهل الكوفة فتشيعوا

لآل البيت ونادوا بالحكم في أبناء عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه بينما كان يري العباسيون أنهم أيضا من آل البيت وأن الخلافة العباسية هي إحقاق للدعوة لآل البيت وأن جماعة الشيعة تهدف إلى الفرقة بين المسلمين بعد أن جعلوا آل البيت هم فقط أبناء علي وفاطمة ولم يرتضوا أن يبايعوا بالحكم لبعض أخر من آل البيت وهم من إنتسبوا إلى عم رسول الله العباس والذين رأوا في أنفسهم الإستحقاق تماما كما رأها أهل الشيعة في أبناء عليّ كرم الله وجهه.

ويمكن القول أن الطائفة السنية تمايزت كطائفة إسلامية مستقلة في خلافة علي بن أبي طالب عن الخوارج وعن فرق التشيع بعد صلح الحسن بن علي مع معاوية بن أبي سفيان، إلا أنهم لم يسموا أنفسهم بأهل السنة إلا في منتصف العصر العباسي بالرغم من بدء التسمية مع بدايات العصر الأموي إلا أنها لم تشتهر بهذا الإسم كما حدث في منتصف العصر العباسي, حيث تجنب أقطاب السنة الخوض في الخلاف بينهما لكي لا يتشتت الدين الحنيف، ومنهم ابن عمر و أنس بن مالك وسعد بن أبي وقاص الذين أثروا عدم الخوض في إستحقاق الخلافة لكي يحافظوا علي وحدة الأمة وأن ينأووا بأنفسهم وبأمة المسلمين عن مواطن الفتنة.

ولم يظهر الانفصال الواضح بين السنة والشيعة بشكل مباشر بل كان هناك حركة انفصال تدريجية بدأت منذ تولي معاوية الحكم الذي عمد إلى إطلاق لفظ الجماعة علي كل من ساند حكمه أو إرتضاه من الصحابة والتابعين ليجعل من كل من خرجوا في تأييد أبناء عليّ كرم الله وجهه من الصحابة أيضا بل ومن آل البيت من أهل البدعة في محاولة للتقسيم السياسي الذي يجعل من الذين خرجوا علي معاوية أعداء للأمة بما يعطيه حق الإقتتال مع من خرجوا علي الجماعة حتى ولو كانوا حفدة رسول الله صلي الله عليه وسلم.

ولكن الثابت كما أخبرنا من قبل في بدايات هذا الكتاب، أن أول من استعمل هذا المصطلح كان محمد بن سيرين، فيما أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه بسنده إلى ابن سيرين أنه قال: ((كانوا لا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة، قالوا: سَمُّوا لنا رجالكم، فيُنْظر إلى أهل السنة فُيؤخذ حديثهم، ويُنْظر إلى أهل البدعة فيُردّ حديثهم)).

وهو ما جعل الجمع من الصحابة والتابعين أمثال أبو هريرة وحسان بن ثابت و أنس بن مالك وعبد الله بن عمر وكذلك فقهاء المدينة ينشطون في روايات الحديث حتى وصلوا إلى مرحلة التدوين المتفرق؛ كما في صحيفة همام بن منبه تلميذ أبي هريرة، وما دونه عروة بن الزبير و أبان بن عثمان بن عفان وغيرهم حتى وصل الأمر إلى ذروته عندما تبنى هذه الفكرة أئمة الفقه الأربعة لأهل السنة فيما بعد حيث عمدوا إلي تتبع ونقل الأحاديث عن فقهاء المدينة من الصحابة والتابعين، نظرا لإعتمادهم على السنة في تفسير الدين . حتى جاء عمر بن عبد العزيز الذي قام برعاية وإحتضان فقهاء المدينة ذوي العقيدة الوسطية وهو ما ساعد علي تثبيت فكر وعقيدة أهل السنة والجماعة في بداياتها.

في نهاية العصر الأموي وبدايات عصر الحكم العباسي ظهر الإمام أبو حنيفة و ظهر الإمام مالك الذي تتلمذ على يد ربيعة بن فروخ وهو أحد فقهاء المدينة السبعة ثم كان ظهور الإمام الشافعي و إنتهاء بالإمام أحمد بن حنبل لتكتمل أعمدة بنيان المذاهب السنية الفقهية الأربعة التي شكلت ولازالت تعتبر أشهر وأعم المراجع الفقهية لأهل جماعة السنة بالرغم من ظهور بعض المذاهب الفقهية الأخري أيضا من أمثال المذهب الظاهري والمذهب الأوزاعي والمذهب الليثي وغيرها من المذاهب التي لم تشتهر ولم تلقي حظها من البقاء والإستمرارية كما حدث مع المذاهب الأربعة الرئيسية لجماعة السنة وهي الحنيفية والمالكية والشافعية والحنبلية. إلا أن جميع المذاهب الفقهية عند أهل السنة والجماعة قد إتفقت علي إستقاء العقيدة والعبادات والمعاملات من مصادر التشريع المتفق عليها وهي الكتاب والسنة والإجماع والقياس، ولم يثبت حدوث أي إختلاف بين الأئمة من السلف في أمور الاعتقاد و إنما كانت خلافاتهم في الأحكام التشريعية، إما لعدم توفر دليل صريح من الكتاب والسنة، أو لضعف حديث بحيث لا تقوم به حجة، أو غيره من الأسباب الفقهيه المتعارف عليها.

ومع انتشار الإسلام وتوسعه وتعرضه للكثير من القضايا الجديدة الدينية والتشريعية كانت هناك حاجة ملحة للخروج باجتهادات لهذه القضايا الفقهية المستجدة وتلبية حاجات الناس والإجابة عن تساؤلاتهم ومن هنا ظهر المتفقهين في الدين الذين إكتسبوا مسمي علماء الدين أو ممن تحصلوا علي لقب شيوخ الإسلام أو من جعلوا من أنفسهم أساتذة، ليخرجوا علي الأمة وقد أخذوا علي عاتقهم تعليم الناس في الأقاليم المختلفة المتباعدة شؤون دينهم ودنياهم كل حسب المذهب الذي يعتنقه وحسب ما وصل إليه من

العلم وهو ما لم يكن يشكل أي خطورة سياسية علي أهل السنة والجماعة أو علي الحكام الذين إتبعوا هذه العقيدة حتى بدأ بعض من أتباع هذه الجماعة في إنتهاج فكر جماعة الشيعة من الإعتقاد بأن الدين لابد له من دليل... من ولي... من قائم... من مرشد، لتبدأ الفرقة في أهل السنة والجماعة بعد عصور من الإستقرار الديني عندما تحولوا بقبلتهم من كونهم أهل دين ودعوة ليصبحوا أهل سياسة ودنيا وشتان بين هذا وذاك.

عندما فُتحت القسطنطينية عاصمة بيزنطة الرومانية على يد محمد الفاتح عام 1453م، فقد عمد إلى بناء الدولة العثمانية كمزيج بين ثقافة و تقاليد الحضارة الإسلامية الناشئة وعراقة الثقافة الرومانية القائمة. ولهذا تميزت الدولة العثمانية ذات المرجعية السنية بتنوع عرقي وديني ولغوي كبير منذ بداياتها الأولى كما تميزت بإعطاء الأقليات العرقية و الدينية حرية تنظيم شؤونهم بعيداً عن التدخلات المركزية متأثرة بديمقراطية الدولة الرومانية ولتبقي لفترة تقارب الستة قرون حاملة لواء الخلافة الإسلامية حيث أقيمت عام 1299م على يد عثمان الأول بن ارطغرل و انتهت سياسيا في عام 1922 وقانونيا عام 1923 بعد توقيعها على اتفاقيات لوزان .

كانت الدولة العثمانية موزعة ثقافياً و سياسياً و اقتصادياً بين الشرق و الغرب وشكل المُكون الثقافي الغربي جزءاً أصيلاً من نسيجها الثقافي مما ساعدها على الاحتكاك بالغرب و التوسع الجغرافي نحو شرق و وسط أوروبا بإعتبار الدولة العثمانية حكاماً لهم و ليسوا مستعمرين بعكس مفهوم الخلافة الإسلامية التي سبقتها حيث كانت النظرة لهذه البلدان هي نظرة استعمارية بحته كنتيجة منطقية لإختلاف الثقافات والمرجعيات بين الحاكم والمحكوم. أما الدولة العثمانية، فقد نشأت كمزيج حضاري بين الثقافتين بما ساعدها علي إحتواء طيلة القرون الستة.

لقد أدت هذه النظرة الإستعمارية للخلافة الإسلامية في مهدها إلى تولد حالة من رفض العالم الغربي لكيانات الخلافة الإسلامية علي إختلاف توجهاتها بدءاً من الخلافة الأموية ومرورا بالعباسية والفاطميين والأيوبيين والمماليك وحتي الدولة الأندلسية التي كانت أكثرهم تحررا وتقدمية كان ينظر لها علي أنها دولة مستعمرة ترغب في فرض عقيدتها وثقافتها علي الشعوب التي حكمتها إلا أن الغرب كان ينظر دائما للخلافة الإسلامية علي أنها كيان إستعماري قد فرض وجوده بقوة السلاح وحمي نفسه بالمرجعية الدينية التي تكفر كل من خرج علي الحاكم لتتمتع بثروات هذه البلاد عن طريق الجزية التي كانت

تفرض علي أهل البلاد إن هم لم يرتضوا الدخول في الإسلام أو عن طريق الزكاة إن هم أصبحوا مسلمين .

والعجيب أن بعض المؤرخيين قد وصلوا في تحليلاتهم إلي أن أمراء الدولة الأسلامية كانوا يتركون الدعوة إلى الإسلام في المدائن التي يتم فتحها حتى يستطيعون فرض الجزية التي كانت تعود عليهم بالنفع المادي الذي وصل مداه في عهد الخلافة الأموية ومن بعدها العباسية حيث وصلت مظاهر الترف والثراء علي الدولة الإسلامية التي كان من المفترض أن تسير علي خطي المؤسسين الأوائل من أمثال رسول الله صلي الله عليه وسلم وخليفته أبو بكر وعمر بن الخطاب وهم من يضرب بهم المثل في الزهد وعدم التكالب علي الدنيا، إلا أن ما حدث بعد ذلك من إنحراف أمراء المسلمين عن هذا النهج وسعيهم وراء الدنيا لتحقيق الثراء الذي جاوز ما وصلته الممالك والإمبراطوريات التي قهرتها الدولة الإسلامية سواء الفارسية أو الرومانية قد جاوز كل المدي ليولد حالة الرفض للدولة الإسلامية من هذه الدول وخاصة بعد أن تم وصمها بالصفة الإستعمارية علي مدار السنين وتعدد الخلافات التي إنتهت إلى الخلافة العثمانية التي كانت تحكم نصف الأرض في وقتها.

ولكن مع مرور السنين بدأ الضعف يستشري في جسد هذه الإمبراطورية الممثلة في الخلافة العثمانية نتيجة حروبها الكثيرة وضعف اقتصادها و تدخلات القوى العظمى في شؤونها مما أدى في نهاية المطاف إلى انهيارها حيث تزامن مع هذا الحدث الكبير ظهور حركات أصولية إسلامية ذات مرجعية سنية كرد فعل على انهيار الدولة العثمانية كانت تهدف جميعها إلى المطالبة بإحياء دولة الخلافة تماما كما حدث مع بدايات الحركات الشيعية التي بدأت من منطلق الدعوة إلى إثبات الخلافة في بيت عليّ بن أبي طالب حاولت الإطاحة بدولة الخلافة السنية علي مدي ستة عقود ولكنها لم تقوي علي ما لم تقوي عليه الممالك الأخري فجعلت من مذهبها دولة ومن فكرها عقيدة ومن سلميتها سبيلا للبقاء حتى إشعار أخر.

ومن رحم ضعف دولة الخلافة العثمانية السنية تولدت بعض الحركات أو الجماعات الإسلامية الأصولية من أمثال "حركة ديوباندي" في الهند ضد هيمنة الانجليز على الهند و سيطرتهم على الأقاليم الجغر افية التابعة لدولة الخلافة العثمانية، وحركة " أليغار الهندية" التي أسسها السير سيد أحمد خان والتي بدأت كحركة تنويرية إصلاحية ولكن تم إستخدامها كفلسفة تحررية لفكر بعض الجماعات الجهادية بل يمكن القول أن هذه

الحركة كانت هي الشرارة التي أدت إلى قيام دولة باكستان ومنها بدأت حركة الشيخ أبو الأعلى المودودي في باكستان الذي طالب بإقامة دولة يتم فيها تطبيق الشريعة الإسلامية تزامن معها حركة الإخوان المسلمين في مصر والتي استسقت أفكارها من أفكار أبو الأعلى المودودي مثلما فعل حزب التحرير الإسلامي الذي يطالب بإحياء الخلافة الإسلامية.

بل أن التاريخ يخبرنا عن العديد من الحركات الأصولية والجهادية التي كانت جميعها تعتنق المذهب السني والتي إنبثقت جميعها من تحت عباءة الأشعرية في الأصل منذ بداية النهاية للخلافة العثمانية وحتي وقتنا هذا ليتفرع كل منها كلا حسب توجهه وقناعته السياسية في محاولاتها الدؤوبة لكي تتمركز في منطقة الشرق الأسط حتى تتمكن من تفعيل مخططها الرامي إلى بسط فكرها وعقيدتها لغزو العالم العربي و الإسلامي.

إلا ان التجربة التاريخية والسياسية لهذه الحركات قد أثبتت أنها لم تحقق مرادها الأساسي من إعادة إحياء الخلافة الإسلامية حيث لم تجد القبول العالمي أوحتى الإقليمي كنتيجة لإنتهاجها الفكر المتطرف وما شابها من إنغلاق فكري و إنعدام القدرة علي مسايرة عجلة التطور التي كانت تتسارع بشكل ملفت للنظر في ظل التحرر الفكري الذي ولدته الثورة الصناعية في أوروبا وما فرضته علي المجتمع الأوربي من الخروج من تحت عباءة الوصاية الدينية إلى التحررية السياسية وتكون فكر عالمي جديد يرفض تديين السياسة بعد أن ثار علي فكر تسييس الدين.

وهو ما جعل هذه الحركات تتجه إلى فرض الجهاد ضد المجتمع الشرقي الذي رأته مغيبا ويسير في طريق الكفر وضد المجتمع الغربي الذي رأته يسير في طريق العداء للإسلام، مما فرض علي معظم هذه الجماعات المواجهة العسكرية والأمنية مع القوى العالمية من جهه ومع مجتمعاتها الإقليمية من جهه أخري لفرض عقيدتها إلا أنها لم تستطع للأسف أن تقدم مشروع يتناغم مع تقدم عجلة التاريخ و تطور المجتمعات الإنسانية .

عقب حرب عام 1857 والتي خسر فيها المسلمون الهنود السلطة لصالح بريطانيا وآذنت ببداية الاستعمار البريطاني للهند، ظهرت حركتان فكريتان كرد على الهزيمة, واحدة بقيادة محمد قاسم نانو اتاوي (الحركة الديوباندية)، والتي اعتبرت أن سقوط دلهي كان بسبب التفسخ الأخلاقي لدى الملوك المغول الذين كانوا يحكمون الهند حينها، إلا أن هذه الحركة قد إتخذت موقفا مناوئا من الغرب ورسالته في الإصلاح كما أسست فيما بعد

"دار العلوم" في مدينة ديوباند بولاية أوتار براديش الهندية، والتي كانت تعتبر أكبر مركز للتعليم الإسلامي وقتها بعد جامعة الأزهر في مصر.

أما المجموعة الثانية فكانت تحت قيادة السير سيد أحمد خان والتي راهنت على محاكاة العلوم الغربية ورفض التشدد الديني كأساس لنهضة المسلمين ومن ثم قام علماء هذه المجموعة بتأسيس جامعة أليغار الإسلامية، نسبة إلى مدينة إليغار الو اقعة في ولاية أوتار براديش الهندية، والتي تعتبر اليوم واحدة من أكبر مراكز الهند في التعليم الحديث للمسلمين والو اقعة بالقرب من العاصمة دلهي.

وبالرغم من أن كلا الحركتين كانا يتبعان المذهب الحنيفي الذي كان متسيدا وقتذاك منطقة الهند، إلا أن إختلاف رؤية ومنهج الحركتين تجاه مسألة الإصلاح الإسلامي قد أدى إلى اختلاف النتائج التي توصلوا إليها أو مسبباتها , حيث نجد أن مدارس ديوباندي الدينية قد أفرزت فيما بعد حركة طالبان والمقاتلين الجهاديين التي إستوطنت باكستان و أفغانستان ومنهما بدأت في غزو العالم الإسلامي رويدا رويدا كحركات جهادية تتخذ من العنف وسيلة لفرض أرائها و أفكارها علي المجتمعات الأسلامية أولا كما إتخذت من فرضية الجهاد منهجا في محاربة الغرب إعلائا لشوكة الإسلام.

وفي المقابل وجدنا أن حركة سيد أحمد خان قد إتخذت منعطفا تنويرياً نظرا لإنه لم يكن من دعاة العنف في الأساس بل كان يؤمن بسلمية الدعوة وضرورة الإنفتاح علي الغرب بصورة محدودة وتقبل الثقافة الغربية وأخذ ما فيها من صلاح للأمة ونبذ ما يعارض الشريعة. حتى وجدنا سيد أحمد خان وهو يعمل علي إنشاء مؤسسة تعليمية ضخمة توازي في ضخامتها جامعة كامبريدج، ويقوم باصدار صحيفة بإسم "تهذيب الأخلاق" يدعو من خلالها إلى أداب الإسلام حيث جعل صحيفته هي المنبر الذي يستطيع من خلاله مخاطبة الأمة الهندية لشرح صحيح العقيدة الإسلامية، وهو ما أصاب مدارس ديوباندي في الهند بالضمور بسبب المناخ الثقافي والسياسي الذي أوجدته الديمقراطية الغربية والتعددية الدينية، ورسالة سير سيد أحمد خان في التنوير.

واللافت للنظر أن كلا الحركتين قد ركزتا في بداياتها علي نشر التعاليم الدينية الخالصة من التوحيد بالله و إتباع سنة رسول الإسلام محمد بن عبد الله صلي الله عليه وسلم في كل أمور الدين والدنيا بالإضافة إلى حب وتبجيل الصحابة الكرام كعادة أهل السنة

والجماعة، كما أقرا مبدأ التقيد بإتباع المدارس الفقهيه في تفسيرات الشريعة الإسلامية مثلهما مثل باقي الحركات الإسلامية التي تنشأ كحركات دعوية تهدف إلى نشر عموم الدين حتى تستطيع أن تأسس كيان دعوي له أتباع ومريدين فيتم إعدادهم كدعاة إلى الدين – حسب رؤيتهم وعقيدتهم بالطبع - حتى يتشبعوا بفكرة أنهم حماة الدين ورجاله... ثم يبدأ الإنحراف تدريجيا كما يخبرنا التاريخ دوما.

ووسط كل هذه الأمور الدينية التي لا يختلف عليها المسلمين سنة كانوا أو شيعة قام سيد أحمد خان الذي كان يشعر بالقلق من كون المسلمين أقلية مستهدفة، في الخروج بالدعوة من رحم الدين إلى إعلاء الجهاد في سبيل الله كفرض عين علي الأمة بالرغم من أن هذه الحركة لم تكن مسلحة ولم تتسم بطابع العنف الذي إتسمت به الفرق الشيعية قبل ذلك إلا أن آثار و أفكار هذه المدرسة كان لها دوراً كبيراً في إنشقاق دولة باكستان الإسلامية عن الهند، كما شكلت هذه الحركة وأركان دعوتها المرجعية الفقهية التحررية التي قامت عليها حركة طالبان بعد ذلك عندما إتخذت من فكر سيد أحمد خان التنويري مرجعاً في تحديث أمور الدين وإعادة تأويل النصوص بما يتماشي مع توجهاتها الجهادية وهو ما يخالف الطريق الذي سار عليه سيد أحمد خان في بداياته وإن كان يتفق مع فكره التحرري والتنويري الذي كان ينادي به ليتم إستخدامه وتوظيفه ليخدم الفكر الذي كان يرفضه ويحاربه.

لقد كان مقام فكر سيد أحمد خان من حركات التطرف الأصولية في هذه المنطقة هو بمقام الفيلسوف هيجل من هتلر، الذي أصبحت نظريته الفلسفية هي المحرك الأساسي لما قام به هتلر من صراعات دموية قادت العالم إلى حرب عالمية أفنت الملايين وهدمت إمبراطوريات و أقامت أخري مكانها .

لقد إستمرت دعوة سيد أحمد خان تنادي بسلمية الدعوة وسلمية المقاومة وسلمية العقيدة حتى حدث الخلاف السياسي والمجتمعي بينه وبين الهندوس (طبقة الأغلبية) من جهة و بين السلطات البريطانية (السلطة الحاكمة) من جهة أخرى في عام 1876 م نتيجة إصرار الهندوس على اعتبار اللغة الهندية لغة رسمية بدلاً من لغة الأردو التي كانت هي اللغة السائدة التي يجتمع عليها أطياف المجتمع الهندي المختلفة.

حينها فقط صرح أحمد خان أنه كان ولفترة طويلة يعتقد أن المسلمين والهندوس هم أمة واحدة ولكنه مقتنع الآن أن هناك خلافات جذرية تمنعهما من أن يكونا أمة واحدة ومن هنا بدأ في الدعوة إلى فرض الجهاد علي الأمة وهو ما مثل منعطفا جذريا في دعوته ليس لخروج فكر دعوته من السلمية التي إنتهجتها إلى فكر الجهاد، بل لصدوعه بهذا الفكر الذي تم إستخدامه بعد ذلك ليصبح هو الفلسفة العامة للحركات الجهادية السنية التي غيرت شكل التاريخ بعد ذلك وخاصة في ظل إنتهاج الدعوات الشيعية الفكر السلمي وكأنهم قد إرتضوا لجماعات السنة أن تقوم هي برفع راية الجهاد بدلا منها حتى تنال بعض ما نالته من عداء وتشتييت وكراهية مجتمعية وكأن لسان حالهم يخبر أن كأس العزلة المجتمعية دائر ولابد للجميع من أن يصيبهم الدور في تناوله.

في ولاية حيدر أباد الهندية ولد أبو الأعلي المودودي لأسرة هندية مسلمة متوسطة الحال حيث كان الأب يعمل بالمحاماة وهو من فضل عدم إلحاقه بالمدارس الأجنبية وقام بتعليمه اللغة العربية بالبيت حيث درس عن أبيه أصول الدين والقرأن والحديث والفقه حسب المذهب الحنيفي.

وقد عمل أبو الأعلي المودودي بالصحافة في أول عمره حتى قام بتأسيس مجلة ترجمان القرأن التي تصدر حتى يومنا هذا وقد إشتهر بكتاباته التي تدعو إلى المحافظة علي الخلافة الإسلامية وهو ما جعل الناس تلتف من حوله نظرا لدعوته لأحياء الخلافة وهو التقليد الذي تحدثنا عنه منذ بدء الخليقة من تديين السياسة أو تسييس الدين الذي يجعل الناس تقبل هذا الفكر وتلتف حول صاحبه بغض النظر عن توجهه أو مضمون دعوته.

وبطبيعة الحال فإن أي فكر فلسفي كما أسلفنا لا يتحول إلى مذهب عقائدي إلا عندما يلتف الناس حول الداعية فيصبح له من الأتباع والمريدين ما يجعله يتحول بفكره الفلسفي إلى تأسيس المذهب العقائدي الذي يتحول بطبيعة الحال إلى جماعة أو فرقة دينية ظاهرها الدعوة إلى صحيح الدين وباطنها التوجه إلى التمكين من الحكم. لهذا وجدنا أبو الأعلي المودودي وهو يقوم في عام 1941 بإصدار أول كتاباته (الجهاد في الإسلام) الذي كان ينادي فيه بفرضية الدعوة إلى الله كسبيل لإقامة المجتمع الإسلامي ومن ثم قام بتأسيس الجماعة الإسلامية في لاهور التي كان ظاهرها هو الإصلاح الشامل لحياة المسلمين على أساس الفهم الصحيح النقي للإسلام مما ألصقه به الحاقدون من شوائب ولكن باطنها لم يكن يعلمه حينها إلا الله سبحانه.

وبعد تأسيس دولة باكستان عام 1947 والذي يعتبر أبو الأعلي المودودي أحد الدعامات الرئيسية في إنشاء هذه الدولة الإسلامية وجدنا الجماعة الأسلامية بعد خمسة أشهر فقط من تأسيس دولة باكستان تقوم بإشهار توجهاتها السياسية و تعمد إلى مطالبة الحكومة الباكستانية بتديين سياساتها وأن يتم تشكيل نظام الحكم الباكستاني وفقا للقانون الإسلامي، حتى تم إعتقاله عدة مرات كان أبرزها عقب إندلاع أحداث العنف الطائفي في لاهور سنة 1953 حيث حكم عليه سريعا جدا بالإعدام وهو الحكم الذي تم تخفيفه إلى السجن مدي الحياة بعد الضغط الشعبي ثم تم إسقاط الحكم عليه في عام 1955 وهو ما كان بمثابة بزوغ نجم أبو الأعلي المودودي في سماء الدعوة الإسلامية حيث قام بزيارات وعقد ندوات وإعطاء محاضرات لنشر فكره الإسلامي الثوري في العديد من دول العالم الإسلامي مثل مصر والمغرب والسعودية وغيرها حتى أنه كان عضوا مؤسسا للمجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي.

ويمكن تلخيص فكر أبو الأعلي المودودي حسب كتاباته الإفتتاحية في مجلة ترجمان القرآن التي قام بتأسيسها ليدعو الشعب الهندي إلى الانضمام إليها قائلاً: ((لابد من وجود جماعة صادقة في دعوتها إلى الله، جماعة تقطع كل صلاتها بكل شيء سوى الله وطريقه، جماعة تتحمل السجن والتعذيب والمصادرة، وتلفيق الاتهامات، وحياكة الأكاذيب، وتقوى على الجوع والبطش والحرمان والتشريد، وربما القتل والإعدام، جماعة تبذل الأرواح رخيصة، وتتنازل عن الأموال بالرضا والخيار في سبيل تحقيق غايتها من نصر دين الله)).

إنه نفس الطريق الذي يتخذه كل من يري الدين طريقا للحكم و إنشاء الخلافة. إنه نفس الطريق الذي تبذل فيه الأرواح رخيصه في سبيل تحقيق الهدف الأسمي من إقامة الخلافة والتمكين من الحكم، وهو الهدف الذي يسعي إليه أي داعية ويتبعه فيه قطيع من البشر الذين قبلوا أن يستبدلوا عقولهم بأجهزة إستقبال لا تعمل إلا وفق إشارة البث التي يرسلها إليهم أميرهم فلا يريهم إلا مايري ولا يسمعهم إلا مايسمع فيجعلون له القداسة التي تنزهه عن كل خطأ، حتى ترفض عقولهم أي مناظرة لأفكار شيخهم وكأنها قد أنزلت من السماء أو أوحي أليه بها كما أوحي من قبل للرسل والأنبياء والعياذ بالله.

ومن رحم الجماعة الإسلامية في باكستان خرجت علي الأمة الإسلامية العديد من الجماعات التي إتخذت من الجهاد سبيلا ومن الدم ثمنا لتحقيق هدفها الأسمي في قيام

دولة الخلافة الإسلامية مثل: الجماعة الإسلامية في باكستان، الجماعة الإسلامية في مصر، حركة طالبان في باكستان، حركة طالبان في أفغانستان، شبكة حقاني، عسكر طيبة، تنظيم القاعدة في اليمن، تنظيم القاعدة في بلاد المغرب العربي، تنظيم دولة العراق الإسلامية، تنظيم القاعدة في بلاد الر افدين، جماعة التوحيد والجهاد، إمارة القوقاز الإسلامية، جماعة شباب المجاهدين، حركة شرق تركستان الإسلامية الجبهة العالمية لقتال اليهود والصليبين، تنظيم بوكو حرام، وجبهة تحرير مورو الإسلامية.

كل هذه الجماعات والطوائف قد خرجت من أهل السنة والجماعة تبحث عن هدف واحد في مشارق الأرض ومغاربها ألا وهو إقامة الخلافة الإسلامية وذلك بعد وقوع الخلافة العثمانية و إنتهاء دولة الخلافة الإسلامية التي كانت قائمة طوال عقود سابقة من الزمان تحت مذهب وعقيدة أهل السنة والجماعة وهو ما جعل هذا المذهب بمنأي عن الفرقة السياسية كما حدث مع جماعة الشيعة التي كانت في بداياتها تبحث هي الآخري عن الخلافة ولكن علي طريقتها ووفقا لمذهبها.

فلما لم يتم لها ما أرادت وقامت دول الخلافة المتعاقبة بإضطهادها وتقتيل أتباعها , قامت فيها الدعوات المختلفة لإحياء الخلافة و إنتظار المهدي المنتظر الذي سيجمع الأمة علي صحيح الدين وهو من رأته كل فرقة حسب عقيدتها. حتى وقعت دولة الخلافة الإسلامية، فبدأت أهل السنة والجماعة في البحث عن طريقة لإعادة إحياء الخلافة وفق مذهبها الذي كان يناهض فكرة الإمامة التي قامت عليها المذهب الشيعي فتم إستبدال فكرة الإمامة بمبدأ الإمارة لنجد كل طائفة أو جماعة أو تنظيم أو فرقة وقد إتخذت لها أميرا أو أستاذاً أو شيخا أو مرشدا يجعلون منه القائم بالدين ليسير من حوله وخلفه الأتباع يصدقون فيما يخبرهم به بل ويقاتلون من أجل دعوته وكأنه هو من أعطي الدين وغيره كلهم علي الضلال.

هل عندما يشعر الإنسان بأنه وجماعته يمثلون أقلية مجتمعية ويتولد عندهم الإحساس بالظلم المجتمعي في قبول أفكارهم ودعواهم وعقيدتهم، فإنه يتولد عندهم الدافع لإستخدام العنف كإستحقاق قد يصل إلى إعتباره فرض عين علي الأمة لرفع السلاح ضد من خالفهم العقيدة؟

هل كان هذا هو تفكير فرق الشيعة من قبل عندما رفضهم المجتمع وإعتبرهم من الخارجين عليه، وهل هكذا بدأت فرق السنة في إنتهاج نفس التفكير عندما وجدت أنفسها في موقف الأقلية المحكومة بعد أن كان لهم الحظوة والسلطان؟

تري ما هو السبب في تحول الفكر والعقيدة الدينية من كونها طابع روحاني يصل العبد بخالقه ليطهر به روحه ويحسن به خلقه ويصلح به معاملاته لتصبح فقط مرجعية دينية تحرك طموحاته السياسية التي يسيطر عليها شهوة الحكم بداخله؟

هل هو الشعور بنبذ الناس لهذا الفكر أم أنه القناعة في صحة العقيدة وبطلان ما دونها بما يؤجج هذه الرغبة الشهو انية داخل أي إنسان فتدفعه إلى محاولاته المستميته في أن يفرض عقيدته علي الناس ليكون له من الأتباع من هو علي إستعداد لأن يستشهد في سبيل إعلاء فكره؟

هل حقا إختلف المسلمين دينيا بين سنة وشيعة، أم أنهم تشابهوا جميعا في إسلامهم السياسي وإن إختلفوا في مسمي عقيدتهم الدينية التي حاولوا أن يوهموا كل من حولهم أن الخلاف هو خلاف عقائدي في حين أن الخلاف ليس إلا خلافا سياسياً في المقام الأول تم إصباغه بلون الدين حتى يمكن توفير المكانة الدينية التي تعطي لأربابها القداسة والحماية الفكرية فيتمكنوا من تثبيت مذهبهم وبالتالي تعضيد أركان دولتهم ليتمكنوا من تحقيق رغبتهم الدفينة القديمة في الإنفراد بحكم دولة الإسلام؟

هل يوجد فعلا إختلافات جوهرية في عقيدة فرق أهل السنة والجماعة وبفرق الشيعة ويقينهم المطلق في ضرورة وجود إمام أو قائم أو ولي عند الشيعة ومثيله من مرشد أو أستاذ أو علامة أو شيخ الإسلام عند أهل السنة والجماعة يمتلك هذا القدر من القداسة الذي ينزهه عن الخطأ ويجعل من أرائه أحكاما ومن أحكامه شريعة ومن شريعته عقيدة يؤمن بها الأتباع فوق أي عقيدة أخري.

إن الإجابة علي هذه الأسئلة سيتوقف علي التوجه الشخصي لمتلقي السؤال في ظل الفرقة التي أصبحت عليها الأمة بفعل أناس إتخذوا من الدين الذي علموه ومن العلم الذي حصلوه ومن التحصيل الذي أظهره إمكانياتهم الشخصية وقدراتهم الدعوية سبيلا لكي ينشروا فكرهم ويعلوا من شأن عقيدتهم ليجعلوها هي فقط صحيح الدين الذي

يرونه ويجمعون الأتباع من حولهم في قطيع مغيب لا يري إلا مايريهم أياه كبيرهم ومرشدهم فأحدثوا في الدين فرقة وفي الأمة تشتت وفي العقيدة تحزب ليصلوا بنا اليوم إلى ما أخبرنا به رسول الله صلي الله عليه وسلم فيما رواه ابن الجوزي في كتاب (تلبيس إبليس) بسنده إلى أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((تفرقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، أو اثنتين وسبعين فرقة، والنصارى مثل ذلك، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة))، قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

في عام 1906م في منطقة المحمودية ولد حسن البنا لأسرة مصرية بسيطة حيث كان الأب أحمد عبد الرحمن البنا يعمل مأذونا وساعاتي كما كان محدثاً عصرياً وله كتاب "الفتح الرباني في ترتيب مسند الامام أحمد الشيباني". ويبدو أن مقومات الزعامة والقيادة كانت متوفرة لدي حسن البنا منذ صغره، حيث كان متميزًا بين زملائه ومرشحًا دائما لمناصب القيادة بينهم، حتى أنه عندما تألفت "جمعية الأخلاق الأدبية" في مدرسة الرشاد الإعدادية التي كان يدرس بها، وقع اختيارزملائه عليه ليكون رئيسًا لهذه الجمعية.

غير أن تلك الجمعية المدرسية لم ترض فضول هذا الناشئ وزملائه المتحمسين فأنشأوا جمعية أخرى خارج نطاق مدرستهم سموها "جمعية منع المحرمات"، وكان نشاطها مستمدًا من اسمها عاملاً على تحقيقه بكل الوسائل، وطريقتهم في ذلك هي إرسال الخطابات لكل من تصلهم أخباره بأنهم يرتكبون الآثام أو لا يحسنون أداء العبادات.

ثم تطورت الفكرة في رأسه بعد أن التحق بمدرسة المعلمين بدمنهور فأنشأ "الجمعية الحصافية الخيرية"، التي زاولت عملها في نشر الدعوة إلى الأخلاق الفاضلة ومقاومة المنكرات والمحرمات المنتشرة وهو الهدف الديني الأساسي لهذه الجمعية كما زاولت أيضا نشاطها المجتمعي السياسي الذي تم تغليفه بالطابع الدعوي من مقاومة الإرساليات التبشيرية التي اتخذت من مصر موطنًا تبشر فيه بالمسيحية تحت ستار التطبيب، وتعليم التطريز، و إيواء الطلبة وهو ما إعتبرته الجمعية حربا علي المسلمين في بلد إسلامي.

بعد انتهائه من الدراسة في مدرسة المعلمين انتقل إلى القاهرة و انتسب إلى مدرسة دار العلوم العليا حيث اشترك في جمعية مكارم الأخلاق الإسلامية، وكانت الجمعية الوحيدة الموجودة بالقاهرة في ذلك الوقت، وكان يواظب على حضور محاضراتها، كما أنه لم يترك المواعظ الدينية التي كان يلقيها في المساجد حينذاك نخبة من العلماء العاملين ومن

الأساتذة الذين أخذ عنهم البنا وكان على علاقة طيبة بهم بدءاً من والده الشيخ أحمد البنا، والشيخ محمد زهران، والشيخ أبو شوشة، والشيخ موسى أبو قمر، والشيخ أحمد بدير، والشيخ محمد عبدالمطلب. و لكن يبقي الشيخ عبد الوهاب الحصافي شيخ الطريقة الصوفية الحصافية هو من كان له بالغ الآثر في تكوين شخصية حسن البنا الداعية الطامح إلى تكوين دولة الخلافة الإسلامية.

ويبدو أن فكرة الإخوان قد تبلورت في رأسه أول ما تبلورت وهو طالب بدار العلوم، فقد كتب موضوعًا إنشائيًا كان عنوانه "ما هي آمالك في الحياة بعد أن تتخرج؟" فقال فيه: ((إن أعظم آمالى بعد إتمام حياتي الدراسية يتلخص في أمل خاص بإسعاد أسرتي وقرابتي مااستطعت إلى ذلك سبيلاً و أخر عام في أن أكون مرشدًا معلمًا أقضي سحابة النهار في تعليم الأبناء و أقضي ليلي في تعليم الآباء أهداف دينهم ومنابع سعادتهم تارة بالخطابة والمحاورة وأخرى بالتأليف والكتابة و أن أقضي وقتي دون ذلك بالتجول والسياحة)).

حصل البنا على دبلوم دار العلوم سنة 1927 وكان ترتيبه الأول على دفعته، وعين معلمًا بمدرسة الإسماعيلية الابتدائية الأميرية. وفي مارس من عام 1928م تعاهد مع ستة من الشباب علي تأسيس جماعة الإخوان المسلمين في الإسماعيلية وهم حافظ عبد الحميد، أحمد الحصري، فؤاد إبراهيم، عبد الرحمن حسب الله، إسماعيل عز، وزكي المغربي.

وتجدر الإشارة إلى أن الأحزاب المصرية قاومت فكر حسن البنا وحالت دون توسع رقعة الإخوان المسلمين السياسية ليس عن خوف من منافستها بقدر ما هو خوف من فرض الدين علي الحياة السياسية وهو ماكان يتنافي مع العقيدة السياسية للمجتمع المصري وقتها. ومن بين تلك الأحزاب حزب الوفد - أكثر الأحزاب انتشارًا وشعبية في ذلك الوقت – و أيضا الحزب السعدي – حزب النخبة في ذلك الوقت - حيث خاض البنا الإنتخابات أكثر من مرة بدائرة الدرب الأحمر بالقاهرة، وكان بها المركز العام لجماعته وكان يقطن بها بحي المغربلين، لكنه لم يفز في أي مرة في أي دائرة لا هو ولا زملاؤه بما فيهم أحمد السكري سكرتير الجماعة وكان مرشحًا بالمحمودية مقر ولادته.

عندما خرج حسن البنا بفكرة الإخوان المسلمين، لم يذهب بعيدا عن كل من سبقوه من أصحاب الأفكار والمذاهب والعقائد الإنسانية في العموم وأصحاب الفرق السنية التي

تزامنت مع دعوته سواء في الهند أو في باكستان أو في الدول العربية المختلفة وخاصة الحركة الوهابية في السعودية. لم يأتي البنا بجديد في أصل الفكرة عندما بدأ في المجاهرة بدعوته لتأسيس جماعة الإخوان المسلمين كجماعة تصف نفسها بإنها جماعة إصلاحية شاملة تهدف إلى الإصلاح السياسي والإجتماعي والإقتصادي من منظور إسلامي شامل في مصر علي الخصوص و في الدول العربية والإسلامية التي يتواجد فيها الاخوان المسلمون أو حتى في باقي الدول التي يجب نشر فكر الجماعة بها.

فقد بدأ البنا دعوته من خلال إعادة رسم مفهومه للإسلام بالشكل الذي يمكنه من جمع الأتباع حوله وذلك عندما قام بتعريف الإسلام علي أنه ((عقيدة وعبادة، ووطن وجنسية، وروحانية وعمل، ومصحف وسيف)) .

ومن هذا المنطلق قام بتعريف فكرة الإخوان المسلمين علي أنها قد شملت كل نواحي الإصلاح في الأمة، فهي((دعوة سلفية، وطريقة سنية، وحقيقة صوفية، وهيئة سياسية، وجماعة رياضية، ورابطة علمية ثقافية، وشراكة اقتصادية، وفكرة اجتماعية)) وذلك كله كان قائماً علي الفهم العام الشامل للإسلام الذي قام هو بتعريفه وتحديده قبل تعريف فكر جماعته وذلك حتى تصبح دعوته هي مرآة للإسلام الصحيح الذي لا يصح دونه فكر أخر...وهذا هو ما نعتقد أنه منتهي التطرف في الفكر وبالتبعية فإنه لن ينتج عنه إلا منتهي التطرف في التطبيق.

ولهذا وجدنا الجماعة وهي تسعي في سبيل الإصلاح الذي تنشده إلى إعادة تأهيل الفرد المسلم بناء علي صحيح الدين الذي إرتضته الجماعة وقامت بتوضيحه وتعريفه لكل من إعتنق فكرها، ومن ثم تكوين الأسرة المسلمة التي تحوي أخ من الأخوان وأخت من الأخوات لتصبح هذه الأسرة هي نواة المجتمع المسلم القائم علي الجمع من الإخوان والأخوات الذين يعتنقون فكر وعقيدة جماعة الإخوان.

ومن هذا المجتمع الإخواني يتم التوجه لتشكيل الحكومة الإسلامية التي تحكم بالإسلام لتقوم الدولة الإسلامية في النطاق الجغرافي المحدد بكيان هذه الجماعة وصولا إلى أستاذية العالم وفقاً للأسس الحضارية للإسلام التي تم وضعها وفق منظور الجماعة ومرشدها وعلمائها حيث إعتنقت الجماعة مبدأ أممي يري أنه لا وطن في الدين و أنه أينما

كان هناك أخوة من الجماعة كان هذا هو الوطن الذي تستوطنه الجماعة لتقيم فيه فكرها وتنشأ به دولتها لتسود به الخلافة الإسلامية.

لقد كانت جماعة الإخوان هي الرحم الذي حوي معظم حركات الإسلام السياسي في المنطقة منذ إنطلاقها وأن كنا نعتقد أن فكر أبو الأعلي المودودي كان هو المحرك الأساسي لعقيدة الجهاد ضد المجتمع الذي تم تكفيره بواسطة هذه الجماعات حتى يتم إستحلال هدمه، ومن ثم يعاد بناؤوه وفق معاييرهم ومخططاتهم كما سنري لاحقا.

الوطن والمواطنة

الوطن...ماهو الوطن ؟

هل سألنا أنفسنا يوما عن تعريف الوطن وعن تعريف الوطن لنا كمواطنين ؟

هل حاولنا مرة أن نتحاور مع أنفسنا لمعرفة ماهي كينونة الوطن داخل أنفسنا... داخل ضمائرنا...داخل عقولنا...بل داخل أغوار أرواحنا ؟

كلنا نقول هذه الكلمة مرارا وتكرارا كل يوم بشكل أو بآخر، كلنا نتحدث عن الوطن والوطنية والمواطنة... ولكن من منا وقف يوما ليسأل نفسه عن ماهية الوطن ومادلالات وجوده وماهي علامات إرتباطنا به ؟؟

لقد كرم الخالق عزوجل بني أدم بنعمة العقل ليفكروا ويتدبروا ويتعقلوا حتى يستطيعوا أن يدركوا كينونة الأشياء من حولهم فلايصبحون كالأنعام تحيا أينما وجدت بدون أن تجهد أنفسها بفهم ماتعيش به أوله أو عليه، لإنها في الأول والأخير... فقط أنعام.

لهذا وجب علينا أن نحاول تدبر حياتنا وكينونتها لنستطيع أن نفهم لماذا نرتبط بالأشياء وكيف يمكن أن تحركنا أشياء من جماد، وكيانات، وأشخاص بل وذكريات لتجعل منا المحارب من أجل وطنه والمقاتل دفاعا عن قضيته والمجاهد في سبيل عقيدته إن نحن فكرنا...إن نحن فقط حاولنا أن نفهم.

في عالم الحيوان يتبع الحيوان فطرته بدون أن يعرف أصل هذه الفطرة أو كيفية نشأتها داخله، فنجد الطيور وهي تهاجر آلاف الأميال لتعود إلى مسقط رأسها الذي لم تطأه من قبل لمجرد أن هذا هو ميعاد هجرتها التي يسقط خلالها الكثير من أفراد السرب قبل وصوله، ولكن تمضي الحياة حسب مقدراتها بدون تفكير وبدون رغبة في التغيير لإنها هكذا جبلت وهكذا عاشت وهكذا ستموت إن قدر عليها الموت.

نفس الأمر نجده في قطيع الخرفان الذي يعيش حياته يقتات من خير الأرض الذي تجود به الطبيعة في مراعي خضراء شاسعة واسعة تشعر الناظر إليها أن الخالق العظيم قد خلقها خصيصا لهذه المخلوقات البسيطة الهادئة الوديعة. بل أن الناظر لقطيع الخرفان وهو يرتع في هذه المراعي المترامية الأطراف سينتابه الشعور أن هذه الخراف هي المالك القانوني لهذه المراعي التي لاتعلم عنها شئ إلا أنها وجدتها كذلك لتأكل منها وتعيش علي خيراتها وتنعم بما تجود به الطبيعة عليها حتى يحين أجلها فتسير إليه بدون مقاومة لأنها هكذا جبلت وهكذا تمضي بها حياتها... قطيع...يعيش...يأكل...يتبع... يموت !!

أما في عالم الإنسان فقد كرمه الله بنعمة العقل وأوجب عليه أن يستعمل هذه النعمة ليتفكر في حكمة الخلق وليجد لنفسه الطريق الذي سيلاقي به قدره وليتفهم في كينونة الأشياء من حوله لأنه سيكون مسئولا فقط عما وصله من علم وما تيقن في قلبه من أيمان . فمن عظمة الخالق سبحانه أنه سيحاسبنا علي قدر علمنا...علي قدر فهمنا...علي قدر تصديقنا...أو بالأحري علي قدر قناعتنا نحن وليس علي قدر من قام بإقناعنا مهما علا مقامه وفاض علمه وغلبت حكمته. من عظمة الخالق أنه سيحاسب كل منا وفق قدراته علي الإستيعاب وحسب ماسيستقر في قلبه من الإيمان حتى ولو كان يأخذ علمه عن شيخ الإسلام وإمام الأمة... وهذا هو العدل الإلهي.

لهذا لم يخلق الله إبن أدم كالخرفان تعيش في قطيع... وتسير في قطيع...وتموت في قطيع...بل خلقه حرا مسئولا يعقل قبل أن يقرر ويفكر ويتدبر فيما يلقي أليه قبل أن يعتنق فكراً ما أو عقيدة ما.

خلق الله سبحانه إبن أدم مسئولا عن نفسه في المقام الأول قبل أن يكون مسئولا عمن حوله، فإن هو أحسن عمله وأصلح من نفسه وقوم عقيدته، صلح المجتمع وقوت أواصره، وإن هو قبل أن يتنازل عن عقله ليضعه في يد إنسان أخر يقلبه في يده كما يقلب حبات المسبحة فقد قبل إبن أدم أن يتحول المجتمع إلى قطيع يسير وراء إنسان يخطئ ويصيب فلايريهم إلا مايري ولايسمعهم إلا مايسمع تماما كما فعل قوم فرعون عندما قبلوا أن تعمي أبصارهم عن الآيات التي أرسلها الله سبحانه علي يد رسوله فجعلوا قلوبهم جميعا علي قلب فرعون ليقدمهم يوم القيامه في سقر ولكن هذا أبدا لن يعفيهم من مسائلة العزيز القدير يوم موقف عظيم.

نعم سنقف جميعا يوم القيامة أمام الخالق العظيم ونحن مشغولون بهمومنا مدافعين عن أعمالنا، ولن يدافع عنا يومئذ ناصح نصحنا ولا مرشد أرشدنا ولا شيخ أفتي لنا بحلال أو بحرام ولا صديق زين لنا المعاصي وجرنا إليها لإن كل منهم سيكون مهموما بنفسه وبأوزاره بل وسيتبرأ كل منهم منا إذا ماطلبناهم ليشهدوا لنا لإن كل منهم سيكون مهموما بالبحث عن من يبرأه من ذنوبه.

يقول المولي عزوجل في إثبات ماتقدم ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ البقرة 166

إذاً، فإن كان كلا منا مسئولا عن أفعاله وعن أفكاره بل وعن نو اياه، لأن الله قد يقبل الناقص من العمل ولكنه لايقبل أبدا إلا تمام النية. لهذا، فأنه من البديهي أن يحاول كل منا التدبر في مسببات حياته ومعاني كلماته وكينونة معطياته وبرهان نياته حتى يستطيع أن يكون مسئولا عن جميع أفعاله يوم الموقف العظيم وأن يتحمل تبعة هذه المسئولية التي تبرأت منها الجبال لا لعظمتها ولكن لتبعاتها التي تشيب لها الولدان.

إذا... دعونا نسأل مجددا... ماهو الوطن؟

عندما قال الله سبحانه وتعالى ﴿ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ فإنه قد حدد لبني أدم معالم الوطن الذي سيحيون فيه ويموتون من أجله قبل أن يعودوا مرة أخري إلى دار الخلد التي طردوا منها يوما. لقد أوضح العزيز الجليل صورة الوطن في أبسط صورة... مستقر...ومتاع... !!

فالوطن هو المستقر الذي يسكن فيه الأنسان ويشعر فيه بالإستقرار، وعندها يبدأ في الشعوربالأمان. الوطن هو الكيان الذي يرجو فيه كل منا سبل الحياة وأسباب المعيشة حتى وهو بعيد عنه. إنه هذا الكيان الذي تنصهر فيه كل المعاني والأحاسيس والأفكار لتنتج عنها شخصيتنا وتتكون بها ذاكرتنا وتتشكل به حياتنا فتأخذنا إليه الحنين إذا مافارقناه بالرغم من المأسي التي قد نكون عشناها فيه، ولكنها تبقي لدينا فقط كأطياف الذكريات بحلوها ومرها.

فقط الوطن هو الذي يتحول فيه شعورنا بالأسي عن ما يحدث لنا بسببه... إلى الشعور بالأسي عليه...فقط الوطن هو الذي تتحول فيه جراحنا ومعاناتنا معه إلى آلام موجعة

بسبب حزننا عليه وعلي ما أصابه قبل حزننا علي أنفسنا وعلي ما أصابنا... هكذا هو الوطن عند كل بني أدم كما الأم... مهما كان من حولنا لايرون فيها جمالا... إلا أننا لانري فيها آبدا... قبحا.

يقول الأصمعي: ((سمعت أعر ابياً يقول: إذا أردت أن تعرف الرجل، فانظر كيف تحننه إلى أوطانه وتشوقه إلى إخو انه، وبكاؤه على ما مضى من زمانه)) . وكأنه يصف هذه العاطفة بأنها: ارتباط بالوطن الذي فيه احتياجات روحية وعاطفية من تعلق الإنسان بأرضه التي عاش عليها وترعرع بين جنبيها، وشرب من مائها، وأكل من خيراتها . وارتباط وثيق بمن حوله ممن عاش بينهم، فتعلق قلبه بحبهم، وصدق أخوتهم وخالطهم حتى صار معهم لحمة واحدة، وجسداً متكاملاً !

فالأصل في الإنسان أن يحب وطنه، ويتشبث بالعيش فيه، ولا يفارقه رغبة منه، حيث أن حب الوطن غريزة متأصلة في النفوس تجعل الإنسان يستريح إلى البقاء فيه ويحن إليه إذا غاب ويدافع عنه إذا هوجم أو أسئ إليه، ويغضب له إذا انتقص. والوطنية بهذا التحديد الطبيعي شيء غير مستغرب.. فهي السعادة بالعيش في الوطن وحصول الكآبة لتركه، كل ذلك مشاعر إنسانية لا غبار عليها، ومهما اضطر الإنسان إلى ترك وطنه فإن حنين الرجوع إليه يبقى معلقاً في ذاكرته لا يفارقه ولذا يقول الأصمعي: ((ثلاث خصال في الحنين، الإبل تحن إلى حظائرها، وإن كان عهدها بها بعيداً، والطير تحن إلى أوكارها، وإن كان موضعها مجدباً، والإنسان يحن إلى وطنه، وإن كان غيره أكثر نفعاً)) .

وقد أوضح الأصمعي في مقولته البسيطة المختصرة أن الوطن ليس حكرا فقط علي بني أدم، فالوطن فكر مكفول للإنسان والحيوان والطيور... بل أن الوطن حق مكفول للنبات وللجماد أيضا، أوليست الجبال ذات الأوتاد لها أوطانا تسكنها وتتمسك بها وتدس فيه أوتادها، ومهما حاولنا ومهما أوتينا من أمكانيات علمية وتنفيذية، لن نتمكن من نقل جبل من وطنه الذي وجد فيه وثبت نفسه فيه لأنه هكذا خلق وهكذا وجد وهكذا سيبقي.

والنباتات لاتعيش إلا داخل أوطانها، داخل تربتها، داخل مناخها التي تزهر وتخرج أفضل ثمارها وهي وسط هذا المناخ الذي فطرها العزيز القدير عليه. وكلنا يعلم أن كل ماتوصل إليه العلم الحديث من إختراعات تجعل من الممكن زراعة النباتات والخضروات والفواكه في تربة بديلة وأجواء إصطناعية إلا أن الفارق بين النبات الذي ينمو في وطنه

الأساسي والنبات الذي ينمو في صوبات إصطناعية هو فارق ملحوظ في الطعم وفي الشكل وفي اللون، وكأن النبات يعلمنا أنه قد تم إستقطاعه من وطنه الأساسي تماما كالأنسان الذي يهاجر بعيدا عن وطنه فنجده في عينيه حزن وفي قلبه هم مهما علا مستوي معيشته ومهما وجد حوله من المتع التي لم يكن يجدها في وطنه الأم، إلا أنه يبقي دائما يأخذه الحنين إلى وطنه الذي هو له بمثابة المستقر الذي يشعر فيه بالأمان حتى ولو لم يجد فيه المتع التي يجدها في بلد المهجر.

إن الوطن هو حالة تنتابنا منذ ولادتنا نشعر فيها بالإنتماء...نشعر فيها بالأمان... نشعر فيها بالعطاء الغير مشروط... إن الوطن يشعرنا... بطعم الحياة

والمستغرب أن فكر المستقر لايتوقف فقط عند الحياة , لأن مستقر الحياة يكون فوق الأرض،ولكن هناك أيضا مستقر أخر... هو مستقر الممات وهو الذي يكون في باطن الأرض وهو مايعطي للوطن معني أعمق وأشمل.

فالغريب في الأمر أن معني الوطن يتملك أبن أدم حتى في الممات حيث نجد كل أبن أدم لا ينسي أبدا أثناء حياته وسعيه وتمتعه بملذات الدنيا أن يجد لنفسه مستقرا في أرض وطنه عند مماته وكأن لسان حاله يقول أن هذا هو وطني الذي بحبه حييت وفي باطن أرضه سوف أموت ولن يضم رفاتي إلا تر ابه.

إن عمق معني الوطن لدي الإنسان يتجلي عندما نجد كل منا يبحث لنفسه عن مدفن ليواري به جثمانه يوم مماته وكأنه يحاول التأكيد علي أنه جاء من هذه الأرض و أنه حتى وإن كان قد فارقها في حياته أثناء بحثه عن لقمة العيش ولكن ستظل هذه الأرض هي الوطن الذي يريد أن ينهي فيه حياته لإنها هي الوطن الذي يشعر معه بالإستقرار ولايجد لذة العيش إلا بداخله. فإن لم يستطيع أن ينعم بوطنه في حياته...فليس أقل أن ينعم بدفئ حضن تراب وطنه في مماته

لهذا كان الوطن إحساسا قبل أن يكون كيانا، لهذا كان الوطن شعورا ينمو داخلنا منذ لحظة ولادتنا ونحن نكبر يوما بعد يوم بهذا الإحساس، ونحن نسير كل يوم في نفس الشوارع ونري بائع الجر ائد هنا وعامل النظافة هناك وعسكري المرور وهو يحاول أن ينظم المرور ونحن نحاول أن نهرب منه أو نتحايل عليه إن نحن خالفنا النظام.

إنه هذه الذكريات التي تتكون بداخلنا يوما بعد يوم عن جلساتنا مع أصدقاء الطفولة علي شاطئ البحر لنناقش كيف تطير الطائرة الورق وكأننا خبراء في وكالة ناسا، أو كيف سنجد طريقة جديدة أمنه لنتهرب غدا من تقديم الفروض المدرسية فتخرج منا إبتساماتنا بل وضحكاتنا عندما نتذكر كيف عوقبنا علي ذلك.

إن الوطن هو هذه المجموعة من الأحاسيس المتناقضة التي تتولد جميعها في نفس الوقت ونحن نتذكر المدرس الذي كان يضربنا لأننا لم نؤدي الواجب المطلوب ولكننا لازلنا نمتن له لأن شدته هي التي أوصلتنا إلى ما نحن فيه الآن. عندما يتملكنا الأحساس ونقيضه في نفس الوقت، وكلاهما يثبت صحة الآخر... فهذا هو الوطن.

إنه هذه الأحاسيس المتناقضة التي تنتابنا إن ضاعت في يوم حقوقنا من ظلم أصابنا بيد أبناء وطننا فلا نشعر وقتها إلا بالأسي علي وطننا قبل أنفسنا إن هو قبل أن نهان ونحن فيه. عندما نشعر بالأسي علي ضعف وطن يهان فيه أبناؤه بيد أبناؤه، فإن هذا هو التعريف الأمثل لمعني كلمة وطن الذي يكثر عطاؤه في الصغر، فتتكون به ما يشكل ذاكرتنا ثم نجده بعد ذلك يأخذ من إحساسنا في الكبر مايجعلنا نتحرك دائما لنصرته فنبكي لألامه قبل آلامنا ونتقبل تعاستنا كثمن بسيط جدا ومقبول منا جميعا من أجل سعادة ورفعة هذا الوطن.

ولايختلف إحساس الوطن أبدا بإختلاف الأيدولوجيات ولا بإختلاف العقائد ولا بإختلاف الجنس، فالوطن هو فكره زرعت في داخلنا في صغرنا لنكبر بها ونحيا بها ونستميت في الدفاع عنها في حياتنا مهما كانت عقيدتنا ومهما كانت أفكارنا... فالمسلم كما المسيحي كما البوذي...كلهم تربوا علي الإحساس بمعني الوطن لإن فكرة الوطن هي عطية من الله سبحانه وتعالى أعطاها لبني أدم أجمعين المؤمن منهم والكافر عندما أمر بأن يهبطوا إلى الأرض ليجد كل منهم مستقره ومتاعه في وطنه.

<u>فالوطن لايعترف أبدا بإختلاف العقيدة... الوطن لايعترف أبدا بإختلاف اللون... الوطن لايعترف أبدا بإختلاف الجنس</u>... الوطن يجمعنا كلنا ويصهرنا في بوتقته ويجعل منا جميعا أبناء لهذا الوطن الذي غمرنا بعطاؤه وإن قل ليشكل وجداننا الذي نحيا به اليوم مهما بعدنا عنه ومهما أخذتنا همومنا ومشاكلنا لتبعدنا للحظات عن دائرة الإحساس

بالوطن، لكنه يبقي دائما بداخلنا يوجهنا إلى أصولنا...إلى هويتنا... إلى ذكرياتنا ليبقي الوطن داخلنا كالبوصلة التي تتجه بنا دائما إلى حيث نستطيع أن نحدد إتجاهنا.

ولكن هل هذا هو أيضا تعريف الوطن عند هذه الجماعات والفرق التي جعلت من عقيدتها هي فقط صحيح الدين ومن فكر إمامها هو فقط المرجعية الفكرية ومن غلبة جماعتها هو فقط الهدف حتى جعلت من كيان جماعتها هو حدود وطنها الذي يتجاوز الحدود الجغرافية لأي وطن؟

إن الوطن الذي نعرفه لا يعترف بإختلاف العقيدة، ولكنه عند هذه الجماعات فإن وطنهم يقوم علي عقيدة واحدة فقط هي عقيدة هذه الجماعة ليصبح كل من يخالف هذه العقيدة ليس بمواطنا ولا ينتمي لوطن الجماعة الذي وضعت له حدود لاجغرافية تتخطي كل الحدود الجغرافية المتعارف عليها. لقد قامت كل الدساتير العالمية علي أساس فكرة المواطنة وحق المواطنة وهو ما نجده جليا عندما تم الإتفاق علي تعريف المواطنة علي أنها: ((العضوية الكاملة والمتساوية في المجتمع بما يترتب عليها من حقوق وواجبات، وهو ما يعني أن كافة أبناء الشعب الذين يعيشون فوق تراب الوطن سواسية بدون أدنى تمييز قائم على أي معايير تحكمية مثل الدين أو الجنس أو اللون أو المستوى الاقتصادي أو الانتماء السياسي والموقف الفكري)). وهو الأمر الذي يتنافي جملة وتفصيلا مع فكر أي جماعة أعطت لنفسها طابعا دينيا تم قولبته في إطار مذهب ديني يعطي الأفضلية البحته لأتباعه بل ويجعل ممن يخالفه عدوا له وقد يصل به الأمر إلى تكفيره عند بعض هذه الجماعات.

إن فكر هذه الجماعات هو فكر قائم في الأساس علي التفريق بين أبناء الوطن الواحد ليجعل من أتباع هذه الجماعة حماة الدين والقائمين علي نشر عقيدة هذه الجماعة بما يعطيهم الأفضلية المجتمعية حتى ولو كانوا أقلية. أما لو شكلوا الأغلبية، فإن أغلبيتهم هذه ستذهب بالمجتمع إلى أقصي درجات التطرف السياسي حيث ستتيح لهم هذه الأغلبية فرض عقيدتهم علي أطياف المجتمع التي من المفترض نظريا أنها تتمتع بنفس حقوق المواطنة المتاحة لهذه الأغلبية، إلا أن هذه الحقوق مشروطة بإنغماسهم في عقيدة الأغلبية أو علي أقل تقدير قبولها وعدم إبداء أي عقيدة مناهضة لها وهو ماحدث عندما وصل هتلر إلى سدة الحكم في ألمانيا ليفرض فكره الدكتاتوري الإستبدادي علي

جموع الشعب فيصبح من صدق في فكره من أصحاب الحظوة ويصبح من يناهضه من الأعداء المستحقين للقتل قبل أعداء الأمة الخارجيين.

لهذا وجدنا حسن البنا عندما بدأ في الدعوة إلى جماعة الإخوان المسلمين فإنه كان يحاول أن يروج للفكرة التي أصبحت هي محورهذه الجماعة، الإنتماء يكون للجماعة أولا لإن الدين لا وطن له. لقد علم حسن البنا منذ اليوم الأول لتأسيس جماعته أن الوطن هو عدو الجماعة وأن بقاء الجماعة مرهون بالخروج من الحدود الجغر افية للوطن إلى اللا حدود المرسومة لجماعته فكان أن ضمن بهذا أن يكون الولاء أولا وأخيرا للجماعة فقط قبل الوطن.

لقد أكد حسن البنا في أكثرمن موضع في كتاباته ورسائله للأمة وللشباب من جماعته على ضرورة تأسيس الجامعة الإسلامية لكي تصبح هي السياج الكامل للوطن الإسلامي العام حيث جعل فكرة وحدة الأمة الإسلامية والعمل علي إعادتها في رأس مناهجه وذلك من خلال تجاوز فكر الوطن المحدد جغر افياً إلى فكر الأممية الإسلامية التي لا يفصل بينها حدود جغر افية ولا إختلافات عرقية ولا تعددية مذهبية.

وقد عمد البنا إلى وضع آليات لتحقيق هدفه الأسمي المتمثل في إقامة دولة الخلافة التي يجب أن تضم كافة الدول العربية والإسلامية وذلك من خلال منهج أممي يستوعب كافة الإختلافات العرقية والمذهبية والطائفية طالما قبلت جميعا أن تنصهر داخل بوتقة الإخوان لتصبح هي الفكروالعقيدة والمذهب... بل وتصبح هي الوطن إن أمكن إستعمال ذلك المسمي. ومن هذا المنطلق قام البنا بتحديد خطوات محددة يجب العمل بها تباعا من أجل تنفيذ المخطط العام من إعادة وحدة الأمة حسب ما ذكره في إحدي رسائله:

العمل على الوحدة الثقافية والفكرية والاقتصادية بين الشعوب الإسلامية كلها.

يلي ذلك تكوين الأحلاف والمعاهدات وعقد المجامع والمؤتمرات بين هذه البلاد.

يلي ذلك تكوين عصبة الأمم الإسلامية.

حتى إذا استوثق ذلك للمسلمين كان علي المجتمع المسلم الإجماع على "الإمام المرشد" الذي هوواسطة العقد، ومجمع الشمل، ومهوى الأفئدة، وظل الله في الأرض.

ولاتتم الدعوة إلاعند التحول من الأممية إلى العالمية وهوما أكده البناعندما نادي بالوحدة العالمية؛ لأن هذا هو مرمى الإسلام وهدفه، وتفسيره لقول الله تبارك وتعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾

إن معظم الدعوات الطائفية والمذهبية تتفق في مجموعها علي فكرة واحدة مهما إختلفت مرجعيتها أو عقيدتها حيث تري أن الولاء للجماعة يجب أن يسود حتى فوق الولاء للوطن لأنهم جميعا يرون أن صالح الوطن لايكون إلا بإعلاء جماعتهم وفكرها وعقيدتها وكأنهم قد أصبحوا هم الولاة علي الدين وحماة العقيدة أوكأن الدين لن يصح إلا إن إتبع الناس مذهبهم وهجروا مادون ذلك.

إن المستغرب في هذا الأمر هو أن نجد جميع الفرق والطوائف وهي التي إختلفت في لب العقيدة أحيانا وفي الفروع عادة وفي بعض من الأصول أوقات أخري، ولكنها قد إجتمعت علي شئ واحد فقط وكأنه هو الأساس الذي تتولد منه هذه الفرق ألا وهو كون كل فرقة تري نفسها الآحق بالإتباع وأن صحيحها فقط هو الصحيح بل أن الوطن بكامله يجب أن يكون علي عقيدتها وإلا فليذهب الوطن إلى حيث الفرقة وتقطيع الأوصال إن هو لم يقبل صاغرا أن يدين بدينهم... وكأنهم قد أسقطوا من كتاب العزيز الحكيم قوله: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ، لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ، وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ، وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ، لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾.

إنني أتعجب من هذه الجماعات التي تطالب المجتمع بقبول وجودهم كبعض من أبناؤه يتساوون مع غيرهم في الحقوق تحت غطاء الديمقراطية والشرعية الشعبية حتى إذا ما تم قبولهم ضمن المجتمع نجدهم وقد كَفّروا من حولهم وجعلوا من عقيدتهم فقط هي العقيدة ومن جماعتهم فقط هي الجماعة ليصبح كل من يخالفهم خارج الجماعة ولاتنطبق عليه مبادئ الديمقراطية التي كانوا يطالبون بها بالأمس , سبيلا لقبولهم ضمن فئات المجتمع.

ولكن الأعجب من ذلك أن كل هذه الفرق مع إختلاف أيدولوجيتها الفكرية والعقائدية قد إتفقت علي هذا الإتجاه الأنوي الشديد التطرف الذي ينطوي علي كثير من النفاق المجتمعي الذي يسمح لهم بنكران ما كانوا يطالبون به يوم كانوا يطلبون قبول جماعتهم... فكلهم يسلكون نفس الطريق، كلهم يفعلون نفس هذا المنكر، كلهم ينقضون عهودهم

بمجرد أن يتم قبولهم وقبول جماعتهم وكأنهم جميعا علي عهد أن يسلكوا هذا الطريق وأن لا يتورعوا في إيجاد المبررات التي تعطيهم حق نقض العهود ونكران ما تم الإتفاق عليه من قبولهم بناء علي الأسس الديمقراطية التي تعطي الجميع حق الإعتقاد فيما يشاؤون، فإذا بهم بعد قبولهم ضمن طوائف المجتمع يرفضون هذا الحق لغيرهم ليصبح كل من يخالفهم الرأي خارج عن الجماعة عدوا للدين داعيا لليبرالية العقائدية علماني النزعة غربي التوجه مفتقدا لمبادئ الوطنية التي تم تلخيصها في مبادئ جماعتهم فقط.

عندما بدأ الخوارج دعوتهم أيام عثمان رضي الله عنه وأرضاه ومن بعده عليا كرم الله وجهه، لم يروا إلا دعوتهم ولم يسمعوا إلا أصواتهم بالرغم من أن الأصوات التي كانت تعلو من حولهم كانت أصوات أصحاب رسول الله صلي الله عليه وسلم الذين جاهدوا معه و أفتدوه بأرواحهم وأموالهم ومنهم من بشرهم الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم بالجنة ومنهم من بشرهم الله سبحانه وتعالى برضاه عنهم يوم الفرقان. إلا أن كل هؤلاء لم يقنعوا هؤلاء الخوارج لكي يسمعوا لهم حتى قتلوا عثمانا ومن بعده عليا.

عندما بدأ الخوارج دعوتهم أسقطوا حق المواطنة عن كل من دونهم، فلم يراعوا حق وطن ولا مواطنا لإنهم لم يروا إلا دعوتهم وحقهم في الدفاع عن متطلباتهم بل والخروج علي الحاكم الذي إرتضاه الجمع من المسلمين. عندما بدأ الخوارج دعوتهم تصوروا أنهم هم فقط المواطنين وأن من عاداهم فقد خرج علي ملتهم و أنه بعدائه لهم فقد سقط عنه حق المواطنه فلا يستطيع الدفاع عن ذي النورين صاحب رسول الله صلي الله عليه وسلم وزوج إبنتيه لإنهم رأوا أنه علي خطأ وأنهم هم فقط علي الصواب فجعلوا الوطن كله ملك يمينهم يتصرفون فيه كما يحلو لهم ليخرجوا علي الحاكم ويقتلوه ويدعون إلى حاكم جديد ويبايعوه ثم يخرجون عليه ويقتلوه ثم ينصرون أبناؤوه من بعده حتى يقتلوا.

وعندما بدأت الحركة الشيعية في الدخول في طور التكوين، شعر من تشيعوا لآل البيت أنهم هم أصحاب الحق وأن الخلافة هي حق لهم تم إنتزاعه بيد بني أميه وأنهم قد فقدوا الوطن عندما أصبحوا مواطنين من الدرجة الدنيا لا يتمتعون بالحقوق التي يتمتع بها أهل السنة والجماعة، فعمدوا إلى أن يكون لهم وطنهم الخاص بهم وعقيدتهم التي يعتنقونها ويقدمونها علي أي عقيدة أخري ويدينون لها ولإمامهم بالولاء والسمع والطاعة حتى وإن أبدوا غير ذلك علي سبيل التقية حتى يستطيعون العيش في حدود دولة الخلافة دون أن يضاروا بعقيدتهم.

وعندما تفرقت الشيعة علي فرق وطوائف دينية بعد ذلك لم يختلف منهجها عن ماذكرناه في كونها قد جعلت من عقيدتها وطنا يضمن لها حقوقها ويعطيها أفضلية المواطنة ويجرد كل من يخالف عقيدتهم من حق المواطنة فيستباح دمه إن هو أعلن العداء أو يستباح دينه إن هو أعلن رفضهم.

لقد عمدت فرق الشيعة في وقتها علي إضعاف الأمة وتفريقها حتى يكون لها السيادة وكأنها لا تدين بالولاء للوطن ولا للأمة لإنها صدقت أن عقيدتها فقط هي الصحيحة وغيرها باطل. رأينا ذلك عندما خرجت الرافضة علي الأمة ورأينا ذلك عندما خرجت المعتزلة علي الأمة كما ورأيناه عندما خرجت فرقة الحشاشين وغيرها من الفرق التي ناهضت حكم أهل السنة والجماعة الذي توطد في عهد الدولة الأموية ومن بعدها دولة العباسيين وحتي في ظل حكم الدولة الفاطمية عندما إنشقت الشيعة علي أنفسها بين المستعلية والنزارية التي أنتجت فرقة الحشاشين لتخرج علي الأمة والوطن والجماعة وتنتهج القتل والإعتيال في سبيل الدفاع عن وجودها وبقائها وكأنها ليست من هذا الوطن ولا تدين له بالولاء.

وعندما بدأت دولة الخلافة في السقوط ليسقط معها حكم أهل السنة والجماعة الذي دام لعقود طويلة من الزمان، وجدنا الفرق والجماعات تخرج جميعها من رحم أهل السنة والجماعة لتبحث هي بدورها عن الحكم والخلافة تماما كما فعلت جماعات الشيعة من قبل ولتنتهج هذه الفرق السنية نفس المبدأ الذي إنتهجته الفرق الشيعية من خروجها علي الأمة ومن جعل الولاء للجماعة فوق الوطن.

كلهم تساووا في تعريفهم للوطن عندما جعلوا الوطن هو الساحة التي يتم الإقتتال فيها للفوز بالحكم وبالغلبة متناسيين أساس الخلق عندما جعل العزيز القدير الوطن لنا مستقرا ومتاعا، فجعلونا نفقد المستقر عندما أضعفوا أوطاننا وحاربونا في أرزاقنا ففقدنا معهم الإحساس بالإستقرار وفقدنا بالتبعية إحساسنا بالمتعة التي يشعر بها من يعيش أمنا في وطنه.

لقد تساوت كل الفرق في تبعيتها الفكرية لعقيدتها ومرشدها وإمامها كما تساوت جميعها في تجريم وتكفير من رفضها وجعلت من الكل فردا خارج علي القطيع، ولكنهم إلى يومنا هذا لا يدركون أن قطيعهم ما هو إلا قطيع من ضمن مئات القطعان التي تعيش جميعها

في وطن واحد وأن قطيع الخرفان لا يحكمه إلا خروف ولكن في الوطن فهناك أسد يحكم كل القطعان مهما إختلفوا في فكرهم وأسلوبهم وقناعتهم . هكذا هي سنة الله في خلقه و مهما حاول الخروف أن يستأسد... فهو لن يكون أبدا إلا خروف، فرد في قطيع، يعيش جنبا إلى جنب مع باقي القطعان في وطن يفرض علي كل من أراد أن يعيش به أن يدين له فقط الولاء والطاعة.

قد تسود الخرفان يوما ... و آني تكون الخراف أسودا

قد تُمَلك الخرفان يوما ... ولكن ملكها أبدا لا يسودا

إن تَملك الخروف يوما ... فقد تملك تابعا حسودا

ستبقي الخراف خرفانا ... وستبقي الأسود أسودا

إنني أعتقد إعتقادا يقينيا أن فكرة الوطن ككيان يحوي في داخله كل الأطياف والفرق ويقبل الإختلاف بين أبناؤوه ولايعطي الأفضلية لجماعة علي جماعة ولا لحزب علي حزب، إن هذه الفكرة بحد ذاتها هي أعدي أعداء فكر الجماعات الدينية في عمومها. إن هذه الجماعات قد أعطت لأنفسها الحق لكي تعتبر أنفسها هي المسئولة عن إبلاغ صحيح الدين وأنها الجماعة المنوط بها مقاومة جهالة المجتمع التي عادة مايتم تعريفها علي أنها الجهالة الناتجة من عدم الإعتقاد في فكروعقيدة ومنهج هذه الجماعة.

لهذا وجدنا كل جماعة وهي تعتبر الجماعات الآخري علي الباطل أو من كان منهم علي وسطية العقيدة فإنه يري الآخروقد إنحرف عن أساس الدين وجوهره والذي هو بطبيعة الحال ما تقره عقيدته وفكره.

وهذا هو ماجعل فكرة الوطن وقدرته علي إحتواء هذه الإختلافات ضمن كيان يمكنه أن يستوعب كل أبناؤوه مهما وصل الإختلاف بينهم، هي فكره معادية في الأساس إن لم تكن هادمة لفكر أي جماعة دينية أو فرقة مذهبية لإنها عندما نشأت هذه الجماعة نشأت في الأساس لعدم رضاها عن عقيدة الغيرولقناعتها بأنها هي فقط علي الصواب وهو الفكر الذي نشأت عليه الجماعة في الأساس وظلت تنميه في أتباعها لكي تحافظ عليهم من

سطوة أفكار الغير سواء من الجماعات الدينية الأخري أو من الجماعات التحررية أو الأحزاب السياسية.

لقد نشأت الجماعات الدينية في مختلف العقائد الإنسانية بناء علي قاعدة ثابته إتفقت جميعها عليها ألا وهي أن حق التفكير مكفول للإمام أو المرشد أو الأستاذ الذي أخرج هذه العقيدة للنور ومن بعده للمستنيرين الذين سيحملون لواء الجماعة ليضمنوا لها البقاء وهم من أعطوا أنفسهم حق التقديس لمعتقداتهم و أفكارهم وأطروحاتهم ضد أي رأي أخر حتى ولو كان من داخل الجماعة.

أما الأتباع والمريدين فقد سقط عنهم حق التفكير وأصبح مجرد محاولتهم للدخول في نقاش فكري أو الجدال في أمور فقهيه هو مدعاة للتكفير وأول طريق الشيطان ليخرجهم عن ما هم فيه من نعمة التبعية الفكرية. مثل هذه الجماعات التي تري أن مجرد مناقشة أراء أو أفعال مرشدهم هو جريمة فقهية تجعل ممن يفعلها خارجا عن الجماعة، فكيف يمكن أن نتصور رأيها فيمن يعلنها صراحة أنه ليس علي عقيدتهم وليس علي مذهبهم. بل كيف يمكن أن نتصور رؤيتهم لباقي أفراد المجتمع الذي يضمهم الوطن تحت لوائه ويسوي بينهم جميعا في الحقوق .

إنني أعلنها هنا صريحة أنه مهما إدعت أي جماعة دينية من جنوحها إلى الديمقراطية وقبول الآخر و الإنخراط في المجتمع، فإن هذا الإدعاء هو إدعاء شكلي وقتي لإن جوهر أي جماعة يقوم في الأساس علي حشد الأتباع وفرض العقيدة بل يقوم علي الإعتقاد اليقيني في صحة عقيدتها وبطلان ما دونها وهو مايجعلنا نعتقد بل ونؤكد أن كيان أي جماعة دينية تستهدف الإنخراط في عالم السياسة لا يقوم إلا علي فكرة أساسية أحادية النظرة أنوية النزعة أنه لا وطن في الدين، لإنهم قد جعلوا الدين مذهبا وبالتبعية أصبح المواطن هو فقط من إتبع مذهبهم في أي مكان وفي أي دولة ومن أي جنسية فتحول الوطن عندهم للأسف إلى الحدود التي تضم جماعتهم فقط في أي مكان من الأرض. بل أن المصيبة الكبري هي أن الوطن قد تحول إلى قيد يحد من فكر الجماعة وأهدافها.

فكر القطيع

إن أسواء شئ يمكن أن يقوم به مخلوق علي وجه الآرض هو محاولته السيطرة علي عقول العباد من أجل توجيههم إلى أن يفعلوا فقط مايريده أو مايراه أو ما يصدق هو فيه. ومكمن الخطورة والتردي الفكري في هذا الأمر هو في إدعاء أو تصور الكمال لشخص ما مهما بلغ من أسباب العلم والثقافة والمعرفة لأننا جميعا نعلم تمام العلم أنه لم ولا ولن يوجد إنسان كامل، وأن ونظرة أي إنسان مهما أرتدي من رداءات الحكمة ومن أثواب العلم هي نظرة بشرية قاصرة محدودة لن تمكنه إلا من الإبصار في حدود نطاق رؤيته لأنه هكذا خلقنا جميعا ولأنه لم يخلق بعد من يستطيع أن يري خلفه إلا أن قام بإيقاف شخص أخر أمامه لكي يري ما يحدث من وراء ظهره ويخبره بما يجعله علي علم بما يدور حوله. إن من يتخيل في نفسه الكمال هو ناقص العقل غير سوي الإدراك لإنه يعمد إلى إغفال حقيقة الأمور.

فإن كنت تصدق ذلك في نفسك، فأنت حر في شخصك... في تفكيرك... في تصرفاتك..... وفي أفعالك.

أما أن تأخذك العزة بالأثم وتبدأ في تصديق أنك الأنسان ذو الرؤي وتبدأ في خلق أتباع لك بل وتعمل علي السيطرة علي عقولهم و إقناعهم بأنك تعلم ما لايعلمون وتفقه ما لايفقهون وتري ما لايرون...ومن ثم تبدأ في أخذ عهود الولاء...ومواثيق السمع والطاعة... فهذا هو الأثم الذي ليس بعده إثم لأن في هذا شرك والعياذ بالله لإن الإنسان يشرك عندما يسلم عقله لغيره يوجهه حسبما يشاء بينما يجلس هو مسلوب الإرادة يفعل مايؤمر به بعد أن قبل أن يتنازل عن عقله طواعية لبشر مثله حتى وإن علا مقاما في العلم، ولكنه يبقي بشرا يخطأ ويصيب.

أعتقد أن أسوأ طاغية ذكره لنا التاريخ علي مر الزمان كان هو فرعون الذي قال لقومه وماأريكم إلا ما أري فما كان منه إلا أن قادهم إلى التهلكة ليس فقط بعناده ولكن أيضا بفسقهم وبإستسلامهم وطاعتهم العمياء لفكره وطغيانه أمام الآيات الجلية التي أرسلها العزيز القدير تباعا علي يد رسوله.

إن سوء فعل هذا الفرعون لم يكن في رفضه الآيات التي جاء بها الرسول الكريم فقط...ولكن أسوأ ماقام به هذا الفرعون كان في السيطرة علي عقول كل من حوله ومنعهم من التفكير فيما يرونه من آيات واضحة جلية . حتى وصل به الإستبداد إلى أنه كان يقتل من تسول له نفسه في أن يفكر بخلاف ما يفكر فيه الفرعون وكل من صدق أنه يستطيع أن يري غير مايري الفرعون.

عندما عرض رسول الله موسي عليه السلام أياته علي فرعون، لم يصدقه ليس عن ضعف الآيات بل عن الكبر الذي وقر في قلبه من الشعور بالعظمة ورفض النعمة لمن هو دونه حتى أنه قد تحداه بالسحرة الذين تربوا في قصور حكمه وهم الأدري بفنون السحر ودروبه. لقد تملك الكبر من فرعون حتى تصور أنه سيستطيع أن يدحض أيات الرسول التي لم يستطيع نكرانها بالسحرة الذين توسم فيهم من القوة والعلم ما يمكنهم من إثبات ما لم يستطيع هو نكر انه فكان أن أجزل لهم العطاء ووعدهم بالمزيد إن كانوا هم الغالبين ﴿ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ، لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِن كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ، فَلَمَّا جَاء السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ، قَالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ إِذاً لَّمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ إن الآية تثبت شك الناس من ما قاله الفرعون عندما قالوا لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين. إذا كانوا في شك مرهون بغلبة السحرة وكشفهم لزيف آيات موسي لإنهم هم الأقدر والأعلم بفنون السحر وآلاعيبه.

ولكن ماذا حدث بعد ذلك، لقد رأي السحرة آيات موسي جلية واضحة وعلموا أن ما قام به موسي ليس كسحرهم و أنه لم يسترهب الناس ويسحر عيونهم كما إعتادوا هم القيام به. لقد علم أولي العلم من السحرة أن ما في يد موسي هي عصا مباركة وأن أياته هي معجزة أيده بها العزيز القدير فما كان منهم إلا أن خروا سجدا لله سبحانه وأمنوا بما أرسل به موسي وهارون لإنهم هم الأعلم بآيات السحر.

فماذا فعل الفرعون...هل فعل ما وعد به حقا ؟ هل ترك الناس تفعل ما أقرت به عندما خرجت يوم الزينة لتشهد ما يحولهم للأيمان برب موسي أو ما يؤكد صحة عقيدتهم التي هم عليها ؟

لقد كان الوعد أنهم سيتبعون السحرة إن كانوا هم الغالبين وهو مايعني بالتبعية أنهم سيتبعون موسي وهارون إن كانا هما الغالبين.

وما أن أظهر الله الحق علي يد سحرة فرعون الذين أقروا لموسي بالرسالة فوررؤيتهم لآية العصا التي لقفت ما يلقفون، فلم يكابروا ولم تأخذهم العزة بالأثم ولم يجدوا في عطاء فرعون ووعوده ما يفتنهم عن الحق الذي رأووه رؤي العين فخروا سجدا ولم يترددوا, حتي أمر فرعون بقتلهم ليس لإقرارهم لموسي بالغلبة ولا لإيمانهم برب موسي، ولكن لأنهم أمنوا قبل أن يؤذن لهم من الفرعون. كانت هذه هي الخطيئة التي لم يقبلها فرعون وعاقبهم بالقتل لأنهم أمنوا قبل أن يأذن هو لهم.

كانت خطيئتهم أنهم قد فكروا وأعملوا عقولهم ليصبحوا قادرين علي إتخاذ قرار بناء علي ماتوفر لهم من علم وخبرة تفوق ما لفرعون... ولكن هيهات...هيهات. فلقد أخذ فرعون العهد من قومه علي السمع والطاعة والولاء الأعمي الذي لايحوي أي قدر من التفكير لإنه وببساطه كان لايريهم إلا مايري......!!!

ولكن العجيب في الأمر ليس بموقف فرعون وهو من تملك منه الكبر ورأي في نفسه الإله الذي بيده الأمر فلم يقبل أن يتنازل عن ماصوره له عقله من كونه ملك إله يحكم ويأمر ويطاع لمجرد أن موسي الذي تلقفته يداه وليدا ليتربي بينهم ويعيش من فضلهم ثم يأتي عليه اليوم الذي يجيئ إليه ينازعه في حكمه.

إننا فعلا لانستغرب موقف فرعون وهو الشخص الذي تملك من قلبه حب الدنيا وزهوة الحكم فرفض أن يبيع دنياه من أجل أخرته مثله مثل الكثير من الذين غلبت عليهم شقوتهم والذين فتنتهم شهوة الحكم والتملك وقيادة الجمع من الناس الذين يستسلمون لحكامهم. ولكن العجيب هو موقف هؤلاء الناس من حوله...!!!

لقد إستسلم قوم فرعون لما حكم به من قتل من أمن من السحرة بالرغم من أنهم كانوا شهود عيان علي آيات الرسول وعلي إقرار السحرة بصدق هذه الآيات وهم من طلب فرعون تحكيمهم في أمر معجزات موسي.

فلماذا لم يقر الناس بهذه الآيات وهم ليسوا بطالبي حكم ولا ملك ؟

لماذا لم يؤمن الناس برب موسي كما أقروا أنهم سينكرونها فقط إن كان السحرة هم الغالبون ؟

لماذا لم يخرج الناس علي حكم فرعون وعقيدته العوجاء بعدما تبين لهم الحق علي يد سحرتهم الذين إحتكموا لهم ومن قبلهم فرعون نفسه؟

هل لهذه الدرجة يمكن تغييب عقول جمع من البشر بواسطة شخص إستطاع أن يدعي لنفسه البسطة في العلم أو في القوة وخرج علي الناس بما يثبت لنفسه فضل الإمامة فتعمي بصيرتهم وتضيع هويتهم فلانجدهم إلا وهم يستسلمون له ولحكمه فلايرون إلا مايري ويقبلون أن يستبدلوا نعمة العقل التي منحهم إياها العزيز القدير بهذ القدر من التبعية الفكرية أو بما يمكن أن نسميه العبودية اللا فكرية التي تسلبهم أبسط حقوقهم من إعمال العقل والتدبر فيما يأتيهم من آيات مبصرة تريهم الحق حقاً وتوضح لهم طريق الهداية وتيسر عليهم إتباعه؟

تخبرنا الأبحاث التي أجريت علي بعض القردة للتحقق من مبدأ التبعية الفكرية وكيفية بناؤه في أجيال متلاحقة بطريقة ميكانيكية تبدأ فقط في الجيل الأول ثم نجدها تستمر بعد ذلك في الأجيال اللاحقة بناء علي مبدأ التبعية الفكرية التي تسيطر علي هذه الأجيال بدون أن يتحققوا أو يفهموا مغزي هذا الفكر و مدي ملائمته لو اقعهم الذي يعيشونه أو يحاولوا البحث عن الأسباب والظروف والملابسات التي تولد عنها هذا الفكر وما أنتجه من معطيات تشكل و اقعهم الجديد.

و أعتقد أن هذا هو ما يفقد الأجيال اللاحقه الرغبة في تغيير هذه الثو ابت التي توارثوها لأنهم في حقيقة الأمر لايعلمون لماذا ولدت هذه العقيدة وكيف نمت وأزدهرت حتى وصلتهم ولكنهم يعلمون تماما مكافأة إتباع هذه العقيدة، وهذا هو ما يجعلهم يتمسكون بل ويستميتون في الدفاع عن عقيدتهم كما وصلتهم لإنهم في الأساس حرموا حق المناقشة بل حق التفكير في الأساس كما أوضحنا سالفا.

لقد قام بعض الباحثيين بوضع خمسة قرود في قفص حديدي وقاموا بوضع موزه في أعلي نقطة في هذا القفص بشكل مكشوف بما يتيح لها محاولة الصعود لأخذ هذه الموزة، ليتم رشهم جميعا بالماء الكثيف عند قيام أي منهم بهذه المحاولة، ولا يتوقف الرش بالماء حتى يتوقف من يحاول الوصول إلى الموزة عن محاولته .

لقد كان العقاب الجماعي لأي محاولة فردية يقوم بها أي قرد هو الدرس الذي تعلمته هذه القرود الخمسة أثناء محاولاتهم الفردية و الجماعية من أجل الوصول لهذه الموزة والذي إستمر لأيام عديدة حتى أدركت القردة أنهم لن يستطيعوا تحقيق مايريدون بهذه الطريقة التقليدية، فعندها فقط توقفت المحاولات وهدأت الحركة في إنتظار أي إشارة أو علامة من صاحب القوة الذي يمنعهم من الوصول إلى مبتغاهم.

وعندما أعلنت القردة عن إستسلامها لقرار العلماء تم إعطائهم بعض الموز كمكافأة لهم لإنصياعهم للأمر وقبولهم للوضع علي ما هو عليه. حينها فقط علمت القردة أن كل المطلوب منهم هو الإنصياع للأوامر المفروضة عليهم وأن الموزة الموضوعة أمامهم لليست للأكل بل أنها قد وضعت لإثبات الطاعة ومقاومة شهواتهم وأن أي محاولة فردية من أحدهم ستصيبهم جميعا بالعقاب الذي يبدأ بالرش بالمياه وينتهي بالحرمان من الموز الذي يأتيهم كمكافأة لإلتزامهم بما ألقي أليهم من أوامر.

لقد تم تدريب هذه القردة الخمسة وهم من يمثلوا الرعيل الأول من القطيع علي الفكرة الرئيسية والقاعدة الأساسية التي يستطيعون بها الحصول علي كل الموز الذي يريدونه وليس موزة واحدة فقط. لقد عودهم الباحثون علي أن ثمن طاعتهم تزيد بكثير عن ما يحاولون الوصول إليه، فإن كان كل هذا العناء من أجل موزة، فإن ثمن طاعتهم وإستسلامهم للقواعد سيكون شجرة موز كاملة.

وفي أحد الأيام قام الباحثين بتغيير أحد القرود بقرد جديد لا يعلم شئ عن أمر الرش بالمياه وتم وضعه مع الأربعة قرود الأخر المتبقية من الرعيل الأولي. وكانت المفاجأة عندما حاول هذا القرد أن يصعد للحصول علي الموزة بأعلي القفص، فإذا بالقرود الأربعة تمنعه بل وتضربه حتى توقفه عن محاولته لعلمهم بالجزاء الذي سيتعرضون هم له من رشهم بالمياه الباردة.

وتكررت محاولات القرد وتكررت معها إصرار القردة الأربعة علي منعه من إتمام المحاولة بالرغم من أن العلماء لم يقوموا برشهم بالمياة ولكنهم كانوا قد علموا الجزاء كما علموا المكافأة إن هم أطاعوا، فقاموا بمقاومته وصده حتى إمتنع القرد الجديد فكانت المكافأة.

وعلي مدار أيام قليلة تم تغيير الرعيل الأول بالكامل واحدا بعد الآخر لنجد أن القرد الذي تم تغييره في أول الأمر قد شارك بجدية مع باقي القردة في منع الو افد الجديد من الحصول علي الموزة في أعلي القفص وهو من لايعلم شيئا عن أمر الرش بالمياه الذي تعرض له الرعيل الأول لأنه لم يتعرض له، ولكنه فقط فعل ما رأي الآخرين يفعلونه حتى تم تغيير القرود الخمسة كلهم وأصبح القفص يحتوي علي جيل جديد تماما لا يعلم أي شئ عن أصل الفكره ولكنه يطبقها بمنتهي الحرفيه والإستماته وكأنه عاني أشد العناء في طريقه للحصول علي هذه الموزة.

هكذا يتم بناء القطيع من خلال بناء فكرة وصياغتها بشكل منهجي وإظهار كلا من عو اقب مناهضة هذه الفكرة أو الخروج عنها ثم تأتي بعد ذلك المكافأة إن هم أطاعوا وسلموا بما هو مطلوب منهم بدون تفكير، وهو مايماثل سياسة الجزرة والعصا حيث تعلق الجزرة (المكافأة) في طرف العصا التي تستعمل هي نفسها لضرب كل من يخرج عن الجماعة فيسير وراء الجزرة الجمع من القطيع طمعا في الجزرة وخوفا من العصا وبدون معرفة أصل الفكرة أو لماذا نبتت أو لماذا هم يدافعون عنها بهذه الإستماته، لإن كل ما يعلمونه هو شئ واحد فقط... إنها الجزرة التي سينالونها إن هم أفلتوا من الضرب بالعصا... وهذه هي المكافأة.

إن معظم القطعان تسير وفق سياسة واحدة لا تتغير مهما تغيرت الأجناس والثقافات والأنواع، كلها تسير وفق سياسة الحصول علي ثواب التابعين للجماعة والعمل علي تفادي عقاب الخارجين علي الجماعة. وهم في هذا الطريق لا يناقشون ولايجادلون بل فقط يسيرون وكأنهم تروس في ألة تم تركيبها لتقوم بمهمة محددة ولا يصح أبدا أن يتوقف ترس ليناقش عمل باقي التروس فتتوقف الماكينة إذا توقف أحد تروسها.

لهذا وجدنا معظم هذه الجماعات الدينية ذات الإتجاهات السياسية في العموم الطامحة للوصول إلى الحكم علي الخصوص، نجدها وقد قامت بتجريم الجدال والمناقشة وجعلت منه خروجا علي وحدة الجماعة وتشكيكا في عقيدتها بما قد يفتح أبواب الفتنة عن ما إستقر في وجدان الجماعة من فكر الإمام وعقيدة التابعين.

إن فكر القطيع لا يقوم إلا علي مبدأ المنع...المنع من التفكير، من النقاش، من المجادلة، والأهم هو المنع من التشكيك في عقيدة وفكر ومنهج وآليات القطيع الذي يجتمع وراء

قائده يسير به حيث يريد وهو علي يقين أن القطيع كله يتبعه ويتبع سياساته و أنه ليس هناك من يفكر في مجرد محاولة الإعتراض علي فكروتوجهات القائد الذي يعيش القطيع في حماه وفي ظل فكره ومنهجه الذي تحفظ لهم الحياة الكريمة، لإن مجرد التفكير أو محاولة مناقشة فكر القائد سيتبعه توقف القطيع عن السير ليصبح عرضه لإن يفترسه من يترصد به وهؤلاء كثيرين.

إن أهم ما يتم إقناع أفراد القطيع هو في ترصد الأعداء من داخل وخارج الأمة بهذا القطيع و أن الجميع ينتظر اللحظة التي سيتوقف فيها القطيع ليناقش أو ليناظر بعضه البعض فيبدأ الهجوم علي أفراده ويتم نهش أفراده فرادي فيصبح التوقف لمحاولة الفهم والتدبر والتمعن في مجريات الأمور ومسبباتها أو نتائجها هو الخطر الداهم علي حياة القطيع وهو ما يستلزم بالتبعية منع بل وعقاب كل من يحاول هدم فكر القطيع وتعريضه للخطر الخارجي من القطعان الآخري أو الخطر الداخلي من المنشقين علي فكر القطيع.

إن هذه العبودية اللافكرية هي سياسة قديمة قدم التاريخ يطبقها كل من طمعوا في إمتلاك عقول البشر و عمدوا إلى تسييس فكر أتباعهم لكي لا يصدقوا إلا مايصدقونه و لايروا إلا مايرون ولا يقتنعوا بأي شئ يخالف رأي إمامهم أو مرشدهم فيقوموا بتطبيق هذه السياسة كما هي وبدون فلسفة أو نقاش طمعا في المكافأة التي وعدوا بها من التبرك بمصاحبة الإمام وحصد ما يجود به عليهم من خيرات الجماعة ومن إستحقاقهم الجنة في الآخرة إن هم ماتوا علي عقيدة الجماعة وكأن إمامهم قد وكل من الله سبحانه وتعالى لتحديد من سيدخل الجنة ومن سيطرد منها أو كأن هذا الإمام أو المرشد قد حمل في جعبته صكوك الغفران يمنحها لمن يشاء ويحجبها عن من يشاء رهينة إثبات الولاء والطاعة العمياء لفكره، بل رهينة قبول تغييب العقل والتصديق بل والإيمان بكل مايلقي إليهم من إرهاصات المرشد، وهذا هو قمة العبودية...عبودية الفكر... أو بالأحري... إنه عبودية اللافكر.

ولكن يبقي السؤال في هذا المقام عن كيفية التحكم في قطيع يزيد أعداده يوما بعد يوم عن طريق شخص واحد فقط حتى ولو كان إماما أو مرشدا أو راعيا؟

يقول المثل العربي القديم أن الراعي له في كل فج مرياع، والمرياع هو مصطلح متعارف عليه عند اهل البادية والقرى ويطلق على... الخروف او النعجه...التي يوضع في رقبتها

جرس يرن عند حركتها فتصدر الاوامر لبقية قطيع الاغنام لتتبعه بمجرد تحركه وبدون أن يدرك هو نفسه أنه يقوم بهذه المهمة لإن كل المطلوب منه هو أن يتحرك فيتحرك الجرس في رقبته وبالتالي يتحرك القطيع من خلفه.

ومن أجل أن يتحكم الراعي في قطيعه، فإنه يقوم بتربية مرياعه وإعطائها الأفضلية عن باقي أفراد القطيع وتقريبها منه لتقف من حوله في إنتظار إشارته أو حركته فتبدأ في عملها التي دربت عليه ألا وهو الحركة وإصدار الإشارات إلى باقي أفراد القطيع ليبدأ في التحرك. لهذا نجد المرياع وهي تقف دائما قريبه جدا بل وتحيط بالراعي وبحماره حتى يبدأ الراعي في التحرك، فيبدأ المرياع في التحرك خلفه بايقاع منضبط فتبدأ الأجراس المعلقة برقبتها في إصدار أصوات شبه منضبطة وكأنها صوت النفير لباقي أفراد القطيع الذين يبدأون في التحرك لاأراديا خلف أصوات الجرس وبشكل جماعي منضبط جدا .

ومن النادر أن نجد بعض الاغنام تخرج عن الخط المرسوم لها بالمسير أو تفكر في الخروج عن القطيع الذي يسير ككتلة واحدة خلف المرياع،ولكن إن حدث وخرج أحد أفراد القطيع عن المسار فإن الراعي يقوم باصدار بعض الاصوات المغايرة لأصوات الأجراس المتناغمة وهو ما يمثل تحذير بالخروج عن المسار، فإن لم تستجب لتلك الاصوات فيبدأ الراعي في التحذير عن طريق قذف بعض الحجارة بالقرب منها حتى تعود للقطيع.

أما إذا بقي منها عدد لم يستجب وظل علي شروده عن القطيع فإن الراعي يبدأ في التدخل بالعقاب الفردي لمن شرد ولكن بشكل علني معلن لباقي أفراد القطيع حتى يعلم الجميع جزاء الشرود من الجماعة بإستحقاقه الضرب بالعصا أو أن يرشق بحجر حتى تعود الى رشدها كفرد في القطيع يتبع المرياع الذي يسير خلف الحمار الذي يركبه الراعي يسير به أينما يريد، كيفما يشاء ووقتما يحلو له..

هل تعلمون قصة النمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نبي الله نوح عليه السلام الذي كان أحد الملوك الأربعة الذين ملكوا الدنيا جميعها كما يقول العلماء والمؤرخين الذين أخبرونا أن الدنيا قد ملكها نبي الله سليمان وذو القرنين وهؤلاء كانا مؤمنين كما وملكها أيضا النمرود وبختنصر وهؤلاء كانا كافرين. وقد حكم النمرود قر ابة أربعمائة عام حيث نصب نفسه إلها عبده الناس من دون الله عز وجل وإستكانوا إلى حكمه بعضهم خوفا

من بطشه والبعض الآخر طمعا في منفعة يجنوها من وراءه والبعض الكثير تجنبا للتفكير وبعدا عن المشاكل.

وقد بعث الله سيدنا إبراهيم عليه السلام رسولا ونبيا لهذا الملك الظالم المتبجح علي الله سبحانه ليحاجه في أمر إدعائه بالألوهيةكما تخبرنا كل الكتب المقدسة بمحاولات سيدنا إبراهيم لأن يرجعه عن غيه عندما أخبره إن ربه يحي ويميت فأجابه أنه إن أمات هذا وأحيا هذا فإنه يحيي ويميت وعندها أخبره سيدنا إبراهيم أن ربه يأتي بالشمس من المشرق فليأتي بها من المغرب إن إستطاع؟

عندما لم يستطع النمرود الرد علي هذه الحجة وعندما لم يجد ما يستطيع به أن يثبت إدعائه أو ينفي به البرهان الجلي الذي أظهره الله علي يد نبيه، هل ردعه حقا هذا الدليل وجعله يتحول إلى الإيمان برب إبراهيم؟ بل هل دفع ذلك البرهان الناس من حوله ممن شهدوا هذا النقاش إلى أن يؤمنوا لإبراهيم ؟

كلنا يعلم ما حدث عندما أسقط في يد النمرود ولم يجد من يردعه عن غيه، فما كان منه إلا أن أمر بحرق نبي الله وخليله سيدنا إبراهيم عليه السلام في و اقعة تنافي المنطق والعقل ليس لما فعله النمرود لإن هذه هي طبيعة كل المتجبرين في الأرض الذين لايرون إلا مايروا،ولكنها في الحقيقة تنافي المنطق في قبول الناس لردة فعله،وكأن الناس قد عميت بصيرتها وصدقت بالفعل أن مصير كل من يجادل يجب أن يكون الحرق ليموت ويموت معه فكره ويبقون هم علي ما وجدوا عليه أبائهم.

لقد جمعهم هذا النمرود علي الضلال وأخذ منهم العهد ومشوا ورائه حتى وهم من يرون الآيات بينه عندما رأوا الخليل إبراهيم يسير وسط النيران ويأكل من الفاكهة التي تدلت إليه، ولكنهم عجزوا عن أن يقفوا مع الحق ضد هذا النمرود لإنهم قد إستسلموا من قبل وباعوا عقولهم عندما قبلوا أن يسيروا كالخراف وراء بشر أعطاه الله الملك ولكنه لم يعطيه الحق أبدا في أن يسلب الخلق عقولهم . عندما يستكين الناس لفكر أحد الأشخاص مهما علا مقاما أو ملكا أو قوة أو مكانة، فإنهم يضعونه بيديهم علي أقصر الطرق لأن يصبح دكتاتورا يتحكم فيهم ويذيقهم من سطوته الفكرية كما هو الحال مع كل أصحاب الدعوات أو من سطوته الترهيبية كما فعل هذا النمرود أو من سطوته الإجرامية كما فعل فرعون الذي كان يقتل كل من يخالفه في أمره.

إن قمة الإستبداد الذي قد يتعرض إليه أي إنسان مهما كانت مرجعيته الثقافية أو الإجتماعية أو الوظيفية يتمثل في الإستبداد الفكري الذي يوجب عليه الإمتناع عن التفكيروعن تخليه بإرادته عن إستخدام العقل في تحليل ما يلقي إليه من أفكارللوصول إلى قناعاته الشخصية في ضوء الدلائل التي تصل إليه ومايستقرفي وجدانه من براهين عن صحة هذه الأفكاروخاصة لوكانت هذه الدلائل والبراهين مصحوبة بآيات وعلامات واضحة جلية لا يستطيع العقل إنكارها، ولكن عندما يتخلي كل منا عن نعمة العقل ويصبح أسيرا لفكر القطيع الذي يفرض عليه قبول فكر الإمام أو المرشد أو الراعي الذي يسيربهم، فإننا نتخلي عن أدميتنا، بل أننا نتخلي عن أساسيات ديننا الذي يقوم في المقام الأول عن عدم الإشراك بالله، فإذا بنا نقبل أن نطيع الإمام فيما لا يقبله عقلنا متناسيين أن الله سبحانه وتعالى لن يحاسبنا علي فكر إمامنا بل سيحاسبنا جميعا علي قناعتنا وعلي مقدار إعمالنا لنعمة العقل في التدبر والتفكر لنبني بها قناعتنا التي سنسأل عنها جميعا يوم القيامة مهما أدعينا يومها أنه كان هناك من يملي علينا ما نفعله أو يجبرنا علي الإعتقاد الغيرسوي.

لقد عمد كل مؤسس لجماعة إلى العمل علي تغييب عقول أتباعه عن طريق تصوير جماعته علي أنها هي فقط الفرقة الناجية وأن من إتبعه نجي ومن خالفه هلك. كلهم عمدوا إلى تصوير الأمرعلي شكل رسالة إلهية أرسلوا بها يدافعون من خلالها عن صحيح الدين ويقدمون من أجلها كل نفيس وغ إلى وقد وعدوا أنصارهم بالجنة إن هم إتبعوهم وبأجر الشهادة إن هم ماتوا في سبيل دعوتهم وبرغد العيش إن هم تفانوا في نصرتهم.

هكذا فعل الفراعنة عندما جعلوا من أنفسهم آلهه أو أنصاف آلهه أو أبناء آلهه وجعلوا من كهنتهم مرياع يقوم بتجميع القطيع من حولهم ويدق لهم الأجراس ليسيروا بالقطيع أينما يشاؤون. وهكذا فعل الرومان عندما جعلوا من المسيحية عقيدة سياسية يجيشون من أجلها الجيوش ويقاتلون في سبيلها كل من لم يؤمن بها لتكون أرضه لهم حلالا فتمتلئ خزائنهم وتقوي عروشهم وتزداد قوتهم بإسم الدين، وليصبح كل من يخالفهم عقيدتهم هو عدوهم الذي يستباح أرضه وماله حتى ولو كان علي ديانتهم كما حدث بين الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة الأرثوذيكسية في بدايات إنتشار الديانة المسيحية.

بل هكذا فعل المسلمون عندما إتفقوا علي أصل الدين ولكن إختلفوا في المذهب ليتبع كل منهم عقيدته ويجرم عقيدة الآخروتخرج علينا كل فرقة بقناعتها في إستحقاقها الحكم دون غيرها لتحارب الفرقة الأخري بعد أن إقتنع الناس بصحة هذه العقيدة وبطلان الآخري فإجتمعوا كلا في قطيع لا يهدف إلا لهلاك القطيع الآخر حتى يستتب له الحكم دون الآخر وكأن الآخر للكفر أقرب من الإيمان. هكذا فعلها الخوارج عندما خرجوا علي عثمان وهم يجاهرون بعداوتهم لعثمان ويجادلون فيه صحابة رسول الله الذين دافعوا عنه وعن دعوته بأرواحهم وأاموالهم وهاجروا في سبيل نصر دعوته ولكن كل هذا لم يكن كافيا لهؤلاء الخوارج لكي يقتنعوا بأنهم علي ضلالة حتى قتلوا عثمان وهو يقرأ القرأن وفي شهر حرام حتى نجدهم وقد خرجوا وهم يتفاخرون بقتل ذو النورين المبشر بالجنة زوج إبنتي رسول الله صلي الله عليه وسلم و هم يصدقون بالفعل أنهم علي حق.

بل هكذا وجدنا حسن الصباح وهو يدعو إلى إمامة نزار الذي قتل في السجن وينصب نفسه داعيا لهذه الإمامة فيجمع من حوله الأتباع ويأخذ منهم البيعة علي الشهادة في سبيل نصرة إمامة نزار أو أولاده بعد أن أراهم جناته علي الأرض وأغواهم بأنه هو القادر علي أن يدخلهم الجنة ويبقيهم فيها إن هم فقط أطاعوا ولم يناقشوا ولم يعصوا له أمرا حتى مهما تعارض مع أصل الدين لإنهم لن يفقهوا الدين كما فقهه هو ولن يعلموا من صحيح الدين ما علمه هو، فنراه وهو يأمرهم بالقتل...فيقتلون وكأنهم لم يقرأوا قر أنا يوما ولم يعلموا أن الله قد قال في كتابه العزيز﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾.

وبالرغم من أن التاريخ ظل يخبرنا تباعا عن هذه الفرق والجماعات وعن خطورة الإنخراط في قطيع يدين بالولاء لفكر راعيه وإمامه ومرشده ويعتنق فكر السمع والطاعة الذي يذهب بعقله ويجعله مسائل عن عقله الذي قبل تغييبه ويرمي به علي حدود الشرك بالله، إلا أن البشر لا تتعظ من التاريخ وكأن القاعدة والحجة التي ظل الناس يتبعونها في مجادلة كل الأنبياء والرسل من أنهم يتبعون ما ألفوا عليه أبائهم لازالت قائمة حتى يومنا هذا وكأن التاريخ لايزال يعيد نفسه وكأن الدين لم يتم حتى يومنا هذا.

فبالرغم من كل ما مر علي الأمة الإسلامية من أحداث دموية خلفتها الفرقة التي حدثت في بدايات عصور الخلافة الإسلامية من إنقسام الأمة علي مذهب أهل السنة والجماعة ومذهب أهل الشيعة والتي إستمرت لعقود طويلة مغلفة بالصراع الدموي والقتل

والإغتيالات ومحاولات الإستئثار بالحكم، إلا أن كل هذا لم يردع أصحاب فكر الجماعات من أن يخرجوا علينا بأفكارهم الحديثة منذ بدايات القرن الماضي ليشكلوا جماعاتهم التي بدأت في صورة دينية دعوية تهدف إلى نشر الدين فجمعت الأتباع والمناصريين حتى تيقنت من ولائهم فأنشأت قطيعها وعددت مرياعها و إنتشرت في أرجاء الأمة لتتحول كما تحولت كل الفرق من قبلها وكما ستتحول كل الفرق التي ستأتي من بعدها تدعو إلى الدين في بادئ الأمر ثم تتحول إلى تسييس دينها لتعضد به حكمها وتنشأ به دولتها كمهد لتأسيس الخلافة الإسلامية فتجعل من الجهاد سبيلا ومن الدم ثمنا رخيصاً ومن القتل عقيدة أصيلة.

هكذا بدأ حسن البنا دعوته عندما نادي بجماعة الإخوان المسلمين كحركة دعوية تهدف إلى نشر الدين وتوضيح مقاصده وتنوير عامة الشعب من الذين لم يحظوا بقدر من العلم يؤهلهم لكي يعلموا صحيح دينهم فجعل من الدين عقيدة وعبادة، ووطن وجنسية، وروحانية وعمل، ومصحف وسيف وهو ما لانستطيع إنكاره لإن الدين هو جوهر الحياة في المقام الأول بكل ما تشمله من نواحي ومقاصد وأسس تقوم عليها دنيا ودين البشرية جمعاء. ولكنه عندما عرف جماعته فقد جعلها دعوة سلفية، وطريقة سنية، وحقيقة صوفية، وهيئة سياسية، وجماعة رياضية، ورابطة علمية ثقافية، وشراكة اقتصادية، وفكرة اجتماعية وهو ما خرج بجماعته عن كونها حركة دعوية لتصبح توجها سياسيا يطالب بالحكم وبإقامة دولة الخلافة الإسلامية ولايتورع عن أن يحلل القتل في سبيل إنجاح دعوته تماما كما فعل الحسن الصباح الذي كافأ أتباعه بجنته التي أنشأها داخل قلعته بينما كانت مكافأة حسن البنا لإتباعه متمثلة في ضمان الجنة في الآخرة والشهادة في الدنيا وبين ذلك وذاك الكثير من رغد العيش والمكافأت المالية التي سال لها لعاب الكثير من الأتباع، و هو ما سنفرد لذلك فصل قائم بذاته.

ويبقي السؤال... ؟؟

لماذا يقبل الناس أن تعيش في قطيع ؟

لماذا يقبل الناس أن تبايع إنسانا بشرا ناقصا مهما وصل من إدعاء الكمال علي السمع والطاعة لأوامره التي تنهاهم عن التفكير وعن مناقشة أوامره أو مراجعته في قرارته ؟

هل يمكن أن نتنازل طواعية بإسم الدين عن نعمة التفكير وعن حقنا في مراجعة أفكار الآخرين لإختيار ما يتماشي مع معتقداتنا ومنطقنا وما وقع في قلوبنا من صحيحه إذا ما إختلفنا علي تفسير معانيه ؟

إن المستغرب في هذا الأمر أن كل الأقوام الذين أرسل العزيز القدير لهم أنبياؤه ورسله قد أعملوا عقولهم وعارضوا دعوتهم ورفضوا أن يستجيبوا لدعوة أنبياؤهم في أن يتبعوا أوامر الله سبحانه. كلهم رفضوا أن يجتمعوا علي قلب رسولهم وناقشوه وجادلوه حتى أن بعضهم وقد وصل إلى حد قتل الأنبياء إن هم أصروا علي دعوتهم وعلي أن يستمروا في بيان الحق.

أولم يفعل ذلك قوم نوح وقوم هود و صالح ولوط وشعيب وموسي وعيسي عليهم جميعا السلام... أو لم يفعل ذلك أيضا قريش عندما وقفت جميعها أمام دعوة الرسول صلي الله عليه وسلم ولم يؤمن له إلا القليل من قومه قبل أن يعزه الله بنصرة أهل يثرب.

لماذا يقبل الناس من دعوات المفكرين والدعاة ما كانوا مايرفضونه من الرسل والأنبياء؟ لماذ يقبل الناس أن يسلموا بالأمر لداعية وقد كانوا لايقبلون نفس الأمر مع الرسل والأنبياء حتى يقع عليهم عذاب الله سبحانه ؟

إنها معضلة فكرية تدعونا حقا للتدبر في هذا الأمر لكي نعلم لماذا يقبل الناس أن تعيش في قطيع يحكمه داعية أو مرشد أو إمام ولا تقبل نفس الأمر إذا كان من سيقود القطيع رسول أو نبي. أعتقد أن الأمر مرتبط في الأساس بحجم الدعوة وكم الإلتزامات التي ستلقي علي الناس من جراء إتباعهم لإمامهم سواء كان داعية أو كان رسولا نبيا، فالبشر بطبيعتهم الإنسية يقدمون مصلحتهم التي يصورها لهم عقولهم علي أي أمر أخر مهما واجهوا من براهين وحجج تبطل عوج فكرهم.

وقبل أن ينبري أحد ليقول أن المسلمين قد إجتمعوا علي دعوة الرسول صلي الله عليه وسلم، دعوني أذكركم أن قوم نوح لم يجتمعوا علي دعوته وكذلك فعل قوم إبراهيم وقوم لوط وقوم يوسف وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وكلهم أستحقوا العذاب وتلاهم في ذلك قوم موسي بل وقوم عيسي حيث لم ينتشر دينهم إلا بعد موتهم، وهو الأمر الذي يجب أن نتفكر فيه جيدا حتى نستطيع أن ندرك فكر القطيع ووقعه علي بني أدم.

فلترجعوا إلى قصص الأنبياء لتروا كيف إختلف الناس علي أنبيائهم وقرروا إعمال العقل ومناقشتهم في دعواهم وهم من كانوا لايسألونهم أجرا علي دعوتهم لإنهم جعلوا أجرهم علي الله.

تخبرنا بعض أحاديث الصالحين أنه عندما خلق الله سبحانه وتعالى البشر لم يرضي أحد من الخلق برزقه لإنه كان ينظر إلى رزق غيره فيجده يمتلك ما هو ليس عنده فنجد صاحب الدراجة وهو يحسد صاحب السيارة الذي يقوم بدوره بحسد من يمتلك سيارة أكبر وجميعهم يحسد من لديه يخت ليتباكوا جميعا لإنهم لايملكون طائرة وهكذا دواليك. ولكن عندما أعطانا الله سبحانه نعمة العقل فقد ذهب كل منا في سبيله وقد رضي تماما بعقله و قد قنع أن عقله هو أفضل العقول الذي يجب أن يحسده الجميع عليه.

إننا جميعا نعيش وفق هذه القاعدة التي تتحكم في شهو اتنا بشكل لا إرادي لننسي ما في أيادينا من نعم وننظر إلى ما في يد الآخرين ونتمناه بل قد يصل بعضنا إلى إنكار هذه النعم علي الآخرين بدعوي أنه يري نفسه المستحق لهذه النعم وهو الذي يمتلك من العقل ما لايملكه الآخرين . ألم يقل الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم أنه قد خلق الإنسان ظلوما جهولا، ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يحَمِلْنَهَا وَ أَشْفَقْنَ مِنْهَا وَ حَمَلَهَا الْانسَنُ إِنَّهُ كاَنَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾.

نعم هكذا خلق الله سبحانه الإنسان -وهو الأدري بمن خلق- ظلوما لنفسه لا يتورع أن يُحَمِل نفسه من الأعباء ما لايطيق ليس عن قدرة أو علم الغيب ولكن عن جهالة بما خلقه الله عليه ويسره له وطمعا في أن يزيد من رزقه ويملك ما في يد الآخرين من نِعَم. نَعم هكذا خلقنا الله جميعا وجعل من شهو اتنا ورغباتنا محركا كامنا داخلنا يعلمه كل واحد فينا تمام العلم ويعمل علي عدم إظهاره حتى تظل صورته التي أرادها أنه يملك قراره و أنه يتحرك وفق ما يمليه عليه عقله لا وفق ما تفرضه عليه أهواؤه ورغباته فيبقي أمام رفقائه وأهله وهو الإنسان المتعقل صاحب الرؤية وهو لا يعلم أن الحكم الإلهي قد صدر منذ بدء الخليقه...ظلوما.. جهولا.

للأسف، فإن البشر ينفرون من دعوات الإنبياء لإنها دعوات كاملة تطلب منهم الإلتزام بعموم الدين الذي إرتضاه لهم العزيز القدير وهو ما يمنعهم من الإنصياع إلى شهواتهم التي تسيطر عليهم وتدفعهم إلى الإزدياد من متع الدنيا، فإن هم إستجابوا إلى دعوة رسلهم

و أنبيائهم فإنه سيتعين عليهم الإلتزام بكل تعاليم الدين ليتركوا كل النعيم الذي توارثوه من أبائهم جيلا بعد جيل سواء من المال أو الشهوة أو العادات أو حتى الأفكار التي تبيح لهم الإزدياد من شهواتهم دون رقابة دينية علي أفعالهم.

هكذا فعل قوم نوح عندما دعاهم نبي الله نوح لألف سنة إلا خمسين فلم تزدهم دعوته إلا إصرارا علي الرفض والتمسك بما وجدوا عليه أبائهم من ضلال أستحبوه وكذلك فعل قوم هود وصالح وقوم شعيب الذين وجدوا في دعوته خسارة مالية إن هم غيروا أسلوب حياتهم إذ كانوا يكتالون علي الناس ويقطعون الطرق ويغيرون علي القبائل الأخري، فكانت دعوة نبي الله شعيب عليه السلام بترك كل هذا هي دعوة للتخلي عن رفاهيتهم والبعد عن الطريقة السهلة التي تؤمن لهم معيشتهم في الحياة الدنيا من أجل الفوزبنعيم الأخرة...فرفضوها ليس لإنهم يرفضون دعوة الحق ولكن لإن قبولهم إياها معناه تنازلهم عن رغد العيش ووسائله المجربة والمضمونة النتائج من أجل نعيم الأخرة الذي لم يجربوه. أوليست هذه هي شهوة حب الدنيا ومافيها من متع؟

بل أنني أجزم أن رفض أهل قريش لدعوة رسولنا الكريم صلي الله عليه وسلم كان علي نفس منوال قوم شعيب إذا علمنا أنهم كانوا يعيشون ويسترزقون علي حماية وسدانة البيت الحرام حيث كانوا يقومون بخدمة الألهة التي كان العرب يحجون إليها من كل حدب وصوب فيغدقون عليهم بالأموال مقابل سدانة البيت وإكرام ووفادة الحجيج، فكيف يمكن أن يتنازلوا عن كل هذا العزوالجاه والسيادة ليطلب منهم أن يتساووا بإسم الدين الجديد مع العبيد والفقراء و أن تصبح أموالهم قسمة بينهم وبين باقي المسلمين.

إن القارئ لسيرة الخلافة الإسلامية سيجد أن بني أمية منذ عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه قد عادوا إلى سيرتهم الأولي من شهوة التفاخربالأنساب وما يستتبعها من شهوة إكتناز الأموال والإستقواء بالجاه والسلطان و ذلك عندما قاموا بتفضيل أنفسهم عن باقي المسلمين حتى إستقلوا بدولة الخلافة وجعلوا الحكم فيهم فقط بنظام التوريث وولاية العهد ليعطوا أنفسهم الإمتيازات المالية عن باقي المسلمين ويجعلون من أنفسهم أمراء بإسم الدين لهم السيادة والأفضلية المجتمعية بل والولاية علي أمة الإسلام. و من أجل أن يستطيعوا قيادة هذه الأمة المترامية الأطراف التي وصلت حدودها في عهدهم من أطراف الصين شرقاً حتى جنوب فرنسا غرباً، وتمكنت من فتح إفريقية والمغرب والأندلس وجنوب الغال والسند وما وراء النهر.

فقد إنتقوا المرياع الذي يستطيع أن يجمع القطيع من حولهم سواء بحد السيف كما فعل الحجاج بن يوسف الثقفي أو بحد الولاية الفقهية من أمثال عامر بن شراحبيل الشعبي و إبان بن عثمان بن عفان الذي يعتبر من أو ائل من جمعوا السيرة النبوية.

لقد إنزلق المسلمين مباشرة بعد موت الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم إلى الردة عن كامل الدين ليرتضوا فقط ما إرتضوه هم من بعض الدين فطالبوا بإسقاط الزكاة حتى لاتتأثر سياساتهم المالية بأمر الدين مثلهم مثل كل من سبقوهم من الأقوام الذين رأوا في تمام الدين تحجيم لشهواتهم وإسقاط لحقهم في جمع الأموال بالطريقة التي يريدونها وصرفها كما يحلو لهم. ولكن هل إنتهي الأمر بعد أن وأده الخليفة أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه وعاد المسلمون إلى تمسكهم بدينهم الذي إرتضاه لهم رسولهم عليه وعلي آله وصحبه الصلاة والسلام ؟ أعتقد أن بني أميه هم الدليل الساطع البرهان علي أن الطبيعة البشرية لم ولن تتغير مهما صاحبت من رسل في حياتهم ومهما وصلت إلى درجات علا في الدين لإن الإنسان قد خلق هكذا... ظلوما...جهولا.. !!

وإذا عدنا بالتاريخ قليلا إلى أيام بعثة نبي الله وكليمه سيدنا موسي عليه السلام، فإننا سنجد بني أسر ائيل وقد إختلفوا علي نبيهم وتشككوا في جدوي دعوته كغيرهم من الأقوام الذين سبقوهم أو من تبعوهم أيضا لإنهم كانوا مترددين بين مايرونه من أيات وبين ما يصيبهم من إبتلاء وكأنهم قد أقنعوا أنفسهم أن أيات سيدنا موسي قد أرسلت فقط لفرعون مصر وقومه و أنهم ما كان يجب أن يصابوا في أرز اقهم من جراء عدم تصديق فرعون وقومه كما أخبرنا الله في كتابه العزيز في سورة الأحزاب: ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ * قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ * قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾.

أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا... أو هكذا يمكن أن يخاطب المؤمنين أنبيائهم بعد الآيات المبصرة التي أجراها الله علي يده أية تلو الآخري بينة واضحة جلية أمن بها سحرة فرعون أنفسهم. بل أن المصيبة الكبري تجلت عندما إنقلب بنو أسر ائيل علي موسي وهارون أنفسهم بمجرد أن تركهم وذهب للقاء ربه فيخرج عليهم السامري ليخبرهم

أنه أبصر ما لم يبصروا به فإذا بهم يصدقونه ويعبدون العجل ونبي الله هارون قائما بينهم ورسولهم مشغولا بلقاء ربهم... !!

ماهذا القدر من التغييب الذي يصيب العقول فيجعلنا نقبل أن نعطي القدسية لإنسان لنطيع أوامره حتى وإن تجاوزت المنطق بينما رفض القدسية لدعوة أنبياء الله ورسله ولانجد حرجا من مجادلتهم ومناقشتهم في رسالة رب العالمين علي لسانهم...!!

هل حقا صدق بنو أسرائيل أن السامري يعلم من أمر دينهم أكثر من موسي الذي يكلمه الله ويخبره بأمرهم وبنو اياهم ؟ هل حقا صدقوا أن العجل هو إلههم... أم أنهم أرادوا أن يصدقوا ذلك الأمر لمنفعة دنيوية يتحصلون عليها الآن وليبقي أمر الآخرة رهنا بدعاء وإستغفار نبيهم لهم؟

هل حقا صدق المسلمون بعد موت رسول الله صلي الله عليه وسلم كل من أدعوا النبوة وهم من أمنوا وصدقوا لنبيهم أنه خاتم النبيين والرسل... أم أنهم وجدوا في هؤلاء المدعيين سامري جديد يعطيهم بعض من دينهم الذي يستطيعونه ويسمح لهم ببعض من شهواتهم ورغباتهم الدنيوية التي منعهم أياها الدين ؟

هل حقا صدق الخوارج أن عثمان وعليّ وباقي الصحابة الكرام رضي الله عنهم جميعا كانوا علي الضلالة وأنهم فرطوا في الدين الذي ضحوا من أجله بحياتهم وأموالهم وأمنهم ووطنهم ؟ أم أنهم إستساغوا دعوة إبن سبأ ودعاة الفتنة من أجل أن يتم مساواتهم ببني أمية فيكون لهم مالهم من المال والعطاء نصيبا مفروضا من بيت مال المسلمين ومن إستحقاقهم للحكم والولاية علي الأمصار؟

هل كانت دعوة أهل الشيعة حقا دعوة دينية خالصة ؟ أم أنها كانت دعوة سياسية تهدف إلى الحكم وإستحقاق الخلافة والوصول إلى الملك الذي إختطفه منهم بنو أمية لينعم بنو أمية بالجاه والسلطان ويتركوا من تشيعوا لآل البيت ليعيشوا مهمشين مطاردين وهم من يدافعون عن آل بيت رسول الله صلي الله عليه وسلم فكيف لا يكون لهم الغلبة من الأمر وكيف لايكون لهم الحكم كما أكد لهم أئمتهم.

وهل كانت كل هذه الدعوات الجهادية والسلفية التي نراها اليوم من الحركات السنية التي تملاء أجواء المعمورة مثل حركات القاعدة والجهاد السلفية والإخوان المسلمين

تدعو فقط إلى إصلاح الدين أم أنها قد إتخذت من الدين ستارا لتتخفي ورائه كما فعلت جماعات الشيعة سابقا من أجل الوصول إلى سدة الحكم و إقامة دولة الخلافة فيتربعوا علي كرسي الخلافة ينعمون وينعم كل من أمن بدعوتهم برغد العيش بعد كل ماذاقوه من إضطهاد في سبيل دعوتهم حتى وجدناهم يمنون علي من عارضهم بما لاقوه من عذاب في سبيل دعوتهم وكأنهم يطلبون من المجتمع أن يدفع لهم ثمن إنخراطهم في دعوة يرفضها شكلا ومضمونا؟

إن فكر القطيع هو فكر قديم قدم الزمان يبدأ عادة في إستغلال حالة الإنفصام الموجودة داخل كل واحد فينا من رغبتنا في أن نقيم من الدين ما يضمن لنا أخرتنا ويجعلنا من أهل الجنة أو علي أقل تقدير يبعد بنا عن النار بينما يقاوم هذه الرغبة شهوة كامنة داخل كل واحد فينا تزين لنا الدنيا ونعيمها وتقنعنا أن هذا النعيم هو المضمون الذي يجب أن نحياه اليوم وأن نعيم الآخرة قائم فقط في مخيلتنا بناء علي عقيدتنا.

إنها هذه المساحة الذهنية التي نتحرك خلالها لنقارن بين ما نملكه من كف العيش وما يمكن أن نتحصل عليه من الرغد إن نحن إتبعنا هذا المعتقد وبين ما يضمنه هذا المعتقد من دخولنا الجنة إن نحن فقط صدقنا في فكر الإمام المرشد عملا بالمقولة القديمة السائدة أن علقها في رقبة عالم .

لقد عمد كل هؤلاء الأئمة والشيوخ والمرشدين والأساتذة إلى إختزال عموم الدين في حزمة من التعاليم التي تضمن سيادة معتقداتهم وسيادة أتباعهم علي من خالفهم عندما تم إختزال كل الدين في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فجعلوا من أنفسهم حماة الدين والداعيين إليه والفارضين لأحكامه وجعلوا من المجتمع بكافة طوائفه هدفا لدعوتهم ليصبح من يقبل دعوتهم علي الهدي إن هو قبل أن يصبح واحدا منهم ويصبح من يرفض دعوتهم خارجا عن الجماعة شاردا عن القطيع فيسقط عنه كل حقوق الجماعة حتى يصل الأمر إلى إستباحة حياته وماله وأمنه وسلامته إن هو أصر علي الضلالة ولم يدخل ضمن جماعتهم. ومن هذا المنطلق فقد أعطي هؤلاء الأئمة والدعاة والمرشدين والأساتذة الأفضلية لأفراد قطيعهم بصفتهم حماة الدين ورجالاته فأجزلوا لهم في العطاء ووعودهم بالجنة إن هم قضوا نحبهم علي هذه العقيدة أو كان لهم جزاء الشهداء إن هم قتلوا في سبيل دعوتهم.

ومن نفس المنطلق قبل القطيع أن يسير وراء مرشده وقد صدق أن مايتبعونه هو فقط صحيح الدين الذي يضمن لهم الميزة في الآخرة إن هم بقوا علي عقيدتهم بينما يعطيهم ويمنحهم مايريدونه في الدنيا من النعيم والأموال والعمل والصحبة والميزات والإستثناءات التي لم يكن بمقدورهم الحصول عليها إن بقوا فقط علي عموم الدين.

إنني أعتقد أن داخل كل واحد منا تعيش شخصيتين متناقضتين تماما، إحداهما تطمح إلى الحصول علي صكوك الغفران التي تضمن بها الجنة إن هي إنتقلت إلى الحياة الآخري لتقوم بإخراجها أمام العزيز القدير ممهورة بختم مرشدها وإمامها فتعلق عليها نو اياها وتجعل منها حجة تمحي بها كل معاصيها وذنوبها. والشخصية الأخري هي الشخصية الدنيوية التي تطمع في الإستزادة من الخيرات والنعيم وتستطيع أن تطلق العنان لشهواتها الجامحة لتأخذ من متع الدنيا ماتريد سواء من المتع الحسية أو المكاسب المالية أو الشهوات الغريزية بدون أي منغصات دينية تستنفر عقيدتها وتستحث ضميرها علي مراجعة أفعالها.

وبين هاتين الشخصيتين تكمن المساحة النفسية التي يبني فيها فكر القطيع بحيث أنه كلما زادت قناعة الإنسان بوقوع الظلم عليه وأن ما يأتيه من رزق أقل مما يستحق، جعله ذلك هدفا سهلا للدخول كفرد في القطيع يتبع المرياع الذي يمشي وراء الحمار الذي يقوده الراعي وكلهم يطمعون في الجزرة التي يعلقها لهم الراعي من صكوك الغفران وكلهم ينهلون من خير المرعي الذي هو في حمي الراعي ولكنهم جميعا يتناسوون أن لا أحد يملك صكوك الغفران إلا الواحد القهار وأن الرزق بيده هو وحده يبسطه لمن يشاء ويقدر وأن مرشدهم يسير بهم جميعا إلى الهاوية لو كانوا يعقلون.

دين الجماعات

يقول الدكتور محمد راتب النابلسي في إحدي دروسه التي أفردها بتاريخ 9-11-1986 عن خلق الإنسان وماهيته وكينونته ومهمته في الأرض: ((لماذا خلقنا الله عزوجل ؟ هذا أكبر سؤال لأنه ما من إنسان عاقل على وجه الأرض يعمل عملاً من دون هدف، فما هو الهدف الكبير الذي خلقنا الله من أجله؟ إذا أرسلك أبوك إلى بلد أجنبي من أجل أن تدرس، وإذا عرفت الهدف من إرسالك والتفت إلى الدراسة حققت الهدف من هذه البعثة فرضيت وأرضيت, وإذا أرسلك أبوك إلى بلد أجنبي من أجل الدراسة فظننت أنه أرسلك من أجل اللهو فقد شقيت وأشقيت، ولهذا كانت معرفة الهدف الكبير من خلق الإنسان شيء مهم جداً، لأن الناس يسعون في متاهات ويمشون في طرق مسدودة، تنتهي جميعها بالموت، طريق المال و الشهرة والعلو في الأرض وطريق الشهوات كلها تنتهي بالموت، لهذا كانت كل هذه الطرق...مسدودة: " عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك مجزي به)).

إن من فضل الله علي إبن أدم أنه قد أعطاه نعمة العقل وفضل الإختيار وزوده بعلامات و آيات لتهديه إلى سواء السبيل ولكن يبقي الفضل دائما في أن الله سبحانه وتعالى لم يفرض علي إبن أدم طريقه الذي يجب أن يتبعه وتركه يرسم طريقه وفق ما وصل إليه من علم وما إستقر في قلبه من أيمان.

أعتقد أن هذا هو قمة العدل الآلهي المتمثل في الحق الذي منحنا أياه الخالق العظيم في تقرير مصائرنا بأيدينا وأن يكون قرارنا في أن نتبع هداه أو نتبع هوي أنفسنا هو قرار شخصي بحت نابع من قناعتنا الداخلية بصحة ما نفعله وصحة ما نعتقده بل أنه من رحمته وعدله أنه قد أعطانا أيضا حق التدبر في الأمر ومناقشته ومراجعة رسله حتى ذهب البعض ممن غلبت عليهم شقوتهم إلى محاربة الرسل والأنبياء بل وزادوا في غيهم عندما قاموا بقتل البعض من الأنبياء مستغلين ما منحهم الله من حق الإختيار... أي عدل هذا من الخالق... وأي جحود هذا من المخلوق... !!

لقد كانت سنة الله في خلقه أن يعطي كل مخلوق ما يناسب طبيعة خلقه وأن يجعل من طبيعته هي قوام محاسبته وقدر علمه وميزان أعماله. فكان أن أعطي الله سبحانه الملائكة ميزة الطاعة وصفات الإمتثال لأوامره وهم علي هذا القدر من طبيعة الخلق لايعصون لله أمرا ويفعلون مايؤمرون لتكون محاسبتهم علي قدر خلقهم إن هم عصوا لله أمرا وهم من لايعصونه أبدا.

وعندما خلق الله أبليس خلقه من نار فكانت هذه هي الميزة التي إستشعرها إبليس في نفسه بل وجعل منها مقياسا يميزه عن أدم الذي خلقه الله من طين فعصي أمر ربه فكان من الغاوين. لقد تصور أبليس الذي كان من الجن ولكنه تدرج في عبادة الخالق وتسبيحه بفضل من الله ونعمة، حتى كان أن رفعه الله لمقام الملائكة وأجلسه وسطهم ليتلقي الأوامر مثلهم ويطالب بأن يمتثل لما يمتثلون هم له حتى صورت له نفسه أنه سيكون له الفضل والميزة والرفعة علي خلق الله الآخر بما فضله الله من طبيعة الخلق ومن تدرج المقام، فماكان منه إلا أن تكبر علي الأمر الإلهي بالسجود لإدم وهو ما إستجابت له كل الملائكة إلا أبليس الذي تملكت منه طبيعة خلقه– وهو من لم يجبل علي الطاعة المجردة مثل الملائكة حتى ولو كان جليسهم- فعصي لتكون محاسبته علي ما إستقر في نفسه من ميزة التفضيل في الخلق.

عجيب أمر هذه المخلوقات التي تجعل من النعمة التي فضلها الخالق بها نقمة تخرجها من رحمتة سبحانه. لماذا لم يدرك إبليس أنه لم يصل إلى هذه الدرجة من الرقي ليجالس الملائكة ويشاركهم تسبيحهم بل ويكون له من الفضل أن يؤتمر بما يؤتمرون، إلا عندما إمتثل إلى أمر الله وكان من عباد الله الصالحين الذين إستحقوا نعمة التفضيل والتدرج في المقام حتى إذا جاء الأمر الإلهي للملائكة ومن يجالسها، فإذا بالملائكة تمتثل ويعصي إبليس...سبحان الله... حتى جلساء الملائكة تغلب عليهم طبيعة خلقهم !!

ولكن في العموم، تبقي علة إختلاف الخلق في إختلاف حال المخلوقات، فنجد أن الله قد خلق الملائكة من نور، وخلْق الشياطين من نار، في حين كان خلق أدم من تراب، لأن حال كلا من أولئك الخلق كان مختلفاً، فكان أصل خِلقتهم مختلفاً. فلما كان خلق الملائكة للعبادة والتسبيح والطاعة كان خلقهم من نور ليناسب أصل خلقهم صفتهم ولهذا ندعوهم بأنهم مخلوقات نورانية، ولما كان خلق الشياطين للوسوسة والكيد والفتنة فإنه قد ناسب أن يكون خلقهم من النار التي إن لم تجد ماتأكله أكلت نفسها وهو حال أبليس

الذي أضر بنفسه بتكبره قبل أن يضر بني أدم بإصراره علي الكبر، ولما كان الإنسان معمّراً للأرض وفيه سهولة وليونة و فيه صعوبة وشدة و فيه طيب وخبث، ناسب أن يكون خلقه من مادة تحوي كل هذه الإختلافات.

فالنار شيء واحد، والنور شيء واحد، لكن التراب هو مجموعة من العناصر تختلف من مكان لآخر وهذا هو حال الإنسان، وهو ما بينه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: ((إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ، فَجَاءَ بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ، جَاءَ مِنْهُمْ الْأَحْمَرُ وَالأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ وَبَيْنَ ذَلِكَ، وَالسَّهْلُ وَالْحَزْنُ، وَالْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَبَيْنَ ذَلِكَ)) رواه الترمذي (2955) و أبو داود (4693) وصححه الترمذي والألباني في "صحيح الترمذي" .

إذا، كان خلق الإنسان من طين متناسبا مع صفة وطبيعة خلقه وهو الكائن الوسط بين الملاك والشيطان المتأرجح بين الخير والشر المسير إلى قدره بما يمليه عليه عقله من الإحتكام لكامل الدين أو إتباع الهوي والتفريط في بعض الدين ليبقي إبن أدم دوما متأرجحا بين رغباته وشهو اته التي تحرك نفسه إلى ماتهوي وبين أمانيه أن يلقي في أخرته ما تطيب له نفسه سواء بعمله أو برحمة خالقه أو بأن يتحمل عنه وزره من بررله أفعاله في الدنيا و أقنعه أنه علي صواب مهما رأي من أيات تثبت عكس ذلك.

و لم يقصر الله سبحانه طبيعة الخلق علي الملائكة و أبليس وبني أدم فقط، بل إمتدت لتشمل أيضا الطير والحيوان والنباتات عندما فطرها جميعا لتكون جزء من دورة حياة إبن أدم علي الأرض فتخدمه وتنعمه وتيسر له حياته ولكن يبقي لها الفضل في عبادة الخالق الذي أفاض عليها بنعمة التسبيح كما أخبرنا العزيز القدير في كتابه الكريم ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ فكان فضل الله علي العجم من مخلوقاته هو في فطرهم علي نعمة التسبيح بالرغم من أنهم قد رفع عنهم التكليف، ليكون تسبيحهم هو صلاة شكر للخالق مثلهم في ذلك مثل باقي المخلوقات من ملائكة وشياطين و إنس، حتى ولو لم نعلم يوما كيفية تسبيحهم ولكن يبقي هناك أمراً واحداً مؤكداً، هو أن جهلنا بالأمر لن ينفيه أبدا.

يقول الإمام أحمد في مسنده ... عن رسول الله أنه مر علي قوم وهم وقوف علي دواب لهم ورواحل, فقال لهم ((اركبوها سالمة, ودعوها سالمة, ولا تتخذوها كراسي لأحاديثكم في الطرق والأسواق, فرب مركوبة خير من راكبها, و أكثر ذكرا لله تعالي)) .

لقد خلق الله الدواب وبهيمة الأنعام ليسخرها لخدمة بني أدم وتنعيمه ورفاهيته بما توفره له من مأكله وقوته وملبسه وتنقلاته ثم تفضل عليها بنعمة التسبيح الذي لم ولن يعلمه أحدا من خلقه إلا سيدنا داوود و إبنه نبي الله سليمان عليهما وعلي كل أنبياء الله ورسله السلام.

كما أنه عندما خلق الله السماوات والأرض والجبال عرض عليها الأمانة وهي ما فسرها العلماء علي أنها أمانة العقل والبعض فسرها علي أنها أمانة العلم والبعض الآخر فسرها علي أنها أمانة الإيمان. أما ما أُتِفَق عليه بين العلماء فكان في تفسير الأمانة علي أنها الأمانة بالتكاليف الشرعية وذلك من قول ابن عباس والحسن البصري ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك بن مزاحم و ابن زيد وأكثر المفسرين. يقول إبن كثير في تفسيره ((وكل هذه الأقوال لا تنافي بينها، بل هي متفقة وراجعة إلى أنها التكليف، وقبول الأوامر والنواهي بشرطها، وهو أنه إن قام بذلك أثيب، وإن تركها عُوقِبَ، فقبلها الإنسان على ضعفه وجهله وظلمه، إلا مَنْ وفق اللَّهُ)).

ولهذا نري أن الأمانة التي عرضها الله سبحانه لن تخرج عن كونها أمانة الدين والإلتزام بأوامره والإمتناع عن نواهييه والتدبر في أمر الخلق والتعقل في تقرير المصير. وعندما ننظر إلى ما فعلته السماوات والأرض والجبال وهي من لها ميزة القدرة علي حمل كل من عليها من مخلوقات والسير بها دون تعب أو كلل أو ملل، إلا أنهن جميعا أشفقن من هول هذه الأمانة ورفضن أن يحملنها ليس عن عدم قدرة أو عن عدم إستطاعة، بل عن علم بتبعات هذه الأمانة وقت المحاسبة بناء علي ما أعلنوه من عدم قدرتهن علي حملها و ليبقي وقع المحاسبة علي من قبل هذه الأمانة ظالما لنفسه جاهلا بقدراته ولكنه هو من قبلها ولله الأمر من قبل ومن بعد.

و لهذا كانت نعمة الخالق التي تفضل بها علي أدم وبنيه هي نعمة العقل التي تمكنه من تدبر أمره والتفكر في خلق الله حتى يستطيع أن يلتزم بأوامره ويبتعد عن نواهيه ليبقي كل واحد منا مسئولا عن ما يقره له عقله من أمور دينه ودنياه وعن مقدار تحكمه في هوي نفسه وسيطرته علي شهواته وليبقي المقياس الذي يميز بني أدم دوما هو مقدار بعدهم عن المحارم وقربهم من الطاعات مهما زُينت لهم المحارم أو بررتها أو دعمها فتاوي العلماء أو فكر الأئمة أو دعوات الدعاة.

هكذا خلقنا الله سبحانه وقد جعل مرجعية كل إنسان متمثلة فقط في عقله هو وليس عقل مرشده أووليه أوشيخه أوحتى أبواه الذان رباه، إذ يخبرنا سبحانه في القرآن الكريم ﴿وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَى مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾. حتى الوالدين لن يسألا عن عقيدة ولدهما وهم من توليّاه وهو لازال نبته خضراء يشكلانه كما يشكل الصلصال فيجعلان منه المسلم أو المسيحي أو الكافر. حتى الآبويين سيحاسبا علي تربيتنا ولكن لن يسألا عن أفعالنا بمجرد أن يبلغ أبن أدم الحلم ويصبح مسئولا عن أفعاله وفق ما إستقر في وجدانه من مفاهيم الحياة وتفاسير الدين كلا حسب معتقده وكلا حسب نيته وكلا حسب ما وقر في قلبه وهو ما يعلمه العزيز القدير عن ظهر قلب.

لقد أقر الله سبحانه وتعالى لنفسه فقط بعلم النو ايا وما تخفيه النفوس فجعل ميزان الأعمال مرهونا بالنية قبل العمل بل أنه قد جعل شرط صلاح العمل هو صلاح النية لأن العمل محط أنظار الناس بينما تبقي النية محط نظر الله تعالى وحده فقط من العبد، بل إن العباد يبعثون على نياتهم حسبما قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)).

ومن هذا المنطلق، فإنه يمكننا أن نعرف النية علي أنها الرغبة في عمل شئ ما بدون ربط هذه الرغبة مع النتائج الوقتية لهذه الرغبة.أو بمعني أدق، فإن النية هي الرغبة التي نتكتمها عند فعل شئ ما للحصول علي نتيجة مرحلية نعلمها نحن جيدا كما يعلمها الله سبحانه ولكن الناس من حولنا لايعلمون إلا ظاهر أعمالنا بل ويقيمون أعمالنا بناء علي ظاهر مايرونه. فإن تلاقت رغبتنا الدفينه مع ظاهر أعمالنا صلحت النية أما إن تعارضتا فقد خسرنا نتيجة العمل لأن من يعلم نو ايانا سيجزينا بما إنتويناه وسيجعل لنا نصيباً من رغبتنا في الحصول علي إستحسان المخلوقات بأن نفقد البعض من إستحسان الخالق في المقابل.

يحدث أبو هريرة عن رسول الله صلي الله عليه وسلم أنه قال: ((أن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم وكل أمة جاثية، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن، ورجل قتل في سبيل الله، ورجل كثير المال، فيقول الله للقارئ: ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟ قال: بلى يا رب، قال: فماذا عملت فيما علمت؟ قال: كنت أقوم به آناء الليل، و آناء النهار، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله:

بل أردت أن يقال إن فلاناً قارئ فقد قيل ذلك، ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له: ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى يا رب، قال: فماذا عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم، و أتصدق، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله تعالى: بل أردت أن يقال فلان جواد وقد قيل ذلك، ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله، فيقول الله له: فيما ذا قتلت؟ فيقول: أمرت بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قتلت، فيقول الله تعالى له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال فلان جريء فقد قيل ذلك) ثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ركبتي فقال يا أبا هريرة: أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعربهم النار يوم القيامة)) رواه مسلم (3527).

إنها النية...إنها مفتاح صلاح الأعمال التي لا يعلمها إلا الله ولايجزي بها إلا هو مهما حاولنا أن نوهم من حولنا بصلاح نيتنا، إلا أن الناس لا تري من أفعالنا إلا ظاهرها الذي نعمد جميعا لأن نغلفه بعلامات التقوي أو بالتبريرات المقدمة التي نحاول أن نجعلها تسبق أفعالنا حتى نزيل الشكوك عن نو ايانا...إنها النية التي تشكل باطن الفعل ولا تظهر للناس أبدا مهما كانت علامة الأيمان أو مؤشرات الكفر لإن النية ليست حكرا علي المؤمنين فقط بل هي منحة إلهيه وهبها العزيز القدير لكل عباده المؤمن منهم والكافر لنجد أن الكافر قد يأتي بفعل أهل الإيمان وفي نيته أنه يقصد بهذا العمل وجه الله الكريم فيتقبل منه حتى وهو لايري منه إلا مظاهر الكفر.

أرسل النبي صلى الله عليه وسلم سرية لتأديب أهل فدك علي رأسها غالب بن فضالة الليثي وفيها أسامة بن زيد (الحب إبن الحب كما كان يسميه رسول الله)، وبينما كانت المعركة دائرة هجم عليهم أحد الكفار وأخذ يقتل في المسلمين، فأنبرى له أسامة، ففر منه الكافر واختبأ خلف شجرة، فتبعه اسامة حتى لحقه ورفع عليه سيفه ليضربه فقال الكافر (أشهد أن لا إله إلا الله)، إلا أن أسامه هوى عليه بالسيف فقتله، ظنا منه أنه قد أعلن إسلامه ليتعوذ من القتل وينجو بنفسه. وعندما رجعت السرية إلى النبي صلى الله عليه وسلم أخبره الصحابه بما فعل أسامة، فناداه فقال: يا أسامة قتلته بعد أن قال لا إله إلا الله ؟ فقال: (يا رسول الله إنما قالها لينجو بها من القتل) فقال صلى الله عليه وسلم وهو غضبان: (هلا شققت عن قلبه).

قال أسامة استغفر لي يارسول الله فرد عليه النبي حزينا قتلت رجلا يقول لا إله إلا الله كيف انت إذا خاصمك يوم القيامة بلا إله إلا الله... ؟! فقال اسامة: يارسول الله إنما

تعوذ من القتل، فقال له الرسول: هلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها خوفا أم لا وظل النبي يردد امامه وهو حزين أقتلت رجلا يقول لا إله إلا الله حتى قال اسامة: وددت أني لم أكن اسلمت إلا يومئذ حتى يجب إسلامي عظيم ذنبي، ثم استغفرله المصطفي .صلي الله عليه وسلم .وأمره بعتق رقبة.

هلا شققت عن قلبه...!!

هذا هو المفتاح الذي يعطينا أياه رسول الله وهو الذي لاينطق عن الهوي، لكي نستطيع أن نعلم نو ايا الناس من حولنا إن نحن إرتبنا في كلمة يقولونها أو فعل يأتون به ووقع في قلوبنا أيمانهم أوكفرهم. هكذا أخبرنا الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم بأن كل ما يقع في قلوبنا من كلام أو أفعال أوحتى همزات الناس من حولنا إن هو إلا تصور بشري قاصر لما عقلناه ولكن هذا لا يعني أبدا أن هذا هو صحيح كلامهم أو أفعالهم لأن نو اياهم لا يعلمها إلا الخالق العزيزوهذا هو بيت القصيد.

من إدعي لنفسه الأيمان... فربه أعلم به، ومن أدعي علي غيره الكفر... فربهما أعلم بهما المدعي والمدعي عليه لإن علامات الأيمان لاتثبت الأيمان لصاحبها وإلا ماكان أول من يسعر بهم الناريوم القيامة هم قارئ القرأن والمتصدق والشهيد كما وأن علامات الكفرلاتثبت الكفرعلي صاحبها وإلا ما تمني أسامة بن زيد الحب إبن الحب أن يسلم بعد وقعته هذه حتى يجب الله سبحانه خطيئته بعد أن شعربعظيم ذنبه عندما إفترض سوء نية الرجل فقتله بنيته ولم يأخذه بظاهرقوله. لقد أعطي أسامة لنفسه الحق في أن يقف من الرجل موقف القاضي ليقضي فيه بالقتل بناء علي نيته التي إفترض فيها الخداع...فماذا ترك أسامة للعزيز القدير إذ هو أحل نفسه محل القاضي ليحكم بما وقر في قلبه من باطن النية ويترك ظاهرقول الرجل الذي يمنعه منه.

هلا شققت عن قلبه... !! هذا هو مربط الفرس... العقل يقنع والقلب يصدق قناعتنا حتى نحاسب علي أفعالنا وفق ما وقر في قلوبنا. إذا فهي القناعة بما يأتينا من أراء وإجتهدات وفتاوي بغض النظر عن صحتها لإن كل منا سيحاسب بما وقر في قلبه من صحة وخطأ ما يأتيه فإن و افقت أعمالنا نو ايانا كان لنا الفلاح حتى وإن شكك الناس في نو ايانا، وإن لم يتو افقا كانت أعمالنا علينا وبالا حتى وإن كان في ظاهرها منتهي الأيمان.

عندما ننتوي فعل صالح العمل فإنه يجب علينا أن نتجرد من طبيعتنا البشرية التي ترغب في رؤية نتائج أعمالنا في التو واللحظة سواء كانت هذه النتائج متمثلة في المردود الإيجابي لأعمالنا أو علي أقل التقدير في إستحباب الناس من حولنا لما نفعله وإستحسانهم لصلاح أعمالنا إن كنا حقا نرغب في أن ننال الثواب من الخالق أو إن كنا نرجو أن نكون ممن سيتغمدهم الله برحمته يوم لن ينفعنا شفاعة الشافعين.

ولكن التجرد من هذه الطبيعة البشرية هو أمر بالغ الصعوبة لإننا في النهاية بشر يحكمنا هوي النفس الذي يزين لنا أعمالنا لنعجب بما قمنا به من خير فتتملكنا شهوة التفاخر بأفعالنا أملا أن يعجب الناس بأعمالنا، وهو ما قد يعكر صفو نو ايانا ويجعل من أعمالنا ولو صلحت وبالا علينا إن لم تصلح نو ايانا لإن الله لايرضي من أُعمالنا إلا ماخلص منها لوجهه الكريم بل أنه جعل من الأعمال التي يشوبها شبهة الرياء مدخلا للشرك الأصغر، وذلك عندما نشرك غيرنا من العباد في تقييم أعمالنا وإستحسانها فتذهب النيه بأجر العمل وتجعل من العمل الصالح باطلا وسبيلا إلى جهنم والعياذ بالله. و العجيب في الأمر أن المتفاخر بزهده وصالح عمله يستوي مع المتفاخر بماله ونسبه وملبسه لإن العبره ليست في علة التفاخر ولكن العبرة تكمن في وقع التفاخر علي النفس.

عندما رأي الفاروق عمر أحد الزاهدين يسير في المدينة بلباس رثه منحني الظهر وتبدو عليه علامات الضعف وقلة الحيله نهره ووبخه وقال له ((مابك تسير منحنيا هكذا وتضع وجهك في الأرض وقد أعزك الله بنعمة الإسلام وجعلنا أعزاء بديننا... والله إن الإنسان ليختال بزهده كما يختال بعزه وقوته وكلاهما في الرياء بما تضمره أنفسهم سواء)). هكذا رأي عمر من جعل من دينه علامة ليستدل بها الناس علي ورعه، آية من آيات الرياء مثله كمن جعل من عزه وجاهه علامة تدل الناس علي قوته وثر ائه لأن الصحيح أن الناس تستدل علي دين الفرد من معاملته لهم لا من آيات الورع والزهد التي يحاول أن يصبغ بها شكله وملبسه وكأنه يطلب من الناس أن تستحسن عمله وتتقبله أيا كان لإنه قدم لنفسه بعلامات الزهد و أيات الورع وهذا هو الرياء بعينه.

إنها حقا هذه الطبيعة البشرية المتأرجحة بين الطبيعة الأبليسية المتفاخره بطبيعتها وعلمها علي من هم دونها والتي جعلت أبليس عليه لعنة الله لم يتو اني في أن يتكبر علي أمر الله سبحانه ويتفاخر بطبيعة خلقه علي من أمره الخالق بأن يسجد له، وبين الطبيعة الملائكية التي تدفع هؤلاء الكائنات النور انية لأن تفعل ماتؤمر به إبتغاء مرضاة الله فقط

ولاتنتظر الأجر والثواب إلا من الخالق فقط. وبين هذا وذاك يقبع إبن أدم وهو يرجو رحمة الله وغفر انه ليدخل بها الجنة ولكنه لايزال يسعي لإن ينال إستحسان المخلوقات لإفعاله و إقرارهم برجاحة عقله وصواب عقيدته حتى ولو أفسد هذا الإستحسان صلاح نيته لإنه مهما بلغ من درجات الإيمان.. لن يكون إلا بشرا.

ومن أجل أن يقر المولي سبحانه هذه الطبيعة البشرية التي جبلنا جميعا عليها ويجعل منها أساسا لمحاسبتنا يوم القيامة من كوننا مختلفين ومتفاوتين في درجات الأيمان والعلم والثراء والصبر بل ومتفاوتين في درجات التعقل والإستيعاب والفهم أيضا، فقد كان لابد من وجود مرجعية دنيوية يمكن القياس عليها لتحديد صحة أو خطأ أفعالنا حتى يتحقق العدل الآلهي يوم الحساب فلا يستطيع أحد أن يقول أنه لم يؤتي من العلم ما جعله يخطئ في إختياره أو في قراره أو أفعاله.

ولم تكن هذه المرجعية أبدا إلا الدين الذي خلقه الله و أنزله علي البشر منذ خلقهم بل وجعله أمانة في أعناقهم وأخذ منهم العهد علي الإقرار به منذ الآزل. لقد جعل الله الدين أمرا من أمور الفطرة التي يهتدي إليها الإنسان بمجرد أن يتفكر في أمر خلقه أو خلق السموات والأرض أو الشمس والقمر. إنها الفطرة التي نستدعيها بمجرد إعمالنا للعقل وإطلاق العنان لأفكارنا لنعلم أنه لم يكن يوما ما كان لو لم يكن هناك خالقا عظيما رفع السموات بغير عمد وسوي الأرض ومهدها ليستوي لنا العيش عليها وجعل من الجبال أوتاداً لتثبت لنا هذه الآرض لحين ينفخ في الصور.

ولكن هل جميعنا يستطيع أن يصل إلى حقيقة وجود الخالق إذا ما تفكر في أمر الخلق؟ هل يمكن لنا جميعا أن نكون مثل سقراط الذي قنع أن للكون رب يديره فجعل أخر قوله بعد أن أجبر علي إحتساء السم هو: المجد لمهندس الكون الأعظم

لقد ذهب البعض إلى إطلاق العنان لأفكارهم بما جعلهم يتصورون أن الكون ليس الا تركيبة فيزيائية من نتاج الطبيعة وأن وجود الكائنات في هذا الكون ليس سوى تفاعل بين عدة عناصر أدت إلى ظهور الأحياء ومن ضمنها الأنسان لأنهم إعتقدوا أنه ليس هناك متصرف ولا خالق لهذا الكون وما يعيش عليه من كائنات، وهو ما لانستطيع أن ننكره عليهم من حقهم في البحث عن أصل الأشياء للوصول إلى نظريات النشوء والتطور كما يحلو للبعض تسميتها والتي أوصلت البعض منهم لأن يضعوا لنا تصورا فيزيائيا عن بداية

الخلق منذ مليارات السنين حين توصلوا إلى ما يسمي بعلم (الكوسمولوجيا) وهو ما يمكن قبوله كنظرية علمية أو مبدأ بحثي ولكنني أعتقد أن قبوله كعقيدة دينية ينافي فطرة الإنسان في العموم ويناقض طبيعة خلقه.

لقد خرج علينا علماء الكوسمولوجيا بنظريتهم عن الخلق ونشأته وتطوره ليخبرونا أن الكون قد ولد قبل 15 مليار سنة ضوئية من انفجار لايمكن تصوره (BIG BANG THEORY) حيث تخبرنا هذه النظريه أن الكون قد بدأ من لحظة (رياضية) متفردة إنهارت معها كل قوانين الفيزياء، فإنعدم الزمان وإختفي المكان، وتوقفت القوانين عن العمل، ولم يبقى أي أثر للمادة أو الطاقة .

لقد قنع الكوسمولوجيين أن كل الكون كان مضغوطاً في حيز أقل من بروتون واحد، ثم انفجر في أقل من سكستليون من الثانية (عشرة مرفوعة الى قوة 36) على شكل طاقة مهولة ثم برد فشكَّل كل المجرات ؛ فبدأ المكان في التشكل، والزمان في الحركة، والقوانين في العمل، والمادة في الظهور، والطاقة في التألق، وقبل 530 مليون سنة تدفقت العديد من الخلايا لكي تدب على المعمورة، وقبل 200 ألف سنة بدأ الانسان الحديث الزحف من شرق أفريقيا ليسكن كل أرجاء المعمورة .

إننا هنا لا نجادل الكوسمولوجيين في معتقداتهم ونظرياتهم وتصوراتهم عن الخلق ونشأته وتطوره مع إقرارنا بعدم تصديق ما يدعون، إلا أن هذا ليس بموضوع هذا الكتاب ولكنني سأسأل سؤال واحد فقط وسأترك تصور الإجابة لكل من يقرأ هذا الكتاب لكي يتأكد مما أدعيه أن مجرد التفكر في الخلق يجب أن يهدي إلى وجود الخالق القدير.

لقد أقر الكوسمولوجيين أن الكون كله بما عليه من كائنات نتج بعد هذا الإنفجار الهائل الذي إستمر لإجزاء من الثانية ثم هدأ في أجزاء من الدقيقة وبرد في أجزاء من الساعة والسؤال الذي يحتاج إلى إجابة هو عن من كان يدير هذا الكون وقت الإنفجار ومن أبقي السماء مرفوعة بحيث لم يصلها أذي من الإنفجار وتبقي سليمة إلى يومنا هذا . أو دعوني أسأل بوضوح...من الذي أدار عملية الإنفجار نفسها لو كانوا يعقلون؟

لقد إتفقت كل العقائد السماوية والإنسانية علي وجود الخالق مهما تعددت صوره وأختلفت دلائل وجوده بإختلاف الديانات لنجد الإله المتفرد الواحد الأحد الذي تقربه

كل الأديان السماوية وقد أقر به أيضا كفار قريش عندما أقروا بأنهم كانوا يعبدون أصنامهم لتقربهم لله زلفي. إذا هم يعلمون أن الله كان ولايزال موجودا ولكنهم أرادوا أن يشركوا مع الله من صورت لهم عقولهم أنهم سيقربونهم لله... وهذا هو قمة التخلف المنطقي عندما نرفض أن نتبع رسول الله المزود بالآيات لكي نتبع أوثان لا تمتلك أية واحدة تقر لها بالربوبية.

إلا أن المؤكد أن كل العقائد الإنسانية قد أوجدت لأنفسها مرجعية ربوبية حتى تستطيع أن تعول عليها عندما تصطدم بأمر الخلق أو بأمر القضاء والقدر أو بأمر الغيبيات التي لا تجد لها ردا منطقيا ويدخلها في دائرة الجدال التي قد تهدم أساس العقيدة فنجد مثلا الديانة الهندوسية وهي الديانة التي تتنوع مفاهيم الإله فيها من التوحيد إلى التعددية، ومن وحدة الموجود إلى وحدة الوجود، ومن الواحدية إلى الإلحاد ولكنها في النهاية قد جعلت من الإله فرض عين علي كل فرد وأمرت تابعيها أن يجد كل منهم الإله في داخله ليسمو بروحه - النفس الحقيقية – وصولا إلى التوحد مع البراهمة وهي ما تعتبرها الديانة الهندوسية الروح الأسمي التي يدور الكون في فلكها. حتى هذه الديانات القائمة علي التعديدية الربوبية نجدها ترجع أمرها إلى الآله الأوحد الذي تنتفي عنه صفة اللامعقول وتقبل منه كل الغيبيات التي لا يستطيع العقل فهمها.

كما أن الفراعنة القدامي إتبعوا نفس المبدأ عندما جعلوا من الآله الحاكم مثل رع أو أمون في بعض الأوقات أو أتون في أوقات أخري هو الإله الذي تجتمع له القوة وتقر له كل الألهه بالربوبية فلايصح حكم إلا بمباركته ويصبح كهنته هم أرباب الدين في الأرض لإنهم القائمون علي شريعته، الداعيين إلى سيادة ربوبيته علي باقي الأرباب.

كل هذه العقائد الإنسانية التي تشكلت علي مر التاريخ من ممارسات وطقوس العقائد والتقاليد التي ترسخت في ضمير أمة من البشر لتتأرجح بين الإقرار بوحدانية الخالق وبين الإقرار بالحق في وجود ألهه تتناول مهامها التي أوكلها لها الإله القدير، كل هذه العقائد أقرت بوجود الإله القدير الأوحد لإن هذه هي فطرة الإنسان التي تريحه وتجعله يستطيع أن يلقي أعبائه اللامنطقية علي هذه الفكرة من ضرورة وجود خالق قدير عظيم إستطاع أن يخلق هذا الكون بهذا القدر من الإبداع وأن يسيره بهذه القدرة التي لايقدر عليها إلا هو فقط.

إنها هذه المعضلة التي تنتاب أي عقيدة إنسانية عندما تصطدم بو اقع الغيبيات التي تتحكم في مصائرنا وفي روحانياتنا التي تتجه بنا كالبوصلة ناحية الحياة الآخري حيث يأمل خيرها كل إبن أدم المسلم واليهودي والمسيحي والبوذي والهندوسي والزرادشتي بل ومن ليس علي الملة، الكل يأمل أن تكون له الحياة الآخري كما يرجوها في حياته الدنيا مشبعة بالنعيم والخيرات ومليئة بوسائل الراحة وأدوات المعيشة التي لم تخطر علي قلب بشر.

لقد خلق الله لنا الدين حتى يعطي لحياتنا بعدا غيبيا يظل دائما في مخيلتنا ونحن نستمتع بملذات الحياة لنبقي دوما طامعين في أن تكون الجنة هي المقام إذا ما إنتقلنا إلى الحياة الآخري وأن لا تكون النار أبدا هي الجزاء. والغريب أن هذا الحلم لم تحتكره ديانة واحدة أبدا بالرغم من التعارض الحادث بين الديانات عبر الأزمنه المختلفة وبالرغم من الحروب التي قامت بين أتباعها والمناظرات العلمية والفقهيه التي إستهدفت إثبات صحة دين وخطأ الآخر، إلا أن جميع هذه الأديان إشتركت جميعها في تبشير متبعيها بالجنة إن هم فقط صدقوا في دينهم كما أنها جميعا أيضا إشتركت في تنفيرهم من النار إن صحت نو اياهم وصدقوا أن خلاصهم في تصديقهم.

ولكن إبن أدم كان ولايزال هو هذا الإنسي الذي يريد أن يحصل علي كل شئ وأن يتنعم في الحياتين فنراه وهو يعيش في حالة من الإنفصام العقائدي التي تجعله يتعوذ من النار ويرجو الجنه في الأخرة ولكن بدون أن يفقد جنته علي الأرض و يعمل جاهدا للحصول علي خيراتها التي يعيشها يوماً بيوم وهو يطلبها حثيثاً.

إذا...فهذه هي المعضلة التي لم يستطيع إبن أدم أن يجد لها حلا إلا أن يعيش ويتعايش معها وبها راجيا رحمة الإله القدير في أن يجعل من فضله سبيلا حتى لايقيم عدله علي عباده الخطائين... وكلنا كذلك.

نعم إنها هذه المعضلة التي تجعل من قدراتنا الفكرية والعقلية والتحليلية هي فقط المقياس عندما نكون في مقام تقدير أعمال وتصرفات غيرنا من البشر حسبما نري منها وحسبما نفترض من نو اياهم التي لانعلمها، ولكن علي العكس تماما، فإن العزيز القدير لايري من تصرفاتنا و أفعالنا وقعها وخيرها أو شرها كما يراها البشر، ولكنه يري منها فقط نو ايانا وما وقر في قلوبنا من التصديق بصحة مانفعله أو عدمه.

بل إن الأكثر من ذلك أنه سبحانه قد جعل من مقدار توجهنا بالعمل إبتغاء مرضاته سببا كافيا لقبول العمل حسب نيتنا حتى ولو أخطأنا في الفعل بمقياس البشر من حولنا.

ولإن النو ايا لايعلمها إلا الله سبحانه ولا يمكن لأحد الإطلاع عليها مهما بلغ من درجات العلم، لهذا خلق الله الدين ليتم الإحتكام إليه، كما أنه قد جعله متدرجا بين الأمم فبدأ بالحنيفية علي يد الخليل إبراهيم عليه السلام وهي تدعو إلى التوحيد لتكون هي الدين الأم الذي يأتي من بعده كل الأديان السماوية ينتسبون إليها ويتفرعون منها بل ويختلفون علي تبعيتها ولكنهم في النهاية ينتمون جميعا إليها ويتنازعون هذا الفضل بينهم.

ومن بعد إبراهيم عليه السلام أتي قوم يؤمنون بالله ولايختلفون علي ذلك ولكنهم عصوا وبعدوا عن الدين بأفعالهم لا بتصديقهم فكان لابد من أن يرسل الله لهم موسي عليه السلام ليضع الأحكام وليجعل من الدين منهجا وشريعة وعبادات لقوم صدقوا في الله بحق ولكنهم إبتغوا الدنيا فبعدت بهم أعمالهم عن إيمانهم.

وبعد أن أرسي الله الدين وأركانه علي يد موسي عليه السلام، وأصبح هناك عماد للدين يتم الإحتكام إليه فيعلم صحيحه وينكر باطله، كان لابد لبني أسر ائيل الذين طغت عليهم المادية في الفكر والتطبيق أن يعيدهم الله إلى الروحانيات التي إفتقدوها أثناء سعيهم وراء مكاسب الدنيا بعدما صدقوا أنهم أبناء الله وشعبه المختار المعصوم، فكانت دعوة عيسي عليه السلام لتعيد إلى المؤمنين بعضا من الروحانيات التي إفتقدوها عامديين.

حتي أتت الرسالة الخاتمة الجامعة الشاملة علي يد سيد المرسلين محمد بن عبد الله صلي الله عليه وسلم لتجمع كل ما سبقها من رسالة التوحيد الحنيفية والشريعة الموسوية المادية التكاليف (العهد القديم) والرسالة المسيحية التي تسمو بالروح فوق سطوة المادة (العهد الجديد) . أتي دين الإسلام جامعا متتما للدين منذ بدء الخليقة وحتي تمام الوحي علي النبي محمد صلي الله عليه وسلم ليبقي إلى يومنا هذا محفوظا في كتاب تعهد الله سبحانه بحفظه عندما قال ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾.

وتكمن الحكمة في تدرج الدين كما أسلفنا في تدرج الخلق وتدرج تطور العقل البشري بما وهبه الله سبحانه من تدرج في وسائل المعيشة والقدرات المعرفية والأساليب التحليلة والنظريات العلمية وبالتالي الإنجازات والإبتكارات التي جعلت من مستحيل الأمس و اقعا

لايمكن الإستغناء عنه اليوم. لقد كان الأوائل يسخرون من أي إنسان يتحدث عن إمكانية أن يطير الإنسان أو أن يتمكن من الإنتقال من مكة إلى المدينة مثلا في مدة تقل عن الثلاثة أيام، فإذا بنا اليوم في ظل وجود السيارة نستطيع أن ننتقل من مكة إلى المدينة في أربع ساعات وفي ظل وجود الطائرة يمكن قطع هذه المسافة في ساعة واحدة. تري ماذا كان يمكن أن يكون رد أهل قريش إذا أخبرناهم أننا ننتقل اليوم بين مكة والمدينة في أربع ساعات بدلا من أربعة أيام... هل سيزيدهم ذلك أيمانا أم أنهم كانوا سيذهبون بسخريتهم إلى مدي أبعد فيقولون طالما أسري بمحمد من مكة إلى المسجد الأقصي في ليلته فلما لا يخبرنا أتباعه أنهم يقطعون المسافة بين مكة والمدينة في أربعة ساعات... !!

إنه هذا التدرج في المعرفة والتدرج في قبولها أيضا هو الذي يجعل من غيبيات الغد مقبوله في حينها وإلا كان الدين عبئا علي عقولنا. فإن كان البشر وقت نزول الرسالات لم يستطيعوا أن يقبلوا غيبيات الآخرة التي هم علي يقين أنهم لن يعيشوها في حياتنا هذه، فما بالكم لو نزل الدين بغيبيات الحياة أيضا صريحة واضحة، فهل كان سيؤدي ذلك إلى إيمانهم أم إلى نفورهم.

لقد تدرج الله بالدين منذ خلق أدم عندما علمه الأسماء كلها حتى يفهم ما يلقي إليه من علم وحتي يُذهِب عن العقل علة عدم الفهم لإن المسميات لا تعرف إلا بأسمائها التي نعلمها وإلا لما علمنا المسمي إذا ما جهلنا الإسم. لهذا علم الله سبحانه أبو البشرية الأسماء كلها حتى ينتفي عنه وعن بنيه الجهالة. ومن ثم تدرج في إنزال العلم حسب ما هو متاح له من إمكانات علمية وقدرات عقلية تتيح له تقبل هذا العلم وبالتبعية فقد تدرج أيضا في إنزال الدين مرحلة تلو الآخري بما يتماشي مع قدراته ومتطلباته حتى لا يتم رفض الدين بحجة عدم توافقه مع المعطيات الدنيوية التي يحيا بها الإنسان في وقتها.

حتي عندما تكلمت الأديان عن الأمور المستقبلية من معطيات الحياة جعلتها في شكل النظريات التي يثبتها التقدم العلمي والتطور التكنولوجي بما يدعم صحة العقيدة وقت إثباتها ولكن الأديان لم تتطرق إلى هذه النظريات بشكل مباشر حتى لاينفر منها المتلقي، وهذا من عظيم حكمة الخالق.

إذا فالتدرج في تنزيل الدين علي مراحل كان حتميا بما يتناسب مع درجة إستيعاب المتلقي لإن العطية تكون علي قدر المتلقي لا علي قدر المعطي. فلو أن أحد الملوك قرر أن يغدق

من عطيته علي أحد رعاياه بما يملكه فقرر أن يعطيه نصف كنوزه وكان المتلقي من غير ذوي العلم ولا الثقافة ولا المعرفة المالية ولا الإدارية ولا الإقتصادية لفسد بما أتاه كما ستفسد العطية نفسها لإنه سيتعامل معها بسفه من لا يملك العلم ولا القدرة علي إدارة هذه الثروة وهنا تصبح المنحة نقمة علي المعطي وعلي المتلقي سويا.

وكما تدرج الدين في التنزيل، تدرج بنا الله أيضا في الخلق، فقد خلقنا الله أمم مختلفة وجعل من الإختلاف سنة الله في خلقه . يقول عز من قال ﴿ **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ . إذا فإن الإختلاف في الخلق هو سنة إلهيه لا يستطيع بشر تغييرها أو العمل علي تبديلها لإننا هكذا خلقنا، مختلفين في الخَلق والخُلُق، مختلفين في الدين والعقيدة، مختلفين في درجات العلم والجهالة، مختلفين في الثراء والفقر، مختلفين في كل شئ وهكذا أرادنا الله سبحانه ولو كانت مشيئته أن يخلقنا جميعا أمة واحدة تتشابه في درجات الأيمان والعقل والثراء والثقافة والمعرفة، لما صعب عليه ذلك ولما أوكل هذا إلى أحد من خلقه لإنه هو من بيده كل شئ بأمر كن فيكون.

فإن كان الأمر كذلك، وإن كان أمر ديننا وعقيدتنا قد أوكله الله سبحانه إلى ما أنعمه علينا من نعمة العقل ليحاسب كلا منا علي قناعته قبل عمله وعلي نيته قبل فعله، فلماذا يقبل أحدنا التخلي عن هذه النعمة التي فضلنا بها العزيز القدير علي باقي مخلوقاته من نعمة العقل والتدبر ليترك أمر دينه ودنياه في يد بشر أخر مهما وصل من درجات العلم وهو علي يقين أنه هو فقط من سيسأل عن عمله يوم موقف عظيم، وأن مرشده أو وليه أو إمامه لن يحمل عنه أوزاره أبدا لإن ﴿ كُلُّ نَفسٍ بِمَا كَسَبَت رَهِينَةٌ ﴾ .

والغريب أن الناس دائما ما يتذكرون من النعم والأوامر والأحكام الآلهية ما يريحهم فقط ويجعلهم مطمئنين لأفعالهم متناسيين عن عمد باقي هذه الأحكام. فنجد كل من يتصدي للفتوي وإلى إستنان السنن أو إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو يطمع في أن يصيبه من خير أعمالنا إن هو دلنا علي الخير ليصبح لنا شريكا في الخير لإن الدال علي الخير كفاعله وهذا من فضل الله علينا حتى يكثر لنا من الحسنات بما يساعدنا علي أن نرفع بحسناتنا هذه خطايانا الكثيرة. ولكن للأسف ينسي هذا المتصدي الشق الآخر من هذه المنحة الآلهية لإن من إستن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من أتبعها إلى يوم القيامة.

فكما سيناله من خير أعمالنا إن هو أصاب في دعواه وفي سلامة نيته من هذه الدعوة فإنه سيناله أيضا قسطا ليس بهينا من وبال سوء نصيحته وإعتلال سنته بل والأدهي من ذلك كله أنه سينال أيضا القسط الأكبر من وبال فساد نيته وحده ودون أن يشاركه في عذابه أحد، وذلك تصديقا لقول العزيز القدير ﴿ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ . إذا فالأمر ليس في أن كل منا سيحمل وزر عمله فقط، بل أن العزيز القدير سينبئنا أيضا يوم القيامة بما كنا فيه نختلف سواء عن قناعة أم عن مجادلة أم عن تكابر بالعمل أو تفاخر بالعلم.

إن هوس الإنسان بالزعامة والقيادة وحب السيطرة يدفعه في الكثير من الأحيان لأن يصدق بأن ما أتاه من علم إن هو إلا هبه ربانية تسمو به وبمكانته وتدخله في مكانة القديسين وأصحاب الرسالات التي تفني في سبيلها الأرواح وتنفق من أجلها الأموال ويجتمع عليها الأتباع حتى يكون لهذه الفكرة أو العقيدة مكانة الرسالة الآلهية التي يجتمع عليها البشر سواء من إقتنع بها فيدخل فيها بسلام أو من لم يقتنع بها فيحمل عليها حمل.

ولكن كل هذا ليس إلا هوس يتملك من صاحب هذا الفكر كما يتملك من كل واحد فينا لإننا جميعا مؤمننا وكافرنا و أبيضنا وأسودنا نعشق الزعامة ونحلم بقوة المنصب وجاه القيادة وكل منا يتخيل نفسه وهو يشير للناس من حوله لكي يفعلوا مايطلبه منهم وهم ينقادون نحو طلبه كالدميه في يده يحركها كيفما يشاء. إن هذه الرغبة هي من أصل الخلق كما أسلفنا أن الله سبحانه وتعالى عندما خلق الرزق فقد وقف كل إنسان ينظر لمن حوله ولم يقنع بما أتاه الله مهما كان فيه من بسطه ولكن عندما خلق الله العقل وأعطاه لإبن أدم فقد ذهب كل واحد بعقله وهو علي قناعة أنه قد أوتي وحده العقل الراجح الذي لاينازعه في رجاحته أحد فلم ينظر أحد من بني أدم لعقل الآخر لإنه علي قناعتة التامة أن عقله...هو فقط العقل الراجح.

ومن البديهي، أن كل من كان علي قناعة أن عقله هو فقط الراجح وأن كل من حوله يجب أن يحسدوه علي هذا العقل الراجح الذي أعطاه أياه الله ولم يعطيه لأحد غيره من البشر - وكلنا هذا الرجل إذا ما تجردنا في تفكيرنا للحظات- فأنه سيكون متطلعا لأن يسبغ علي العالم من حكمته اللامتناهيه و أفكاره التي ستغير تاريخ البشرية ومبادئة التي ستوحد من عقائد ومذاهب الناس علي ما أتاه الله من صحيح العلم وبيان العقيدة التي لايتم الدين إلا بها ولا تصح العقيدة إلا لمن أتبعها.

وهكذا يبدأ أي فكر مذهبي وأي إتجاه عقائدي في السطوع علي البشرية...

شخص صدق في رجاحة عقله وقوة منطقه وصحة حجته، فعقد أفكاره في سلسلة تحليلية ليجعل منها نظرية فلسفية أو رؤية مجتمعية

فلما زادت قناعته بنظريه أو برؤيته، عمل عليها وطورها وعقد بينها وبين ما يناظرها من أفكار المقارنات ليجعل منها مذهبا عقائديا يصدق هو فيه أولا ومن ثم يدأ في الدعوة إليه.

فإذا ما إستجاب إليه البعض القليل من البشر وصدقوا في رؤيته وتبنوا عقيدته، أضاف كل منهم إلى أركان هذه العقيدة بما يجعلها أكثر تفاعليه مع الناس حتى يمكن جذب الأنظار وحشد الأتباع .

وحين تبدأ هذه العقيدة في تكوين الأتباع وحشد المريدين، يبدأ منظريها في عقد المقارنات مع غيرها من العقائد لبيان مناطق التقابل الكثيرة ونقاط الإختلاف الجوهرية التي لا تصح العقيدة بدونها

ومع بيان نقاط التقابل مع العقائد الآخري يبدأ ضعاف الإيمان في التوجه إلى العقيدة الجديدة التي تتشابه مع عقيدتهم الأولي في معظمها ولكنها تحوي بعض الخلافات البسيطة التي هي بالطبع جوهر العقيدة الجديدة ولب المعرفة... وهنا يحدث الصدام.

كل المذاهب والطوائف والنحل بل والأحزاب السياسية بدأت من نفس نقطة الإنطلاق... شخص صدق في صحة مذهبه وقرر أن يسطع به علي البشرية جمعاء ليس عن طريق بيان نقاط الإختلاف، بل عن طريق توضيح نقاط التوافق والإلتقاء مع المذاهب الآخري.

كل أصحاب الإتجاهات الفكرية والمذاهب العقائدية والحركات التحررية عمدوا بادئ ذي بدء لإن يثبتوا توافقهم مع المجتمع لإنهم جزء من هذا المجتمع وأن مذهبهم ما هو إلا نفحه ربانية أضاءت عقل صاحب هذا المذهب في ناحية من نواحي الحياة ومنها جاء إلى البشرية بمذهبه وعقيدته وحركته بما لايصطدم - في البداية - مع المجتمع من أُفكار ثورية يرفضها كل المجتمع ولكنه قد يختلف معه في بعض النقاط التي من أجلها سطع بمذهبه والتي تمكنه من جمع بعض الأتباع حتى تقوي به شوكته ويعزبهم مذهبه فيبدأ في معاداة المجتمع.

فقط الرسل والأنبياء هم من صح لهم أن يقفوا أمام مجتمعاتهم و أقوامهم وهم يطالبونهم - وهم فرادي - بالتغيير الجذري في معتقداتهم و أفكارهم بل وينكرون عليهم سبل معيشتهم إن هي تنافت مع دين الفطرة وخُلقُه. فقط الأنبياء والرسل هم من تحدوا وحدهم الملأ من أقوامهم كما فعل نوح وهود وصالح و إبراهيم ولوط وشعيب وموسي وعيسي ومحمد وغيرهم ممن علمنا وممن لم نعلم عليهم جميعا السلام .

فقط الأنبياء والرسل هم من تحدوا المجتمع بحركاتهم ودعوتهم الثورية التي كانت تواجه المجتمع بكل مافيه من رموز القوة والغلبة والسلطان لإنهم كانوا يعلمون علم اليقين أنهم مدعومون من العزيز القدير وأن وعد الله حق بأن رسله هم الغالبون. ولكن أيضا كان هناك الفلاسفة والمفكريين الذين كانوا يطلقون العنان لأفكارهم ليخرجوا علي البشرية بالنظريات التي صنعت حضارتها وشكلت وجدانها وصنعت مايسمي بالحراك الثقافي الذي كان ولايزال بمثابة المخاض الذي تولدت منه كل ما نعيشه اليوم من تطور ورفاهية في سبل المعيشة وتعددية في المرجعيات النظرية التي هي الأساس الذي بُنَيّت عليه الحضارة الإنسانية بكل صورها.

ولكن الفارق بين الفلاسفة وأصحاب الحركات المذهبية كبير وعظيم، فالفلاسفة كانوا يأتون بنظرياتهم وهم لايطلبون من أحد إعتناقها ولايسعون إلى تسويقها كحركة مجتمعية لإن كل همهم كان ينصب علي بيان أركان نظريتهم الفلسفية وتوضيح منطقها بغض النظر عن تطبيقاتها. أما أصحاب الحركات الثورية فإنهم يسعون إلى إستغلال أي فكرة أو نظرية أو عقيدة لكي يتمكنوا بها من تكوين جماعتهم التي تدين بالولاء لصاحب الحركة وفكره الثاقب ونظريته التي تعطي الأفضلية لأتباعه دون غيرهم في حين أن الأفكار الفلسفية كانت تعطي الأفضلية للمجتمع في مجموعه وللبشر في العموم إن هم فقط فكروا وعقلوا حتى ولو لم يعتنقوا هذا الفكر لإن كل الأفكار والنظريات الفلسفية تطلب منا أن نفكر وأن نستخدم عقولنا في تحليل وتمحيص هذه الأفكار للوصول إلى حد القناعة الكلية أو الجزئية أو حتى لحد الرفض، وهو ما لا يقلل أبدا من قيمة النظرية أو صاحبها بل يعطيها الثقل المطلوب لإنها نجحت في تحدي عقولنا ودفعنا لإن نفكر لنصل إلى النتيجة التي تناسبنا. أما الحركات المذهبية، فإن لم يصل بنا تفكيرنا إلى القناعة بصحتها لكي نعتنقها كمذهب أو عقيدة، فهذا يجعلنا من الر افضة لهذه العقيدة المطرودين من نعمة الإيمان بها المستحقين لجزاء الخارجين عليها.

إن دين كل الجماعات المذهبية منذ بداية الخليقة إلى اليوم يقوم في الأساس علي فكرة التصديق والإيمان في عقيدة الجماعة فقط ولايقبل أي مناقشة في أصولها الفقهيه التي وضعها مؤسس هذه الحركة في بداياتها ثم سار علي الدرب السدنة والمنظرين لهذا الفكر والذين يكتسبون مكانتهم المجتمعية وشهرتهم الإنسانية من خلال تصديهم للدفاع عن هذه العقيدة و إبطال ما دونها . بل أنني أعتقد بل وأجزم أن مثل هؤلاء السدنة المنظرين لفكر الجماعات علي إختلاف مذاهبها وعقيدتها أصبحوا يتكسبون من هذه السدانة التي أصبحت لهم مصدرا للدخل يحمل لهم من ترف للعيش ما لايوفره لهم مرجعيتهم التعليمية أو فرص العمل التي قد يوفرها لهم المجتمع إن هم تخلوا عن هذه العقيدة التي تم بنائها علي أساس فكر الأقلية الذين يجب دعمهم وتمييزهم ماليا ومعنويا وإجتماعيا حتى يستطيعون التصدي لكل من يحاول النيل من فكر ومكانة وعقيدة هذه الجماعة.

إن دين الجماعات في الأساس يتنافي مع أساس الخلق الذي جعل من عقل الإنسان هو المرجعية الوحيدة التي علي أساسها سيحاسبنا المولي عز وجل بما وصل إلينا من علم وبما عقلناه من هذا العلم وبما وقر في قلوبنا من الأيمان حتى تتحد نو ايانا مع أفعالنا. أما في دين الجماعات، فإن العقل ليس إلا أداة لرفض الآخر حيث يتم حشو عقول تابعيهم بأنهم فقط علي صحيح الأيمان وأن التشكيك في صحة عقيدتهم هو الباطل بعينه بالرغم من أن كل الجماعات قد خرجت علي البشرية من فروع العقيدة وليست من أصولها .

عندما إرتد العرب عن الإسلام لم يعلنوا أنفسهم كفارا، بل أعلنوا أنفسهم مسلمين في الأصل وإن أختلفوا في فرع من فروع الإسلام كما زينه لهم أنبيائهم المزيفين، فمنهم من رفض الزكاة ومنهم من إرتضي ثلاث صلوات بدلا من خمس ومنهم من إرتضي تحليل الخمر وما إلى غير ذلك بما أتاهم به أنبيائهم المزعومين من تخفيف بعض الدين حتى تجمع حولهم الأتباع فقوت شوكتهم وبدأوا في محاربة المجتمع في سبيل دعوتهم وهم يعتقدون أنهم هم فقط علي صحيح الدين وأن أبا بكر وعمرو وعثمان وعلياً والصحابة والتابعين- رضي الله عنهم أجمعين -من الضالين المضلين الذين يتوجب قتالهم وقتلهم لإعلاء ر اية دين جماعتهم.

وعندما بدأ الخوارج حركتهم ضد ذي النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه لم يحتسبوا أنفسهم من أعداء الإسلام، بل دعوا لأنفسهم علي أنهم من القراء حفظة القرآن وكانوا

وهم يحاصرون عثمان في منزله يصلون وراءه إماما ويقرأون القرأن في المساجد لإنهم كانوا من عموم المسلمين حتى وإن خرجوا علي عثمان لإنهم قد إختلفوا معه في فرع من فروع الدين عندما لم يرتضوا محاباته لقومه من بني أميه دون غيرهم من المسلمين. لم يعلن الخوارج عدائهم للمجتمع، بل أعلنوا عدائهم للحاكم وجعلوا من عدائهم هذا سببا وجيها لأن يحدثوا فتنتهم ويستحلوا دم عثمان وهو قائم علي مصحفه في شهر حرام، ثم يخرجوا علي المسلمين وهم يتفاخرون بقتله...!!

أي دين هذا الذي يقوم علي تغييب عقول أتباعه ليأتوا الباطل ويتفاخروا به وهم علي قناعة أنهم يحييون الدين ويقيمون أركانه وهم لايجدون حرجا من أن يتحدون المجتمع والقانون والعرف والتقاليد بل ويضربون بإجماع الناس من حولهم عرض الحائط لمجرد أن إجتمع لهم من غلبة الجماعة وقوة السلاح ما يجعلهم يتحدون المجتمع ليعيثوا في الأرض الفساد.

وعندما بدأ الإسلام في الإنقسام بين شيعة وسنة، لم يكن هذا الإنقسام في أصل الدين علي الإطلاق، بل كان إنقساماً سياسياً واضحا جليا حدث عندما تشيع بعض الصحابة والتابعين والمو إلى لآل البيت من أبناء علي بن أبي طالب وبقي البعض الآخر علي ولائهم لحكم من ولاه الجماعة وكلا منهم يعتقد في صحة قراره وعقيدته.

كلا الفريقين كان علي الإسلام يصدق في أن محمداً عليه الصلاة والسلام هو خاتم النبين وأن القرآن هو المرجعية الفقهية التي لم يختلف عليها أيا من الفريقين. ولكن عندما إحتد الصراع وزادت الفرقة وعلت سطوة أتباع معاوية وأصبح له من التمكين في الحكم مايجعله يستبيح دم كل من يجهر بتشيعه حتى أن الناس كانت لاتمانع أن تدعي بالزندقة علي أن تدعي بالتشيع من فرط بشاعة التنكيل بكل من كان يثبت عنه التشيع. فلما أخذ الصراع السياسي بين فريقين من المسلمين هذا المنحني من العنف، بدأت كل جماعة في تديين سياستها لتعطي لجماعتها الوصاية الدينية التي توفر لها الحماية المجتمعية ضد ثورة الشعوب التي لاتثور علي من كان يحكم بأسم الدين.

ومن هنا بدأت كل جماعة في البحث عن الأسانيد الفقهيه التي تدعم قضيتها وتساند مطالبتها بالحكم وهو ما لم يكن ممكنا في ظل وجود كتاب الله المحفوظ والذي يجتمع عليه الفريقين. لهذا بدأت كل جماعة في البحث عن مسند الأحاديث التي تدعم الولاية

لعلي و أبناؤه من جهه، أوعن مسند الأحاديث التي تدعم صحابة رسول الله وتساوي بينهم ولاتجعل الحكم حكرا علي آل البيت. وهو ما جعل علماء كل جماعة تجتهد في جمع الأحاديث كلا حسب مسنده لإن الأحاديث النبوية كانت هي الشارح المتمم لكمال الدين ولكنها لم تتمتع بميزة الحفظ الرباني الذي تمتع به القرآن. فمن هنا بدأت كل جماعة في أخذ مايو افق دعوتها وتثبته وتجعل منه مسندا لدعوته بل وتعلي من قدره حتى يصبح من تمام الدين الذي لايصح الدين بدونه.

من أصل واحد هو الإسلام، وبكتاب واحد هو القرآن بدأ الإنقسام بين جماعة المسلمين ليدعي كل فريق أنه هو فقط صاحب الحق في الحكم. ولما كانت الغلبة لفريق علي فريق، بدأ كل فريق في دعم أحقيته من خلال الفرع الذي يُمَكِن كلا الفريقين من تقوية أركان دعوته وجمع الأتباع من حوله حتى يتم له التمكين. هكذا هو الحال مع كل الجماعات والفرق المذهبيه منذ بدء الخليقه وحتي يومنا هذا. هكذا هو الحال لكل من خرج بدعوة ظاهرها الدين وباطنها السياسة ولا يرضي إلا بالتمكين في الحكم مهما إختلفت عليه وبه الأمه.

هل تفرقت الشيعة علي جماعات ترفض كل الإسلام؟ أم أن كل الفرق الشيعيه قد تفرقت علي إستحقاق الإمامه في العموم والبعض في بعض المبادئ التي جعلتها منهاجا لها تسيرعليه لكي تحمي عقيدتها مثلما إتبع البعض مبدأ التقيه و إتبع البعض الأخرمبدأ القعود بينما إتبع البعض القليل مبدأ الإستحلال.

وعلي درب الشيعة سارت جماعات السنة عندما تفرقت فيما بينها علي ما يضمن لها التمكين من أمر دعوتها. لم تتبع الجماعات من أهل السنة مبدأ التقية أو القعود كما إنتهجت ذلك الطريق جماعات الشيعة، ولكن معظم جماعات أهل السنة بدأت من نقطة واحدة (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر). كل الجماعات التي خرجت من تحت عباءة المذهب السني جعلت من أمر الدعوة أساسا للعقيدة وقامت جميعها بإختزال مجمل الدين في الدعوة إليه والأمر بصحيح ماجاء فيه والنهي عن باطله وفق منهجهم وشريعتهم وعقيدتهم.

لقد خرجت فرق الشيعة من تحت عباءة الثورة علي الحكم، لهذا كان فكر التقيه هو الأقرب لعقيدتها لكي تضمن لنفسها البقاء في ظل وجود فرقة أخري مناهضة لها تسيطر

علي الحكم بل وتهدف للقضاء عليها . أما الفرق السنية فقد خرجت من تحت عباءة الحكم الذي كان إلى زوال بإنهيار دولة الخلافة العثمانية التي كانت تنتهج عقيدة أهل السنة مثلها مثل كل عصور الخلافة التي سبقتها، فلما إنهارت دولة الخلافة الإسلامية كان ذلك هو المحرك الأساسي لتوليد هذه الفرق والجماعات منذ بدايات القرن الماضي والتي لم يناسبها إنتهاج فكر التقيه بقدر ماكان يناسبها جميعا فكر الدعوة إلى عقيدتها لإثبات أحقيتها في التواجد علي الساحة السياسية من خلال تواجدهم المكثف في الشارع ومخاطبة البسطاء بلغة الدين التي لايستطيع أحد مهما كان أن ينكرها أويجحدها سواء كانت من عالم فقيه في الدين أو داعية متفقه متمكن من مفرداته اللغوية ويجيد فن الخطابة ويعلم كيف يلعب علي الطبيعة البشرية عن طريق إستدعاء الأحداث التاريخيه ووضعها في شكل قصصي ليتلقاه المستمعون فإذا ما أبدوا إعجابهم بما يقصه عليهم كان من السهل وضع العبر والحكم داخل هذا الإطار القصصي ومن ثم التحول بالمسار إلى الترغيب في الدين ثم الترهيب من العصيان وهذا هو أول طريق الدعوة التي يستطيع بها أي داعية جمع الناس من حوله.

حتي إذا إجتمع حول الداعية الكم الكافي من الأتباع الذين تلقوا علمهم ومعرفتهم الدينية من داعيتهم وصدقوا أنهم علي قدر من العلم يجعلهم هم الأوصياء علي الدين حاملين لواء نصرته المكلفين من العزيز القدير بنشر دينه تتثبيت أركانه والمفوضين بمحاربة كا من خرج علي ملتهم التي هي فقط صحيح الدين. حينئذ فقط تبدأ الجماعة في إطلاق دعوتهم إلى العلن من خلال إعلاء فرض الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي لا يصح الدين بدونه ولايكتمل الدين إلا به.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند هذه الجماعات درجات تبدأ من جهاد القلب وهو ما تستوجبه العقيدة عندما لايكون هناك سبيلا لإعلاء الحق بالكلمة أو بالقوة فوقتها لا يملك الإنسان إلا الدعاء بالهداية وهو ما يمثل أضعف الأيمان حسب حديث الرسول صلي الله عليه وسلم. ولكن إن كان هناك سعة في المجتمع لقبول صوت الآخر وسماع دعوته، فهذا يستوجب الإنتقال بالدعوة إلى المرحلة التالية من جهاد الكلمة المتمثلة في الدعوة الخطابية وتتطلبه من بلاغة الحديث وعذب الكلام وسهولة المنطق بالإضافة إلى بعض المعرفة الفقهية وخاصة في أمور المتشابهات التي تختلط علي العامة ولكنها تستهويهم حيث تجعل من التواصل مع العامة صيدا سهلا.

وعندما تشتد شوكة الجماعة ويصبح لديها من الغلبة والأتباع والقوة ما يمكنها من مواجهة المجتمع، فإنها تصل بدعوتها إلى أقوي درجات الأيمان والمتمثل في التغيير باليد لإن الدعوة باللسان هي من قبيل الأمر بالمعروف بينما كان التغيير باليد هي من قبيل النهي عن المنكر وهما المتلازمتان اللتان لا ينفصلان إلا في حال الضرورة القصوي. ولكن عندما يكون هناك من القوة والدعم والسماحية المجتمعية، فإنه لابد من إعلاء كلمة الحق ولو كانت بالقوة وذلك من خلال المواجهه مع المجتمع والتصدي للخارجين علي الدين، والذي هو بطبيعة الحال الدين الذي تقره عقيدة كل جماعة فقط لإن كل من يخالفهم ليس علي صحيح الدين حتى وإن كان فيهم إمام الزمان.

لقد خلق الله الدين لكي يكون هناك مرجعية للبشر إذا ما إختلفوا في أمور دنياهم وأخرتهم تمكنهم من الرجوع إليه فيعقلوا منه ما يعقلوه بعد أن يتدبروا ويتعقلوا فيما هم فيه يختلفون. لقد خلق الله الدين لبني أدم كمرجعية يهتدي إليها من إهتد ويضل عنها من حق عليه الضلال. وقد ترك الله سبحانه وتعالى حرية العقيدة والإعتقاد لبني أدم كلا حسبما يهديه عقله لما فيه خيره وهداه. بل أنه سبحانه لم يفرض علينا أن نتبع دينا واحدا ولا عقيدة واحدة وأخبرنا أنه هكذا أرادنا مختلفين في الخلق والخُلُق والعقيدة والإعتقاد و أنه لو شاء لخلقنا جميعا أمة واحدة.

هكذا أرادنا الله سبحانه وتعالى وهكذا خلقنا وسخر لنا عقولنا لتهدي كل منا لما فيه خيره وهداه وليتم محاسبة كل منا وفق ما عقله في دنياه وما وقر في قلبه من صحيح دينه و منطق عقيدته،بل هكذا خلق لنا الدين كمرجعية نحاسب وفقها إن نحن إخترناها في دنيانا منهاجا للحياة كما وسنحاسب عليها إيضا إن نحن إخترنا تركها إلى ما أملته علينا أنفسنا في حياتنا الدنيا.

عندما خلق الله سبحانه وتعالى لنا الدين... فقد خلقه كمرجعية عقائدية يختارها بني أدم أو يختار غيرها ليحاسب كل منا وفق عقيدته،

ولكن الدين عند الجماعات أمر مختلف تماما، فالدين بالنسبة لهم سلاحا يتم إشهاره في وجه كل من يخالفهم عقيدتهم، حجة يتم إقامتها علي كل من يعطي لنفسه حق التفكير في مناظرة عقيدتهم، منهج لا تصح معيشتهم به إلا إن تم فرضه علي كامل المجتمع وأصبح كل المجتمع يدين بدينهم ويعتقد بعقيدتهم وإلا فلتكون علي الدنيا السلام.

إن الدين عند الجماعات هو النعمة التي من بها الله عليهم هم فقط فبصرهم بما لم يبصر به غيرهم وكأن كل جماعة تري في أنفسها وفي تابعيها شعب الله المختار الذي أختاره الله ليحمل لواء الهداية في الأرض ووفر لهم الحماية ووعدهم بالنصر في الدنيا وجزاء الأيمان في الأخرة، بل أنه قد جعل أيضا كل من خالفهم عقيدتهم ضال مضل مستباح أمنه وأومواله بل وحياته. إن دين الجماعات يقوم علي فكرة واحدة أنهم هم شعب الله المختار الذي أختاره الله ليتم بهم دينه وأن كل ما يتعرضون له من محن إن هي إلا من قبيل الفتنة التي يمحص بها الله الطيب من الخبيث، أما مايتعرض إليه الآخرون فهي من قبيل العذاب لما إقترفوه من إثم البعد عن عقيدة الجماعة حتى ولو كانوا يدينون بنفس الدين، ولكن للأسف فإن الدين بدون عقيدة الجماعة ناقض مهما إكتمل وعقيدة الجماعة حتى وإن تعارضت مع الدين كاملة مهما إنتقصت.

لقد لخص الفنان محمد صبحي كل هذا الموقف في مسرحية وجهة نظر عندما إجتمع أبطال المسرحية من فاقدي البصر يسألون لماذا يتعرضون لكل هذا العذاب فيخرج عليهم الشيخ مقرئ المدافن وهو يقول لهم عذاب من الله بأعمالكم ولبعدكم عن دينه، وعندما يخبرونه أنه وسطهم ومعهم ويناله مثلما ينالونه فيقول لهم، بل أن هذا نعمة من الله لإن المؤمن دائما مصاب وأن الإبتلاء دليل الأيمان..... سبحان الله... !!

الانفصال المجتمعي

هل نحن من نختار بإرادتنا أن نُغَيّب عقولنا وأن نسير وراء بشر مثلنا لإننا صدقنا أنه قد أوتي من الحكمة ما لم نؤته و أنه يبصر ما لانبصر ويري ما لانري ؟

هل هذا هو أحد الأختيارات التي نمر بها في حياتنا لنقرر إن كنا نريد أن نحيا حياتنا مغيبين أو أن يكون لنا حق التفكير والتدبر وإعمال العقل و إتخاذ القرار الذي يتناسب مع مقدراتنا وقدراتنا ؟

قد تبدو الإجابة علي هذا السؤال بديهيه للبعض إن لم يتمعنوا في مضمون السؤال، لإنني في الحقيقة أعلم بل وأوقن أنه لا يوجد علي ظهر الخليقة من لا يصدق في رجاحة عقله وأن كلا منا يثق تماما في رجاحة عقله و أنه هو العاقل الذي دونه الجنون . ولكنني لم أقصد المعني السطحي المباشر من هذا السؤال، لأنني إنما عنيت بسؤ إلى هذا إستثارة ملكة التحدي عند القارئ الكريم للتفكير في معني التغييب وكيف يصل بنا الأمر لإن نصبح مغيبين بفعل تسلط الحياة وهمومها علينا من جهة، وبفعل رغبة الآخرين في التحكم في مقدراتنا من ناحية، وبفعل إستسلام البعض الآخر لشهوة الحكم وهو مايجعلهم في إحتياج لمن يستسلمون لشهوة الإستسلام للحاكم عندما يفقدون القدرة وبالتالي الرغبة في أن يصلوا للحكم.

إن تغييب العقل البشري هو آليه إتبعها بني أدم منذ بداية الخلق عندما علموا وتأكدوا أن القوة الجسدية ليست هي القوة الوحيدة الغالبة وأن العقل البشري يستطيع إن تم إستخدامه بحرفية أن يطوع أكثر الناس جسامه و أقواهم عضلا عن طريق السيطرة علي عقله وتغييبه عن و اقعه ليعيش وفق المنهج والقناعات التي جعلوها أساسيات للفهم ووفق المبادئ التي ساقوها وجعلوها هي الخط الفاصل في تعريف الإنسان الصالح.

كل من أراد الوصول إلى السلطة الحاكمة في مجموعة من البشر، وجد ضالته في فكر التغييب العقلي أو مايسمي باللغة العامية ((غسيل مخ)) وهو تعبير صحيح ومعبر للغاية لإنه يعطي الوصف الأمثل والدقيق لعملية التغييب العقلي التي تنتهج فكر غسيل العقول وتنظيفها من كل ما هو فيها من مبادئ حاكمه وقيم سامية وعقيدة سائدة ومن ثم يتم زراعة العقيدة الجديدة بشكل بنائي متدرج يقبله العقل ويستسيغه بل ويجعل

منه العقيدة البديلة التي يعيش من أجلها ويدافع عنها بكل ما أوتي من قوة وبرهان وحجة بعد أن تم فصله عن مجتمعه الذي نشأ فيه وتربي بين جنباته وتصوير مجتمعه الجديد بصورة المجتمع الفاضل الذي تسعي إليه البشرية منذ بداية خلقها والذي تكلم عنه أفلاطون في كتبه وشرحها إبن رشد في تفسيراته.

إن تغييب العقل هو طريق من أراد فرض الوصاية علي من حوله، كما أنه للأسف إختيار من قبل الخضوع لعقل وفكر وعقيدة الوصي عليه بعد أن قبل الإستغناء عن نعمة إعمال العقل التي منحها أياه الخالق العظيم.

لم يكن قرار إنضمامي لإحدي الجماعات الدينية منذ مايزيد عن ثلاثين عاما قرارا إختياريا بالمعني الحرفي للكلمة لإنني وبمنتهي البساطة لم أكن أعلم ماهية هذه الجماعات وماهي أهدافها أو تكويناتها أو مخططاتها أو برامجها ليس عن جهل بقدر ماهو عن عدم إكتراث للبحث في هذه الأمور حيث كنت في هذا الوقت لازلت أبدأ أول مراحل شبابي وهو السن الذي يكون عادة مملوءاً بحب المعرفة والتجربة لكل ما كان ممنوعا وقت الطفولة.

لهذا لم يكن قرار إنضمامي لهذه الجماعة هو قرار شخصي صادر بناء علي بحث وتنقيب لأجد الجماعة التي يمكن أن تمثل ديني وأن يكون إنضمامي لها هو نصرة للدين لإنني في هذه الفترة كان مفهومي للدين أبسط من ذلك بكثير حيث كان الدين حينها لا يمثل لي أكثر من وسيلة إتصال مباشرة بيني وبين الخالق العظيم أستطيع إستخدامها في أي وقت أريده وبدون إستئذان. فكنت أصلي الفروض في وقتها عن قناعة بأن هذه الفروض هي أقل ما أستطيع أن أقدمه لخالقي دليلا علي شكري له لإنه خلقني و أنعم علي بنعمه.

كنت أرتاد إحدي الزوايا بالقرب من منزلنا لأصلي فيها وذلك لإنني كنت أحب صوت الأمام عند قرائته للقرأن أثناء الصلاة لإنني من هذه النوعية من البشر الذين يطربون لسماع القرأن خاصة إذا ماوافق صوت وأداء المقرئ هوايا الشخصي تماما كما يهوي بعض الأشخاص سماع صوت أم كلثوم أو عبد الحليم حافظ. لهذا كنت أذهب إلى هذه الزاوية الصغيرة لأصلي فيها طالما كان هناك وقت خارج أوقات المذاكرة والخروج مع الأصحاب واللعب والجلوس مع الأهل لإن هذه هي أوليات كل الشباب في هذا السن بطبيعة الحال.

ولكنني كنت أحاول دائما أن أجد الوقت لكي أتمكن من الذهاب إلى هذه الزاوية لسماع الإمام وهو يقرأ بعض الأيات التي كنت أطرب لها وتستمر في أذني و أنا أدندن بها من فترة لأخري وكأنني أتغني بأحدي الأغاني.

حتي حدث ذات يوم أن جاء إلى أحد الأشخاص الذين يترددون علي هذه الزاوية وظل يمدح في إيماني وديني لما لمسه مني من محاولات الإنتظام في الصلاة حتى في أوقات الفجر، لإنني إعتدت أن أسهر للإستذكار حتى إذا ما أذن الفجر نزلت للصلاة ولمقابلة أصدقائي أيضا بحرية بعيدا عن مر اقبة أمي و أبي لوقت خروجي ووقت عودتي وهو ما كان يشعرني بأنني رجل وعندي من الحرية ما يتيح لي الخروج في هذا الوقت دون إستئذان أحد حتى وإن كانت الصلاة ستارا لهذا المخطط إلا أنها كانت تتيح لي في المقابل الإستمتاع ببعض الوقت في مقابلة الأصدقاء.

ويبدو أن وقع كلمات هذا الشخص علي نفسي كان كبيرا للغاية حيث وجدتني و أنا شغوفا بالذهاب أكثر إلى المسجد لكي أري في عينيه وعين من حوله هذه النظرات التي تخبرني وتخبر كل من حولي بدرجة أيماني و إنتظامي في صلو اتي و أنني أمثل المسلم الشاب الحق الذي يستطيع أن يجد لدينه الوقت اللازم رغم كل ما لديه من إلتزامات ومسئوليات..... وشهوات ....!!

كانت نظرات هؤلاء الأشخاص - الذي يبدو علي وجوهوهم وعلي ملابسهم مسحة التديين التي غزت مصر في السبعينات من القرن الماضي – تشعرني بالزهو وتجعلني أشعر بيني وبين نفسي أنهم يأتون إلى المسجد خصيصا ليشاهدوا هذا الرجل الصغير وهو يصارع نفسه ووقته وشهو اته من أجل أن يفرد مساحة لدينه. ولكن المؤكد أنهم كانوا بالفعل يتعمدون إشعال هذا الإحساس بداخلي من خلال كلماتهم الدافئة وتربيتهم علي كتفي و إنتظاري بعد الصلاة لكي يمدحوا إلتزامي ويدعون لي بالمثابرة علي هذا المنوال.

حتي كان اليوم الذي بدأوا معي حوارا فكريا ليسألوني عن عدد ما أحفظه من أجزاء القرأن الكريم. وقتها شعرت بأنني لا شئ . وقتها تمنيت لو أن الأرض خسفت بي لكي لا أقف هذا الموقف الذي فقدت به هذه الهالة التي وضعوها حولي لإكتشف في لحظة أن كل هذا لم يكن إلا هالة من إنعكاس ضوء التفاخر الكاذب ... فقط.

ولكن لإنهم لم يكونوا يقصدون أبدا إحراجي ولا تقزيمي، فقد بادروا مباشرة بالإجابة وبطرح الحل السريع دون إنتظار إجابتي بعد أن ظهر علي وجهي أنني لا أحفظ إلا بعض السور التي حفظناها أثناء سنين التعليم، مثلي في ذلك مثل كل من هم من سني وفي مثل عمري. فإذا بهم يخبرونني عن مسجد قريب فيه جلسات حفظ للقرأن مرتين في الأسبوع بحيث نحفظ كل مرة عشر أيات فقط وهو مايعني أنني في خلال حوالي ثلاثة أشهر سأتمكن من حفظ جزء كامل و أنني لو واظبت سأتمكن من حفظ أربعة أجزاء علي الأقل بنهاية العام وبما لايؤثر علي دراستي أو حياتي أو صداقاتي وهذا هو بيت القصيد.

وذهبت بإرادتي المنفردة ... لأبدا رحلة البداية ... !!

إحتفاء بالو افد الجديد وتقديم جعلني أشعر بأنني لم أكن أعلم قدري حق المعرفة. كلمات عذبه في وصف مدي إلتزامي وخشوعي وإصراري علي أن أجد الوقت لكي أذهب إلى المسجد لأصلي بالرغم من إنشغ إلى بالدراسة ولعب الكرة أيضا، مع تبسم من الحاضرين وكلمات من الترحاب التي تجعل الإنسان يشعر أن هؤلاء الناس يعرفونه منذ زمن قديم ويفتقدونه كما يفتقد الصديق صديقه.

وبدأنا بجلسات لتحفيظ القرأن حيث كان الإتفاق علي أن نحفظ عشرة أيات كل جلسة، ولكن نظير هذا الترحاب الشديد وجدتني وقد إجتهدت لأحفظ سورة كل أسبوع حتى أنني بنهاية الجلسة الخامسة كنت قد حفظت الجزء الثلاثين لكي أثبت لهم أن كل ما سمعوه عن إلتزامي هو حق، وكأنهم قد أصبحوا بالنسبة لي مفتش مادة الدين في المدرسة الذي يجب أن أثبت له أنني أستحق العلامة الكاملة. فجأة تحول هؤلاء الأخوة الذين هبطوا عليّ من السماء إلى مبعوث إلهي يعلمني ديني ويقوم علي تحفيظي كتاب الله، ولكن الأدهي أنني وجدت نفسي وقد إنجذبت إليهم وأعمل جاهدا علي أن أثبت لهذا المبعوث الإلهي مدي إلتزامي بديني وعباداتي وكأنهم هم من المسئوليين عن تقييم أدائي وحساب درجاتي التي ستضمن لي النجاح في هذا الإختبار ودخولي الجنه.

وبعد أن أتممت حفظ الجزء الثلاثين وجدت المكافأة يوم أخبرني هذا الشخص الذي دعاني أول مرة أن الجلسة القادمة لن تكون جلسة تحفيظ ولكنها ستكون حلقة علم و أنني سوف ألقي عليهم درسا لإن خيركم من تعلم العلم وعلمه. ولما كان هذا الأمر مستغربا جدا من قبلي، فقد بدأ في توضيح الأمر بأن الإنسان المسلم مطالب بمعرفة دينه وبأن يكون لديه القدرة علي الدعوة لدينه متي سمحت الفرصة له بذلك.

لهذا يجب علينا أن نتعلم كيف يمكن أن ندعو إلى ديننا عن طريق المحاولة والتجربة و أنني لن أجد أفضل من هذه المجموعة لكي أحاول و أتدرب معها لإنهم يحبونني في الله ومستعدين لقبولي وقبول محاولاتي حتى أقف علي أول طريق الدعوة. وزاد هذا الشخص علي ما قاله بأن أعطاني نسخة من كتاب رياض الصالحين كهدية موقعة منه وأشار علي باب الحب في الله ليكون هذا هو عنوان الدرس الذي سألقيه عليهم الأسبوع المقبل.

وذهبت لأدرس و أقرأ وأحفظ حتى أستطيع أن أقوم بأول مواجهه في حياتي مع جمهور من المستمعين و أنا ألقي عليهم درسا دينيا . وجلست في المنزل و أنا أغلق علي نفسي باب غرفتي بالساعات لكي أتدرب علي الإلقاء حتى كان اليوم الموعود. وذهبت وألقيت الدرس علي الإخوة لإكتشف شخص لم أكن أعرفه من قبل... أبداً.

عندما بدأت في إلقاء درسي الأول، كنت خائفا متلعثما لا أصدق أنني سأتذكر كلمة واحدة مما حفظتها وكأنني في إمتحان شفهي يتحدد عليه العلامة التي ستحدد دخولي إلى الجامعة. ولكن الإخوة كانوا يعلمون تمام العلم أن هذا هو حال البداية دائما لذا كانوا ودودين لطفاء مبتسميين بالطريقة التي شجعتني علي أن أبدأ وأن أنسي خوفي، ولكن تشجيعهم قد جاوز مرحلة البداية لأجد فجأة دموعا تذرف وحشرجة في الصوت وهمهمة بكاء مسموع من وقع كلماتي عليهم، حتى وصل الأمر للأستحسان اللفظي والتهليل والتسبيح والتكبير... يا سبحان الله... لا حول ولا قوة إلا بالله... لا إله إلا الله.

فجأة وجدتني وقد تقمصت صورة الشيخ محمد متولي الشعراوي وهو يلقي إحدي دروسه والناس من حوله يبكون من وقع كلماته وهم يهمهمون بكلمات الإستحسان لكل ما أقوله ويزيدون علي ذلك بالدعاء لي بالقبول من الله وبأن يديم الله علي هذا الفتح. حتى وجدتني و أنا أتفاعل مع هذا الجو التحفيزي الذي لم أمر به من قبل في حياتي ليزداد صوتي إرتفاعا وكلماتي وضوحا ووتيرتي حدة. لقد صدقت بالفعل أنني أملك هذه الملكة و أنني أستطيع أن أصل بأفكاري إلى من حولي وأن وقع كلماتي علي من يسمعني شديد عظيم.

ومن شاب بسيط محب للذهاب إلى الزاوية بجوار المنزل كلما سنحت له الفرصه لكي يستمع إلى قراءة الأمام في الصلاة وهو يتحين أيضا الفرصة للخروج من دائرة مر اقبة الأسرة، تحولت إلى دارس للقرأن حافظا لبعض أجزاءه، ومنها إلى خطيب مفوه يعجب الناس بكلماته ويتفاعلون معها ويتباكون مع سماعها. كل هذا في مدة لم تزيد عن خمسة أسابيع وكأن عصر المعجزات لم يكن قد إنتهي بعد.

وإستمرت هذه الجلسات لشهور طويلة أحفظ فيها القرأن و أقرأ كتب التفاسير وشروح الدين التي كان الإخوة يعطونني أياها - هدية بالطبع – وقد تم توقيعها من الأخ حتى يكون للكتاب قيمة نفسية ووقع أكبر من قيمته العلمية عندما تأتيني في صورة هدية من شخص لا أعرفه ولكنه يحبني في الله لدرجة أنه يستقطع من قوته ليأتيني بهدية بعشرة جنيهات التي كانت تسوي الكثير في هذا الوقت.

وبعد فترة ليست بطويلة بدأ الإخوة في مطالبتي بزيادة الفترات التي أقضيها معهم في المسجد الذي كان يبعد قليلا عن منزلي . ولما لم يكن هذا الطلب مجابا لإنشغ إلى بالإستذكار وبممارسة الرياضة، فقد إقترحوا علي أن أستمر علي نفس المنوال بأن أتي إلى المسجد مرة واحدة في الأسبوع لأتعلم معهم،علي أن أفرغ بعض الوقت لكي أجلس إلى بعض الشباب المتحمس في الزاوية القريبة من منزلي لإنهم لايستطيعيون القدوم إلى المسجد ولكنهم في أمس الحاجة إلى التعلم. لذا فقد وقع علي الإختيار لكي أتعلم مع إخو اني في المسجد، ثم أقوم بتعليم الإخوة في الزاوية خاصة أنني أثبت جدارة في دروسي التي كانت تُبكي كل من حولي.

فجأة وجدتني و أنا جندي في صفوف الدعوة مسئولا عن تعلم العلم من جهة وعن تعليمه من الجهه الأخري. كيف حدث ذلك ومتي ولماذا...سؤال لم أعرف له إجابة في حينه ولكنني كنت سعيدا بهذا الدور القيادي الذي حرر بداخلي شهوة الحكم والسيطرة علي من حولي من الشباب الذين كانوا يعاملونني وكأنني الأمير في قومه.

وتمر الأيام والأسابيع والشهور و أنا أتعمق أكثر فأكثر في الدين لأقرأ في الكتب التي وصلتني من إخو اني ليس من قبيل المعرفة بقدر ما هي من قبيل الإعداد للدروس التي أشعر معها بأنني المعلم أفلاطون وسط تلاميذه و أتلذذ بهذا الدور الذي أعطاني مساحة من النصح والإرشاد والتوجيه و أنا لازلت صبيا في مقتبل العمر لم يزد تحصيله عن بضعة أجزاء من القرأن وكم من الكتب التي قرأها وحفظها وإن لم يعقلها ويتدبرها حق المعرفة.

وبدأ إخو اني الذين كانوا يتولون مهمة تعليمي في شرح مهمة الإنسان في الأرض ليخبروني أن الجهاد فرض علي كل مسلم ولكنه ليس الجهاد الذي يستلزم رفع السلاح والقتال لإن هذه مرحلة تفرض علي عموم الأمة وهي ما لم تكن مفروضة في هذا الوقت . ولكن هذا لم يكن يعني علي الإطلاق عدم فرضية الجهاد الذي هو عماد الدين ودليل الأيمان لإن الجهاد يبدأ في الأساس بجهاد النفس وهو يتماشي بنسبة كبيرة جدا مع ما أقوم به من

القيام بفروضي و إلتزامي الجماعة وإصراري علي تحصيل العلم وتعليمه لإننا جميعا سنسأل يوم الحساب عن علمنا.

وأعجبتني الفكرة وتحمست لها بل وجعلتها هي محور حياتي عندما علمت أن ما أفعله يعطيني ثواب من جاهد بحياته وقتل وأستشهد في سبيل الله بينما أنا لازلت علي قيد الحياة أتمتع بحياتي بكل مافيها مثلي في ذلك مثل كل أتر ابي وأصدقائي، لكنني قد إزددت عليهم أنني وضعت إحدي قدمي في الجنة.

ورويدا رويدا بدأت وتيرة الأحداث تتصاعد وبدأت أستلم نسخ من كتيبات ورسائل مع توصيات بحفظها بعيدا عن الأعين لإنها كتابات ممنوعة من النشر من قبل الدولة التي تخاف إنتشار الدين بين قطاعات الشباب لحرص رجالات هذه الدولة علي تغييب عقول شبابنا و إبعادهم عن الدين الذي هو عصبة أمرهم. وبدأت في قراءة هذه الكتب وحفظ ما بها وكأنها أجزاء من القرأن أحفظها لإنني سأسأل عنها يوم القيامة كحفظي لكتاب الله وذلك بعد أن إقتنعت أن الدين لا يتم إلا إن تمت العقيدة وأن تمام العقيدة هو في المعرفة وإدراك المعاني الخفية التي يصعب علي العامة فهمها وأن هذه النعمة لا يمن بها الله إلا علي المختارين من عباده الذين فضلهم علي غيرهم من الأمة ليحملوا مصباح العلم لينيروا به الطريق لمن حولهم ومن سيخلفونهم ولو بعد حين.

ما هذا الإمتحان...ما هذا الإختبار الذي لم يكن في تصوري أنني سأمر به يوما... أنا من إختارني الله لكي أحمل مصباح العلم دونا عن كل أصدقائي ومعارفي وألقي في طريقي بهؤلاء الإخوان لكي يساعدوني علي تنفيذ مهمتي في الأرض من تحصيل العلم و إيصاله إلى كل من حولي...سبحان الله... !!

وحينها... بدأ الدرس الثاني...درس الجهاد المجتمعي.. !!

بعد أن أثبتت جدارة في مرحلة جهاد النفس بكل ما تحويه من إلتزام بالفروض والتحصيل والتعليم والأهم الإلتزام بالجماعة، بدأ الإخوة التركيز معي علي فكر الجهاد الذي يعتبر من الأركان الرئيسية التي لاتصح بدونها عقيدة أي جماعة، بل أن جميعهم يستدل بأحاديث كثيرة في هذا المقام من قبيل ما أخبر عنه انس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في رواية أبو داود والنسائي والدارمي بإسناد قوي حيث قال (جاهدوا المشركين بأموالكم و أنفسكم وألسنتكم)).

أو كما أخبر معاذ بن جبل رضي الله عنه في روا ية مالك واحمد و ابو داوود والنسائي بإسناد صحيح حيث قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((الغزو غزوان: فأما من ابتغى وجهه الله , وأطاع الإمام , و انفق الكريمة , ويا سر الشريك, واجتنب الفساد , فأن نومه ونبهه اجر كله, وأما من غزا فخرا , ورياء , وسمعه , وعصى الامام, و افسد في الارض , فإنه لم يرجع بالكفاف)).

والأحاديث في ذلك كثيرة وكلها تحث علي الجهاد بأنواعه وبدرجاته حسبما أخبرنا بذلك من لاينطق عن الهوي بأن الجهاد أنواع ودرجات:

أولا: جهاد النفس على تعلم الدين، والعمل به، والدعوة إليه، والصبر على الأذى فيه وهذا لايتأتي إلا مع جهاد الشيطان على دفع ما يلقي إلى العبد من الشبهات والشهوات والإصرار علي إلتزام الطاعات.

ثانيا: جهاد أصحاب الظلم والبدع والمنكرات ويكون باليد إذا قدر، فإن عجز فباللسان، فإن عجز فبالقلب، ويكون بالحكمة حسب الحال والمصلحة حتى لا تحصل فتنة.

ثالثا: جهاد الكفار والمنافقين والمرتدين عن الدين والمفسدين في الأرض ويكون بالقلب واللسان والنفس والمال وهذا فيه قتل وقتال وشهادة متي إجتمعت الأمة علي ذلك.

ومن منطلق هذه التعريفات، بدأ الإخوان الذين كانوا يتولون أمر تعليمي وتفقيهي في الدين التدرج بي من أول حالات الجهاد التي إنصبت علي جهاد النفس وكسر شوكة الشيطان وزرع الإصرار علي الإلتزام بالطاعات داخل نفسي حتى أستطعت أن أثبت أنني علي العهد باق و أنني ممن إنتووا الجهاد في سبيل الله بأن جعلت من إلتزامي جماعتهم دليلا علي جهادي لنفسي الأمارة للسوء وجهادي للشيطان وإعلاني الإنضمام إلى قافلة الطاعات و إقامة العبادات وهجر المنكرات ومحاربة الشهوات...كان هذا هو الإعلان عن الإنضمام إلى قطيع الجماعة.. !!

من هنا بدأ الإخوة في تجهيزي للمرحلة الثانية من الجهاد التي تمثلت في الجهاد المجتمعي وذلك من خلال جهاد أصحاب البدع والمنكرات من الذين غلبت عليهم شقوتهم فكانوا قوما ضالين. من هنا بدأت مرحلة جديدة في حياتي تركز فيها فكري علي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وخاصة بعد أن إقتنعت وتأكدت أنني أملك من العلم ومن الشخصية

ما يمكنني من أيصال أوامر الدين إلى العباد ولما لا و أنا أري كل من حولي وهو يهتز ويرتجف من وقع كلماتي عليه كلما أعطيت درسا أو خطبت خطبة أو حتى تحدثت عبر الهاتف.

وبدأ الإخوة في تعريف المجتمع كما عرفوا لي من قبل الدين حسب ما أتاهم من أئمتهم وعلمائهم الذين مَنَ الله عليهم بنعمة العلم كما مَنَ علينا بنعمة إتباع علمهم هذا من خلال قرائتنا لما كتبوه وتصديقنا له وإعتناقنا لعقيدتهم ومذهبهم وهذا هو قمة التجلي الألهي كما صوروه لي في هذا الوقت وكما صدقت أنا أيضا بالتبعية... أولكي أكون صادقا، فإنه كان كما أردت أنا أن أصدقه في هذا الوقت لإن هذا ما أردت تصديقه بعد أن أعجبني حالى عندما أصبحت الفقيه المفقه في الدين و أنا لازلت هذا الحدث... المفتون... !!

ولم يخرج المجتمع في تعريفه عن المحيطين بي من أسرتي وأهلي وأصدقائي ومعارفي لإن هذا هو المحيط الذي أستطيع أن أتواصل معه بينما لازلت أستطيع الحفاظ علي دروسي ومذاكرتي ونشاطاتي داخل حيز ونطاق إقامتي وبما لا يشكل عبئا إضافيا في التحرك خارج حدودي الجغرافية المسموح بها من أهلي حتى لا أدخل بطبيعة الحال في صراع مع أهلي لطلب إذن للخروج أو السفر أو المبيت خارج البيت.

كل شئ كان مدروسا بعناية فائقة وتم عمل حساب كل نقطة من نقاط المواجهه المجتمعية وتوقيتها.

وبدأت في تناول مهام الدعوة التي أوكلت إلى والتي شعرت معها بكياني وبقوتي وبقدراتي العلمية والفقهية والدعوية وبالتالي القيادية لإنني كنت وقتها علي قناعة بإنه لإن يهدي بي الله رجلا، خيرا من الأرض وما عليها. لهذا قمت بتجهيز نفسي لأمر هذا الجهاد وتبعاته حسبما أخبرني الإخوة أن هذا الجهاد هو أصعب الجهاد لإنني أجاهد مجتمعا قائما إعتاد أن يعيش علي هواه ووفق الحضارة الغربية التي غرت حضارتنا وثقافتنا وأصبحت جزء من مدلول الرفاهية التي لن يتنازل أحد عنها بهذه السهولة. لذا كان علي أن أستعين بالصبر والصلاة في معالجة المقاومة الشرسة التي سأواجهها من أهلي علي الخصوص إن أخبرتهم بحرمانية مشاهدة التليفزيون والذهاب إلى البحر مثلاً، أو عندما أخبر أمي أن دينها ناقص وأنها إن لم تتحجب فهي من السافرات التي لن يقبل منها عمل ولا صلاة .

ولم تختلف مؤشرات إستقبال أهلي لأمر دعوتي لهم عن ماأخبرني به الإخوة، وهو ما جعلني أصدق أنهم يرون بنور الله لإنهم قد إستبصروا بردة فعل هؤلاء الضالين حتى قبل أن أتحدث معهم... سبحان الله.. !!

ولكن هل كان الإخوة يريدون لي حقا شرف الجهاد المجتمعي أم أنهم كانوا يريدون فقط أن أصل إلى حالة الإنفصام المجتمعي.. ؟؟؟

لقد أخبروني أن توجهي بالدعوة إلى أسرتي وأهلي وأصدقائي سيقابل بعاصفة من الرفض نظرا لحداثة سني و نظرا لوقع الفكرة التي كونوها عني خلال سنين حياتي التي أمضيتها معهم عندما لم أكن أتكلم معهم في أمر الدين لبما سيجعلهم يستغربون من أين أوتيت هذه الحكمة وقد ربوني فيهم صغيرا. لقد أخبروني أنه سيكون منهم والدي الذي لن يقبل أن يُعَدِل عليه أبنه طريقة حياته وينصحه أن يترك ما وجد عليه أباؤوه وأن يتبع طريق الصالحين تماما كما فعل أبوسيدنا أبراهيم مع خليل الرحمن.

لقد أخبروني أنني سأقابل بمقاومة قد تضعف من أيماني و قد تفل قرار إستمراري في جهادي المجتمعي الذي هو أفضل الجهاد لمن هو في مثل عمري وفي مثل ظروفي والذي هو بمقام ستين سنة من العبادة. كما أخبروني أن السبيل الوحيد لمقاومة نكرانهم هذا هو في إلتزام الجماعة والإلتزام بأمر الطاعات التي إتخذتها لي سبيلا من حفظ القرأن وتلاوته أناء الليل والنهار وحضور الدروس بل وإعطاء الدروس ومتابعة قراءة وحفظ الكتب التي يزودوني بها حتى أستطيع أن أجد الحجة في الرد علي أسئلتهم التي ستكون كثيرة ولكنها لن تنال من عزيمتي إن شاء الله إن أنا واظبت علي طريق جهاد النفس الذي بدأته معهم.

نعم أخبروني بكل هذا و إقتنعت بكل ما قالوه بل وواظبت عليه لإنني وجدت فيه السبيل لكي أقف أمام هذه المقاومة الشرسة للطريق الذي إتخذته من إعلان الجهاد المجتمعي لكي أغير قدر المستطاع. ولكنهم للأسف لم يخبروني بإنني في هذا الطريق سيتم نبذي مع الوقت وسيصبح وجودي غير مرغوب فيه ولن أصبح مرحبا بي وسط أسرتي وأهلي وأصدقائي الذين وجدوا مني عنصرا تنفيريا للدين والدنيا علي السواء حتى وجدتني و أنا أطرد بإختياري من دائرة الأسرة والأهل والأصدقاء لأخرج من المجتمع الذي نشأت فيه وتعلمت منه وفيه وبه كل ما أوصلني لهذه المرحلة من التصديق بأنني أنا العالم وهم لا يعلمون.

لم يخبرني الإخوة أن الجهاد المجتمعي هو طريق ينتهي عادة بالإنفصام المجتمعي... !!

لم أكن أفكر وقتها في كيف سينتهي بي المطاف بعد أن أبدأ في معاداة كل من حولي و أنا أقسم العالم إلى معسكرين لا ثالث لهما... مؤمن وكافر، ليكون كل من يستمع إلى كلماتي ويقبل نصائحي هو من صح إسلامه ونقت سريرته وكان من أهلي، أما من عارض وتمنع ورفض، فإنه كان عملا غير صالحا ولايستحق أن يركب معي في سفينة الهداية التي أوصلني إليها الله لأقودها وأصطحب معي فيها من صلح من أهلي.

عجيب أمر إبن أدم...كيف صور له عقله وهو المخلوق الضعيف الهالك بعمله إن لم يرحمه الغفور الرحيم، أنه هو من له حق إقرار الأيمان والكفر بين البشر؟

هل هي عدوي التغييب التي تفعل في الإنسان ذلك ؟ هل عندما يتم تغييب عقولنا فلاتعمل عند إستقبال الفكر الأوحد لأي جماعة ويرفض منا التفكير فيما يلقي إلى عقولنا من معلومات و أفكار لنصبح أتباعا اعقيدة ما، فإن عدوي التغييب هذه تصيبنا فتجعلنا لا نقبل من أي أحد أن يفكر فيما نقوله ولايقبل منه نقاش أو جدال حول نصائحنا التي تتحول بالتدريج إلى شروط لإستمرار العلاقة حتى بين الإبن و أبيه.

أعتقد أن هذا هو ما حدث معي عندما بدأت طريق الجهاد المجتمعي بمراجعة أبي وأمي في شأن دينهم، حيث كانت البداية من جهاز التليفزيون الذي كنت أعتقد أنه حرام... حرام . فكنت لا أجتمع معهم في غرفة الجلوس لإن بها هذا الشيطان المارد... !!

أما إخوتي الذين كانوا يرفضون أن يصلوا معي وقتها في جماعة أو يؤخرون الفرض عن وقته، فقد كنت لهم بالمرصاد لأؤنبهم وأوبخهم بل ووصل الأمر إلى توعدهم بالويل والثبور وعظائم الأمور... ولما لا و أنا من أوكل لي أمر إصلاح هذه الأسرة التي حادت عن طريق الهداية ولم تعرف الدين كما عرفته. لقد كان الفيصل بيننا ليس الدين، ولكنه الدين الذي عرفته أنا ويرفضون هم معرفته و إتباعه بالرغم من إنني تربيت في هذا البيت الطيب علي الصلاة والصيام والحج والعمرة والزكاة ولم أشاهد إبي وأمي إلا وهما يقيمان صلاتهم ويحافظان عليها . بل أنني أجزم أن هذا هو أحد الأسباب الرئيسية في أنني خرجت إلى الدنيا محافظا علي صلو اتي محاولا ومجتهدا في المحافظة علي عباداتي مهما كانت زلاتي لإنني هكذا تربيت علي ما رأيت لا علي ما سمعت.

لم يكن أبي من هؤلاء الأباء الذين يأمرون بالصلاة ويقيمون الدنيا ويقعدونها إن لم يلتزم الأبناء بالصلاة، وإن كان يوبخنا إن قصرنا في عباداتنا. ولكنه كان يعلمنا عباداتنا عن طريق الفعل والمشاركة في التطبيق العملي لإنه كان يصلي أمامنا ويطلب منا الصلاة في جماعة ويأخذنا معه إلى المسجد والبسمة دائما علي وجهه الضحوك حتى وهو يوقظنا في أوقات الفجر خاصة في شهر رمضان لنذهب معه لصلاة الفجر جماعة في مسجد الأباصيري أو مسجد المرسي أبو العباس بالإسكندرية، حيث كنا نتقابل مع أصدقائه وأولادهم والبعض من أفراد عائلتنا لتكون أوقات صلاتنا هي أوقات تجمعنا وتمتعنا مع الأهل والأصدقاء، ولكم أشتاق الآن إلى لحظة من هذه اللحظات.

طوال خمسة عشر عاما تعلمت ديني من هذا الرجل الطيب وزوجته التي هي نعم الأم الحنون التي لم تبخل علينا بحبها ولا كرم عاطفتها متعهما الله بالصحة ومتعني بصحبتهما في جنته يوم نلقاه إن شاء الله طامعين في رحمته راجين غفر انه...اللهم أمين.

طوال خمسة عشر عاما و أبي يعلمني ديني بطريقة غير مباشرة و بصبر وتؤده وكله أمل وقناعة أن لكل مرحلة من مراحل العمر متطلباتها وإحتياجاتها التي تُشَكِل طريقة وأسلوب حياتنا بما فيها من إلتزامات وواجبات مرحلية وأن التقصير في إلتزامات مرحلة ما من العمر لا يعني علي الإطلاق أن يستمر حتى نهاية العمر طالما كان التأسيس جيدا وطالما كانت النبته صالحة، فلابد أن يستقيم الساق حتى ولو بعد حين.

فما الذي حدث معي منذ ظهر هؤلاء الإخوة في حياتي ؟ لقد وجدوني في الأساس إنسانا صالحا أقيم ولو بعض فروضي في جماعة ومتحفز لحفظ بعض الأجزاء من القرأن بما يعني أن أبي وأمي قد أحسنا تربيتي وأن أسلوب حياتهم قد أفرز إنسان قريب من الله بطريقة أو بأخري . لماذا لم أعد أقتنع بحياتهم وأسلوب تربيتهم ؟ لماذا وصلت إلى هذا الحد من التطرف الفكري لأري نفسي أنا فقط علي الأيمان وهم ليسوا كذلك ؟

بطبيعة الحال، لم تدر هذه الأسئلة بخلدي وقتها لإنني كنت في قمة التغييب العقلي الذي فرضه علي هؤلاء الإخوة عندما أقنعوني أن ما علمته من الدين لم يكن إلا قشورا لا تصنع المسلم الحق وأن طريق الهداية قد من به الله عليّ عندما قابلتهم وإستمعت إليهم وقرأت في كتبهم، وهأنا ذا أعتقد في عقيدتهم بل وأصدق أن الدين ليس إلا هذه العقيدة التي من بها الله عليهم كما من عليّ بأن وضعهم في طريقي.

وكان أنه كلما زدت في دعوتي لأسرتي وأهلي وأصدقائي، أن زادت غربتي عن مجتمعي الذي نشأت فيه وفي المقابل زاد إقترابي من مجتمع الجماعة الذين جعلوا مني داعية وسط أقراني وغمروني بهداياهم وكأنها جائزة إلتزامي جماعتهم ليعوضوني عن مافاتني من محبة أسرتي وعائلتي وعن ما أفتقده من مناوشات الأصدقاء.

إنني الآن علي يقين أنهم كانوا يعلمون تمام العلم أن طريق الجهاد المجتمعي لابد أن ينتهي... بالإنفصام المجتمعي، بل أنني أجزم أن هذا كان هو الهدف منذ أول يوم، أن أنفصل عن مجتمعي وأن تصبح الجماعة هي المجتمع... هي الوطن...هي الأمة..!!

اليوم وبعد مرور حوالي ثلاثين عاما علي هذه الذكريات أستطيع القول بأنني أجزم أن هذا هو ماكانوا يدفعونني إليه، أن أتحول إلى مرحلة الجهاد المجتمعي بعد أن قضيت فترة في جهاد النفس أثبت لهم فيها إلتزامي الجماعة وقبولي حكمهم وعقيدتهم وإستعدادي للتضحية من أجل هذه العقيدة حتى لو كان أول طريق التضحية هو التضحية بالأواصر الأسرية وصداقات العمر للترقي في مراتب الجهاد.

اليوم أستطيع أن أجزم أن كل هذا لم يكن قدريا، بل كان مخططا أن يتم دفعي إلى جهاد المجتمع من حولي حتى يتم لفظي وطردي من مجتمعي الصغير لتتلقفني أيدي الإخوة وأنا غير مرغوب في وجودي بين أفراد عائلتي وأصدقائي الذين وجدوني وقد تحولت إلى الشدة في النصح والغلظة في الدعوة فلم يعد وجودي مرحبا به بينهم ولكنني كنت في المقابل أعامل معاملة الأمير من هؤلاء الإخوة وهم يهونون عليّ ما ألقاه من أهلي ويخبرونني أن هذا هو طريق الأيمان وأن كل الرسل والأنبياء والصحابة السابقين قد لاقوا أشد من ذلك عندما وصل الأمر بأهلهم إلى تعذيبهم وحبسهم وتسفيههم وأن كل ما أنا فيه ليس إلا إمتحان من الله ليعلم مدي أيماني وصبري علي طريق الحق لإنه يعدني إلى مهمة أصعب بكثير من ما أنا فيه...!!!!

ولم تدم حيرتي كثيرا وأنا أنتظر هذه المهمة الإلهية التي بدأت بتكفير أهلي وأصدقائي لتنتهي بوجوب إعداد نفسي للجهاد الأكبر... الجهاد الأعظم...الجهاد الذي لاينتهي إلا بالنصر أو بالشهادة... !!!!

لقد إختزلت الجماعة ديني في عقيدتها التي لا يصح الدين بدونها، ثم قامت بإختزال هذه العقيدة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو ما تمثل في الترقي بمفهوم الجهاد من

جهاد النفس إلى الجهاد المجتمعي الذي لم يكن يهدف في حقيقة الأمر إلى تغيير المجتمع بقدر ماكان يهدف إلى إحداث هذه العزلة والإنفصام المجتمعي فلا يبقي أمامي إلا الجماعة التي تقبلني علي ما أنا عليه من إلتزام وتشجعني علي أن أستمر في طريق الله وهي تلقني كلماتي و تحضر لي دروسي التي ألقيها علي الإخوة فيتأثرون بها ويبكون أو يتباكون من وقع كلماتي عليهم . والأدهي أنهم كانوا أيضا يمنون عليّ بعلمهم ودروسهم وكتبهم وصحبتهم وهداياهم حتى وصل الأمر إلى أن إستضافوني في منازلهم عندما قررت ترك أسرتي التي ظننت أنهم قد ضلوا طريق الأيمان.

هكذا تعمل هذه الجماعات وفق منظومة تم الإعداد لها جيدا حتى يتم الدخول إلى عقول الشباب من مدخل الدين الذي لا ينكره إلا جاحد أو ظالم لنفسه، ثم يتم تحديد طرق المعرفة التي يستطيع بها الشاب أن يتعرف من خلالها علي دينه لتكون عن طريق كتبهم ودروسهم وأحاديثهم التي يتم إنتقائها بعناية فائقة لتشكل العمود الفقري لعقيدة هذه الجماعة ومن ثم عقيدة أتباعها، فتعقد الجلسات والدروس التي تناقش هذه الكتب ومصادر المعرفة ليتم تأكيد كل ماجاء بها من خلال القرأن والسنة كما يتم تفنيد ما يعارض هذه العقيدة أيضا من خلال القرأن والسنة فلا يجد الشاب أمامه طريقا إلا ماتم تحديده وبيانه من إخوته الذين لايريدون له إلا الخير ويجتمعون معه علي قراءة القرأن ودراسته وهو ما لايختلف عليه مسلم أبدا. وصدق الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه عندما قال أن القرأن حمال أوجه...فهكذا تعمل هذه الجماعات.

وبعد أن يتم فهم الدين وفق فهمهم وحسب عقيدتهم ليصل الشاب إلى القناعة المطلقة بأن هذه العقيدة هي صحيح الدين الذي غاب عنه المجتمع، وجب عليه أن يترقي إلى مرتبة أعلي من الجهاد ليجاهر بدعوته ضد المجتمع الذي يغوص في المعصية ويستحل المنكرات كما أخبرته عقيدته الجديدة، فيبدأ في رحلة الجهاد المجتمعي وهو علي قناعة بأن هذا هو الطريق الذي لا يصح دونه دينه ولكنه لايدري أن جماعته لاتنتظر منه أن يهدي العاصيين أو أن يضم إلى جماعتهم أسرته وأهله وأصدقاؤوه، بل أنهم يدفعونه دفعا لكي يشتد عليهم بنصحه ويقسو عليهم بكلماته حتى يتم رفضه من مجتمعه ويصل إلى تمام حالة الإنفصام المجتمعي ليعيش منبوذا بين أهله فلايصبح أمامه إلا جماعته التي ترحب به طالما هو ثابت علي عقيدتهم.

حتي تحين اللحظة التي يعلن فيها الشاب عن فقدانه الأمل في قومه لإنهم قوم لا يعقلون، ليبدأ وتبدأ معه جماعته مرحلة الجهاد الأكبر ليتم إعداده وتجهيزه ليصبح فردا في جيش الجماعة الرامي إلى تخليص الأمة من جهلها وكفرها عن طريق الجهاد الأكبر وعلي هذا تؤخذ منه البيعة علي النصر أو الشهادة.

هكذا سرت في طريقي مع هذه الجماعة وهكذا كنت قاب قوسين أو أقرب إلى الفوز بأحدي الحسنيين، حتى أراد الله أن يهديني حقا إلى طريق الأيمان الصحيح الذي لم ولن يختلف عليه مسلم منذ بعث الله رسوله بالحق. إنه طريق الأيمان المبني علي إعمال العقل، طريق الأيمان القائم علي تفعيل النعمة التي إختصنا بها العزيز القدير دون باقي المخلوقات، طريق الأيمان الذي يبدأ من بو ابة المعرفة ويسير في طريق التدبر والتفكر ليصل في النهاية إلى اليقين . فاليقين الذي يبني علي المعرفة فقط هو يقين منقوص لإن فوق كل ذي علم عليم، ولكن اليقين لا يتم أبدا لأي إنسان إلا إن محص المعرفة وتفكر في أياتها وتدبر في معانيها بأن جعل من عقله فقط هو الحكم في كل ما يأتيه من علم ومعرفة وإدراك حتى يطمئن إلى ما قبله عقله ووقر في قلبه فيصدق معها عمله.

في لحظة فارقة في حياتي أرسل العزيز القدير لي زوج خالتي اللواء بحري سيد الفخر اني - رحمه الله وغفر له ولنا وللمسلمين أجمعين وجمعني معه و أبي وأمي وخالتي وأهلي في جنة الخلد إن شاء الله - جائني هذا الشيخ الجليل الذي كنت أراه وقتها من رجالات الدولة الظالمة الداعمة لأئمة الكفر الكارهه لنور الأيمان، جائني بوجه بشوش وهو يخبرني أن عقلي هو الفيصل بين حياتي التي أحياها وحياتي التي تركتها بأختياري بعد أن قبلت أن يتم تغييبي بإختياري وإرادتي بل وأصررت علي المضي في حياة التغييب بالرغم من كل مافيها من إنفصال و إنفصام و شدة وقسوة و تأثيم وتكفير لإنني أردت أن أصبح عالما، و لكنني لم أكن أبدا... بعالم.

لم يتمتطع - رحمه الله - ويتشدق بكلماته ويحشوها بأيات وأحاديث ليبرهن علي حجته، بل تحدث بمنتهي الطبيعية حديث أب لأبنه بدون تكلف وبدون تزيين للكلمات لإن كلمات الحق لاتحتاج للتزيين ولا للحشو والتأكيد بالأيات القر أنيه والأحاديث النبوية كما كنت أفعل في أثناء أحاديثي الكثيرة ومحاولاتي المتعددة لجهاد المجتمع الذي أهممت به نفسي، حتى نسيت مع من أتكلم فرفعت الكلفة وأزلت الحدود التي فرضها المجتمع بقيمه

وتقاليده بين الأب و إبنه ولكن رفعتها عقيدتي الجديدة بين الناصح المؤمن والمنصوح العاصي الظالم لنفسه.

بعد أن تركت المنزل لفترة طويلة أهيم في المساجد و أبيت عند الإخوة الذين كانوا يعاملوني كواحد من أهل بيتهم مرحبا بوجودي في أي وقت ولأي مدة دون كلمة إعتراض أو محاولة دعوتي لكي أبر أهلي وأصل رحمهم بالرغم من أنهم كانوا دعاة دين، إلا أن دينهم لم يكن يري من عموم الدين إلا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو عنوان الجهاد المجتمعي الذي إتخذته سبيلا، فإن لم يستجيب مجتمعي الصغير لدعوتي فإن هجر هذا المجتمع يصبح ضرورة لإنه مجتمع فاسد مفسد وأن التفاحة الفاسدة تفسد الصندوق بالكامل فمابالكم لو كان كل الصندوق فاسدا، فلا مكان إذا للتفاحة السليمة وسط هذا الفساد.

كل المجتمع فاسد إن هو لم يدين بعقيدتي وعقيدة جماعتي...سبحان الله !!

حتي كان اليوم الذي لاقيت فيه هذا الرجل الذي غير حياتي ومفاهيمي ورؤيتي ونظرتي لمعني الدين وكأنني ولدت من جديد. كنت قد أطلقت لحيتي تأسيا برسول الله صلي الله عليه وسلم وإرتديت الجلباب القصير في إعلان مني بالجهر بدعوتي وبمواجهة هذا المجتمع الملئ بالمعاصي والعاصيين . وبالرغم من أن نظام الحكم في هذه الأيام كان يعاني من تطرف هذه الجماعات التي إتخذت من الجهاد الأعظم طريقا لتغيير المجتمع فكان كل من يطلق لحيته معرضا للحبس والإعتقال. وبالرغم من مطالبة والدي العديدة والمتكررة لي لكي أحلق لحيتي حتى لا يضيع مستقبلي، إلا أنني لم أكن أعيره إنتباها لإنني لم أكن أراه علي الأيمان بل هو للكفر أقرب.

وعندما سألني زوج خالتي - رحمة الله عليه - عن سبب إطلاقي للحيتي، فقد قمت بسرد كل ما حفظت من أحاديث تؤكد علي أنها سنة مؤكدة وأن تاركها يبوأ بالإثم لإنها من خصال الفطرة التي أخبرنا عنها من لاينطق عن الهوي. وظل - رحمه الله - يستمع إلى بوجه مبتسم بشوش أتذكره وكأنه كان معي بالأمس وإن كنت وقتها أنظر إليه و أتخيل أنه يسخر مني ومن علمي، إلا أنني اليوم أعلم بل أوقن أنه كان يستمع إلى بحب وود وسعادة لإنني قد تعمقت في إمور المعرفة ولكنه أيضا كان حزينا لإنني تركت فرض إعمال العقل الذي هو عصمة الأمر.

نظر لي - رحمه الله - وهو يقول لي أنه يعلم بل ويؤكد علي كل ما قلته من أن إطلاق اللحية سنة ومؤكده كما أقول وكما أفردت من أحاديث تثبت قولي. ثم نظر إلى بهدوء وسألني السؤال الذي وددت وقتها لو لم يسأله، وماذا تقول في طاعة الوالدين، هل هي فرض أم سنة؟

نظرت أليه وقد ذهبت من عيني نظرة التحدي التي كانت موجودة وقت سألني عن عقيدتي التي جاهدت المجتمع في سبيلها وضحيت من أجلها بعمر كامل عشته وسط هذا المجتمع. ولكن عندما سألني في أمر من عموم الدين، ذهبت عني نظرة التحدي لإنني علمت وقتها أنه قد دفع بي لأقف علي منحدر لن أستطيع مقاومته مهما أوتيت من علم . وحاولت أن أتهرب من الإجابة وسألته ماذا تقصد وما دخل هذا بموضوعنا.

ولكنه لم يكن متشددا كما كنت أفعل مع أسرتي وأهلي وأصدقائي، بل كان - رحمه الله - ودودا بشوشا، وقال لي إن طاعة الوالدين واجبة لإن الله قد قرنها بعبادته في أيات قر آنه عز وجل. وتوقفت عند مقولته وكأنني أبدأ حياتي من جديد... حياة جديدة أستطيع فيها أن أفكر وأن أصل إلى قناعتي لا قناعة مرشدي..!!

وبنظرة أبوية حانية أخبرني – رحمه الله - أن أبي يعلم ما لاأعلمه من أمور الدولة والسياسة ومكامن الخطورة في هذا الأمر و أنه يطلب مني أن أحلق لحيتي درءاً للخطر الذي هو مقدم علي جلب المنفعه، وأن طاعتي له في غير معصية واجبة، ثم زاد بقوله " أن الفرض يا مولانا يَجُب السنة مهماكانت مؤكدة".

في خلال خمس دقائق فقط أوصل لي رسالته - رحمه الله - التي كان لها أشد الأثر في نفسي، وحتي لايبدأ البعض في مناقشة هذه الفتوي بخصوص طاعة الوالدين وحلق اللحية لإن هذا ليس بموضوعنا علي الإطلاق فإنه يجب أن أوضح أن ما وقع في نفسي كان الفكرة نفسها قبل الحكم. كانت الفكرة التي أوضحها لي - رحمه الله - أنه لازال بإمكاني أن أفكر وأن أجتهد وأن أراجع أقوال جماعتي وأن أري مايتو افق مع مرجعيتي وثقافتي وعقيدتي التي سأسأل عنها يوم القيامة وحدي ولن ينفعني قول قائل أو فتوي مفتي لإن كل نفس بما كسبت رهينة.

لقد عملت الجماعة جاهدة على إيصالى إلى قمة الإنفصال المجتمعي من خلال إقناعي بأن الجهاد المجتمعي هو واجب ديني وفرض عين علي كل من بلغ مبلغه من العلم حيث

لايكفي وقتها التغيير بالدعاء الذي قد يكون مقبولا في جهاد النفس وحيث يصبح التغيير بالكلمة واجب علي كل قادر عاقل في مرحلة الجهاد المجتمعي قبل أن يصبح التغيير باليد واجبا علي كل الأمة وقت الجهاد الأعظم. لقد قامت الجماعة وقتها بشحني بمجموعة من الروايات والأحاديث التي أقتنعت علي أثرها أنني ممن إختارهم العزيز القدير لكي يحملوا رسالة التنوير والتغيير في المجتمع بما وصلني من علم الإخوة وبما فهمته من فهمهم للدين وبما جعلني أدخل في صراع ديني مجتمعي مع أسرتي وأهلي وأصدقائي فأتحول عنهم بعد أن رأيتهم للكفر أقرب منهم للأيمان ضاربا بأيات صلة الرحم وطاعة الوالدين والإحسان إليهم عرض الحائط لإنني لم أعد أري إلا ما يري مرشدي.

وكما حدث معي منذ ثلاثين عاما يحدث اليوم وأمس وغدا مع كل من يتم إجتذابهم ليصبحوا جنودا في جيش الجماعات، ليتم تأهيلهم للجهاد المجتمعي شكلا وللأنفصال المجتمعي مضمونا حتى يصلوا إلى المرحلة التي يشعرون فيها أنهم ليسوا جزءاً من هذا المجتمع وأن وطنهم هو جماعتهم وأن مجتمعهم هو ساحة الجهاد التي يبدأ منه مشروع إقامة دولة الخلافة، فنجدهم وهم ينقلبون علي النظام ويخونون مؤسسات المجتمع ولايرون من رجالات الدين إلا نفاقهم لنظام الحكم ليصبح المجتمع في نظرهم هو العدو تماما كما رأيته وكما جاهدته وكما رفضته وكما أعددت نفسي يومها للجهاد الأعظم حتى إستمعت لكلمات رجل فهم الدين حق الفهم وعلم أن تمام قبول أمانة التكليف لايكون إلا بإعمال العقل وأن تغييب العقل هو جحود للنعمة التي فضلنا بها الله سبحانه وتعالى علي باقي خلقه، فكان أن إستطاع ببعض الكليمات أن يغير من فكري وتفكيري ومصيري.

إننا جميعا نسير في حياتنا هذه حسب ما هو مقدور لنا، ولكن الأكيد أن عدل الخالق ورحمته تسبق قدره وقضائه. لهذا لم يتركنا العزيز القدير نسير في حياتنا مسلوبي الأرادة، بل أنه دائما مايرسل لنا من الإشارات والدلالات ما يجعل لنا الخيرة من أمرنا إن نحن تدبرنا في أمورنا وتفكرنا فيما يأتينا من علامات إلهية قد تغير مسيرتنا ومصيرنا. اللهم إنا نسألك الهداية وأن تجعل لنا من أمرنا رشدا... اللهم أمين.

السمع والطاعة

في يونيو من عام 1927 حصل حسن البنا علي دبلوم دار العلوم العليا حيث جاءه التكليف ليترك القاهرة ويسافر إلى الإسماعيلية للعمل كمعلما للخط بمدرسة الإسماعيلية الإبتدائية الأميرية . ووسط أجواء الغربة والوحدة بدأ البنا في التفكر في أحوال البلاد والعباد وما صار إليه المجتمع من فرقه وما أصابه من تعصب للفكر وبعد عن لب العقيدة. ولأن البنا كان متصوفا من مريدين الشيخ عبد الوهاب الحصافي شيخ الطريقة الصوفية الحصافية والذي كان له بالغ الآثر في تكوين شخصية حسن البنا، فقد إعتزل البنا جمهور المساجد، وبدأ في مجالسة جماهير المقاهي وهو يعمد إلى أن يبشرهم ويقربهم من الدين حيث أنه في هذا الوقت لم ينتهج فكر التنفير الذي كان يحدث فرقة في العقيدة ويبعد من كان علي معصية من الإستماع إلى دعوة الدين إن تمكن اليأس من قلبه.

وقد ظل البنا في دعوته هذه منفردا وهو يجمع الناس علي الدين ويثبت لهم أنه ليس في الدين فرقه بل أن الدين يجمع بين الناس ويجعل منهم جميعا إخوة بغض النظر عن عقيدتهم أو ملتهم وبغض النظر عن ثقافتهم أو مرجعيتهم لإن الدين لم يكن أبدا حكرا علي أحد ولا يملك أحد أن يفرق بين البشرية بأسم الدين. حتى كان يوم إعلان دعوة الإخوان في 22 من مارس 1928م، إذ زار البنا في ذلك اليوم ستة من إخوانه هم: حافظ عبد الحميد (نجار)، أحمد الحصري (حلاق)، فؤاد إبراهيم (مكوجي)، عبد الرحمن حسب الله (سائق)، إسماعيل عز (جنايني)، وزكي المغربي (عجلاتي)، وهم ممن تأثروا بخطبه التي كان يلقيها علي المقاهي وهو يبسط الدين في أبسط معانيه حتى يستطيع التواصل مع العامة من أهالى الإسماعيلية حيث كان هذا هو الهدف والمنهج والمدخل لنشر دعوته. (أوراق من تاريخ الإخوان المسلمين- جمعة أمين عبد العزيز- الكتاب الثاني)

يخبرنا الأستاذ عامر شماخ في مجموعة مقالاته عن البذرة الأولي للإخوان المسلمين التي تم نشرها علي موقع إخوان أون لاين بتاريخ 13-03-2013 أن البنا قد جلس مع هذا الجمع من هؤلاء المفتونين بحديثه المعجبين بحلاوة لسانه المأخوذين بما يقصه عليهم من أثار الآولين وهم يتحدثون إليه وفي صوتهم قوة، وفي عيونهم بريق، وعلى وجوههم سنا الإيمان

والعزم، وقالوا: ((ما الطريق إلى عزة الإسلام وخير المسلمين؟! ونحن لا نملك إلا هذه الدماء تجري حارة بالعزة في عروقنا، وهذه الأرواح تسري مشرقة بالإيمان والكرامة مع أنفسنا، وهذه الدراهم القليلة من قوت أبنائنا، وكل الذي نريده أن يكون لك ما نملك؛ لنبرأ من التبعة بين يدي الله وتكون أنت المسئول بين يديه عنا، وعما يجب أن نعمل)) .

ويوضح الأستاذ عامر شماخ وقع هذا القول في نفس البنا، حيث لم يستطع أن يتنصل من هذه التبعة، وقال في تأثر عميق: ((شكر الله لكم، وبارك هذه النية الصالحة، ووفقنا إلى عمل صالح، يرضى الله وينفع الناس، وعلينا العمل وعلى الله النجاح، فلنبايع الله على أن نكون لدعوة الإسلام جندًا، وفيها حياة الوطن وعزة الأمة)).. وكانت بيعة، وكان قسمًا: أن نحيا إخو انًا نعمل للإسلام، ونجاهد في سبيله..

إذا بدأت جماعة الإخوان المسلمين ببيعة من ستة من أصدقاء أو مريدين أو حواريين أو صحابة أو إخوان البنا أو أيا كان مسماهم ليضعوا بين يديه كل مايملكونه بدون هدف محدد إلا أن يبرأوا أمام الخالق ويجعلوا أمر التصرف فيما قدموه في رقبته ليصبح هو المسئول عنهم وعن ماقدموه له أمام العزيز القدير، متناسيين تماما أنه لن يغنيهم البنا ولا شيخه ولا من هو أعلي مقاما عن مسائلتهم يوم القيامة عن عمرهم وعلمهم ومالهم وعملهم لإن كل منا سيسأل وحده وسيحاسب وحده وسيجازي وحده مهما حاول أن يضعها في رقبة شيخ شيوخ الأمة. ولكنهم تصوروا كما يتصور الكثير من أتباع هذه الجماعات علي مر العصور، أن دينهم لن يتم إلا إن ساروا وراء الإمام الذي يهديهم وينير لهم طريق الأيمان بفكره ونصحه ومنهجه الذي هو بالنسبة لهم صحيح الدين الذي سيسألون يوم القيامة عن مدي تصديقهم فيه ومدي عملهم به ومدي إستماتتهم في الدفاع عنهم وكأن عقيدة شيخهم قد أصبحت هي الدين وكأن شيخهم قد أصبح منهم في منزلة الرسول من أصحابه والعياذ بالله.

إذا بدأت جماعة الإخوان بالبيعة...!! بدأت جماعة الإخوان بالقسم علي الولاء والطاعة للأستاذ الذي كان أعلمهم ليس بمقدار علمه، ولكن بمقدار علمهم وهم الجنايني والسائق والعجلاتي والمكوجي والحلاق والنجار وهو ما لاينتقص من إنسانيتهم من شئ ولكن بالتأكيد يظهر الفارق الشديد في المستوي التعليمي والثقافي بين الحاصل علي دبلوم دار العلوم وبين كل هؤلاء الحرفيين الذين لم يتلقوا القدر الكافي من التعليم ولكنهم تلقوا

القدر المتاح من كلام الأستاذ الذي أهلهم ليصبحوا دعاة الأمة وحملة مصابيح التنوير وفق عقيدتهم التي إعتنقوها وصدقوا أنها هي فقط الصحيحة ودونها باطل.

يقول إبن خلدون عن تعريف البيعة: ((أن البيعة هي العهد على الطاعة، وكأن المبايع يعاهد أميره على أن يسلم له النظر في أمور نفسه وأمور المسلمين، لا ينازعه في شيء من ذلك، ويطيعه فيما يكلفه به من الأمر على المنشط والمكره، فكانوا إذا بايعوا الأمير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في يده تأكيدا للعهد، فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري، فسمي بيعة مصدر باع، وصارت البيعة مصافحة بالأيدي، هذا مدلولها في عرف اللغة ومعهود الشرع وهو المراد في الحديث في بيعة النبي -صلى الله عليه وسلم- ليلة العقبة وعند الشجرة)) .

وقد تلقى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بيعتي العقبة بعد الإقناع بالحسنى، والموعظة الحسنة للدخول في الإسلام، فلما قبل المسلمون، وأعلنوا الشهادة أخذ منهم البيعة وفق مبادئ محددة، وهذه البيعة لم تكن لشخص الرسول -صلى الله عليه وسلم- و إنما كانت الدعوة والبيعة لله وحده وهذا هو مربط الفرس، ومع هذا فلم تتم المبايعة كتفويض من المسلمين لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- ليفعل بهم ما يشاء وهم يعلمون ويصدقون أنه رسول الله وخاتم النبيين، ولكنهم بايعوه علي نصرة الدين والوقوف خلفه يمنعونه ويحمونه مما يمنعون منه أهليهم وفي المقابل تعهد الرسول صلي الله عليه وسلم بالوقوف في صفهم والتناصر بين الطرفين لوأد الفتنة بين بطون يثرب ووعدهم الجنة إن هم أخلصوا في بيعتهم هذه.

لقد كانت هذه البيعة أشبه برباط يوثق به طرفان ينشئ حقوقا، وواجبات لكلا الطرفين، يحكمه في الأمور كلها منهج الشرع الذي أقره الطرفان ليصل بهم إلى غايتهم من إقامة الدولة الإسلامية في الدنيا والفوز بالجنة في الأخرة ليس عن أمنية ممن لايملك، ولكن عن وعد من رسول الله لكل من صح إيمانه وصدق في بيعته.

ولكن هل إشترط الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم البيعة علي كل من أمن به ودخل في الإسلام؟

بطبيعة الحال وكلنا يعلم ذلك تمام العلم أن البيعة لم تكن أبدا فرضا علي المسلمين عند دخولهم في الإسلام لإن كل ما كان مطلوبا منهم هو أن ينطقوا بالشهادة لتكون شهادتهم بيعة بحد ذاتها فور نطقهم بها تدخلهم في زمرة المسلمين ليكون لهم ما للمسلمين

من حقوق وعليهم ما علي المسلمين من واجبات. ولكن لم يبقي الحال هكذا بعد موت الرسول صلي الله عليه وسلم حيث وجبت البيعة لخليفته ومن ولي أمر المسلمين من بعده من منطلق توحيد صف المسلمين وراء حاكمهم والتأكيد علي عدم شق صفوف المسلمين الذين وحدهم الدين بسبب إختلاف سياسي، لتكون البيعة صيغة توحد وعهد علي إلتزام الجماعة وحماية الوطن من الفتنة.

لهذا نجد أن البيعة هي ميثاق الولاء للنظام السياسي الذي يحكم الأمة و إقرارالالتزام بجماعة المسلمين والطاعة لحاكمهم الذي تولي أمرهم لإنه لايوجد في الدين بيعة كما أسلفنا. فالدين لايطلب من متبعيه الإقراربالبيعة علي أداء فروضهم والإلتزام بالشريعة وأداء العبادات لإن كل هذا هو فرض عين علي كل من إتخذ من الدين منهجا وأعلن إتباعه لهذا الدين بأن أعلن الشهادة كما في الإسلام أو قبل التعميد كما في المسيحية أو اليهودية أو حتى تبرك بالمياه المقدسة كما في الهندوسية.

أما البيعة في مفهومها العام هي ميثاق إنساني يتبع رؤية سياسية بدأت في العصور القديمة لتجمع الأمة علي إتباع حاكمها وتوحد من الشعب وراء حاكم تم تنصيبه ليقود الدولة وفق المنهج الذي تم البيعة عليه للحاكم من قبل القائمين بالبيعة . ولا تنتهي مسئولية الأمة بعقد البيعة بل تستمر في تحمل تبعة حفظ هذا العهد الذي بايعوا عليه من خلال التمثيل النيابي الذي يهدف إلى الرقابة على الحاكم، ونصح الحاكم والتصدي له إذا حاد عن المنهج الذي تمت البيعة وفق.

وإذا كان الكثير من الكتابات القديمة والحديثة قد ركزت عند دراسة البيعة على بعد "الطاعة"، أو الالتزام السياسي من جانب الرعية، وفصلت في شروط إختيار الحاكم وكيفية توليته وصلاحياته؛ فإن المحدثين قد أجمعوا علي أن البيعة بصورتها القديمة قد تم تضمينها في الدساتير الدولية لتصبح حق للمواطن وليست التزاما فحسب.

لقد تحولت البيعة من شكلها التقليدي الذي يقضي بمصافحة اليد والنطق بالبيعة إلى شكلها الحديث للدولة المدنية الديمقراطية المتمثلة في حق الإنتخاب وشروط الترشح والحقوق والواجبات الدستورية للحاكم التي تخول له الإستمرار في الحكم إذا ما إلتزم بهذه العهود الدستورية لتبقي البيعة في عمومها ذات مدلول سياسي لتناول الحكم بعيدة كل البعد عن المدلول الديني الذي حاولت ولازالت كل الجماعات الدينية أن تصبغ به مدلول البيعة لتجعل من البيعة ميثاق لنصرة الدين وإسترجاع دولة الخلافة إن هم

ساروا وراء أميرهم الذي بايعوه ليرفعوا عصا الإنشقاق عن الأمة وليعلنوا أنهم دولة داخل الدولة.

وقد فسرت معظم الجماعات الإسلامية البيعة وفقا لحديث الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم الذي رواه مسلم في صحيحه بإسناده عن زيد ين محمد بن نافع: ((من خلع يداً من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حجة له ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية)) . لقد إتخذت هذه الجماعات من هذا الحديث سندا لوجوب البيعة للإمام الذي تم تنصيبه من قبل كل جماعة وجعلوا منه حاكما لهم واليا عليهم مرشدا معلما لصحيح دينهم حتى أوجبوا البيعة لأمير الجماعة رافعين راية الإنشقاق عن الأمة بما إستحدثوه من فهم لهذا الحديث الذي هو بعيد كل البعد عن ما إستحدثوه.

لقد ذكر الشيخ النووي في تفسيره لصحيح مسلم عن هذا الحديث بأن من مات، ولا طاعة عليه مات ميتة جاهلية، لإن أهل الجاهلية من العرب ونحوهم لم يكونوا يطيعون أميرا عاما على ما هو معروف من سيرتهم. ومن صحت إمامته و انعقدت له البيعة واجتمع عليه الناس ولو كان متغلبا بالقهر فإنه يجب الدخول في طاعته وعدم شق عصا المسلمين بالخروج عليه. وكلام الأئمة في هذا كثير منتشر. ثم إنه لا تجوز طاعته في معصية الله تعالى، ويجب نصحه بما أمكن من النصح إذا فعل ما هو خلاف الشرع؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: الدين النصيحة. قالوا: لمن يا رسول الله؟ قال: لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم. رواه مسلم. ثم زاد عليه بتفسير قول الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم أن من خلع يداً من طاعة لقي الله تعالى يوم القيامة لا حجة له.. أي لا حجة له في فعله ولا عذر له ينفعه ولا ولي يشفع عنه.

ولكن لم تقنع كل الجماعات إلا بالمدلول الديني للبيعة بأن جعلت من البيعة ميثاق وعهد يؤخذ من الأتباع إلى أمير أو مرشد أو إمام أو ولي كل جماعة يعاهدونه بموجبها علي السمع والطاعة وأن يبذلوا كل نفيس وغالى من أجل إعلاء عقيدة جماعتهم ونصرة إمامهم التي هي نصرة للدين متخذين من بيعتي الرضوان مرجعا ومسندا وكأنهم هم الأنصار من أهل يثرب وكأن دعوتهم وجماعتهم هي فقط جماعة المسلمين، بل وكأن مرشدهم وإمامهم في منزلة الرسول الكريم صلي الله عليه وسلم والعياذ بالله.

وقد ذكر حسن البنا أركان البيعة الواجبة علي جماعة الإخوان المسلمين الذين آمنوا بدعوته، وقدسية فكرته، وعزموا صادقين على أن يعيشوا بها، أو يموتوا فى سبيلها .

حسب قوله فى تراث حسن البنا. والذى نشر فى كتاب "مقومات رجل العقيدة على طريق الدعوة" للمرشد السابق مصطفى مشهور، وتفصيل الأصول العشرين لفهم الإخوان المسلمين "الركن الأول للبيعة،" والتى شرحها الدكتور يوسف القرضاوى، والشيخ جمعة أمين، والدكتور عبد الكريم زيدان، والشيخ سعيد حوَّى وذلك بنص ما قاله: ((أيها الإخوان الصادقون: أركان بيعتنا عشرة فاحفظوها.. الفهم، الإخلاص، العمل، الجهاد، التضحية، الطاعة، الثبات، التجرد، الأخوة، والثقة)).

إن البيعة عند الإخوان المسلمين هى إحدى أهم الركائز الأساسية، التى يتعلق بها نظام الإخوان المسلمين الأساسى، وقاعدتهم الأساسية مبنية بشكل كامل على مضمون هذه البيعة وتطبيقاتها بالتبعية. وقد ظهرت بيعة الإخوان المسلمين مع بداية نشأتهم على يد الإمام حسن البنا عام 1928 وهى البيعة التي أخذها حسن البنا لنفسه وعمره وقتها 23 عامًا عام 1928 بعد سقوط دولة الخلافة الإسلامية فى تركيا على يد مصطفى كمال أتاتورك عام 1924.

وتنص البيعة عند الإخوان المسلمين حسب ماتم ذكره في مذكرات الإمام الشهيد حسن البنا و في كتاب سيد قطب "معالم فى الطريق":

((أبايعك بعهد الله وميثاقه على أن أكون جنديًا مخلصًا فى جماعة الإخوان المسلمين، وعلى أن أسمع وأطيع فى العسر واليسر والمنشط والمكره إلا فى معصية الله، وعلى أثرة علىّ، وعلى ألا أنازع الأمر أهله، وعلى أن أبذل جهدى ومالى ودمى فى سبيل الله ما استطعت إلى ذلك سبيلا والله على ما أقول وكيل"، "فمَن نكث فإنما ينكُث على نفسه ومَن أوفى بما عاهد عليه اللهَ فسيؤتيه أجرًا عظيمًا)).

ويقول مؤرخو جماعة الإخوان المسلمين إن البيعة لدى الإخوان المسلمين تنقسم إلى قسمين:

البيعة الكلية: التى تكون للإمام أو خليفة المسلمين؛ ولأن الخلافة انتهت فلا يوجد الآن معنى للبيعة الكلية.

أما البيعة الجزئية فهى البيعة لجماعة الإخوان المسلمين ومرشدها العام، وبالتالى تكون البيعة الجزئية المؤقتة، وأما إذا وجد خليفة للمسلمين الذي تدين له الجماعة بالولاء

مجتمعة، فإن البيعة الجزئية تنحل تلقائيًا وتصبح البيعة واجبة لخليفة المؤمنين الذي إرتضته الجماعة وبايعه مرشدها.

وقد حدد حسن البنا أركان البيعة في رسائله التي تم جمعها في كتاب "مجموعة الرسائل" والتي كان نصها:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة و السلام على إمام المتقين وقائد المجاهدين سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه ومن تبع هداهم إلى يوم الدين .

أما بعد:

فهذه رسالتي إلى الإخوان المجاهدين من الإخوان المسلمين الذين آمنوا بسمو دعوتهم، وقدسية فكرتهم، وعزموا صادقين على أن يعيشوا بها، أو يموتوا في سبيلها، إلى هؤلاء الإخوان فقط أوجه هذه الكلمات، وهي ليست دروساً تحفظ، ولكنها تعليمات تنفذ , فإلى العمل أيها الإخوان الصادقون: (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (التوبة:105) , (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) (الأنعام:153) أما غير هؤلاء.. فلهم دروس ومحاضرات , وكتب ومقالات , ومظاهر وإداريات , ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات , وكلا وعد الله الحسنى .

أركان البيعة

أيها الإخوان الصادقون , إن أركان بيعتنا عشر فاحفظوها:

الفهم و الإخلاص و العمل و الجهاد و التضحية و الطاعة و الثبات و التجرد و الأخوَّة و الثقة .

الفهم: إنما أريد بالفهم: أن توقن بأن فكرتنا إسلامية صميمة و أن تفهم الإسلام كما نفهمه , في حدود هذه الأصول العشرين الموجزة كل الإيجاز:

1- الإسلام نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعا فهو دولة ووطن أو حكومة وأمة، وهو خلق وقوة أو رحمة وعدالة، وهو ثقافة وقانون أو علم وقضاء، وهو مادة أو كسب وغنى، وهو جهاد ودعوة أو جيش وفكرة، كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواء بسواء .

2- والقرآن الكريم والسنة المطهرة مرجع كل مسلم في تعرف أحكام الإسلام، ويفهم القرآن طبقا لقواعد اللغة العربية من غير تكلف ولا تعسف، ويرجع في فهم السنة المطهرة إلى رجال الحديث الثقات .

3- وللإيمان الصادق والعبادة الصحيحة والمجاهدة نور وحلاوة يقذفهما الله في قلب من يشاء من عباده، ولكن الإلهام والخواطر والكشف والرؤى ليست من أدلة الأحكام الشرعية، ولا تعتبر إلا بشرط عدم اصطدامها بأحكام الدين ونصوصه.

4- والتمائم والرقي والودع والرمل والمعرفة والكهانة وادعاء معرفة الغيب، وكل ما كان من هذا الباب منكر تجب محاربته إلا ما كان آية من قرآن أو رقية مأثورة.

5- ورأي الإمام ونائبه فيما لا نص فيه، وفيما يحتمل وجوها عدة وفي المصالح المرسلة معمول به ما لم يصطدم بقاعدة شرعية، وقد يتغير بحسب الظروف والعرف والعادات، و الأصل في العبادات التعبد دون الالتفات إلى المعاني، وفي العاديات الالتفات إلى الأسرار و الحكم و المقاصد .

6- وكل أحد يؤخذ من كلامه ويترك إلا المعصوم صلى الله عليه وسلم، وكل ما جاء عن السلف رضوان الله عليهم مو افقا للكتاب والسنة قبلناه، و إلا فكتاب الله وسنة رسوله أولى بالإتباع، ولكنا لا نعرض للأشخاص .فيما اختلف فيه .بطعن أو تجريح، ونكلهم إلى نياتهم وقد أفضوا إلى ما قدموا.

7- ولكل مسلم لم يبلغ درجة النظر في أدلة الأحكام الفرعية أن يتبع إماما من أئمة الدين، ويحسن به مع هذا الإتباع أن يجتهد ما استطاع في تعرف أدلته، وان يتقبل كل إرشاد مصحوب بالدليل متى صح عنده صلاح من أرشده وكفايته، وأن يستكمل نقصه العلمي إن كان من أهل العلم حتى يبلغ درجة النظر.

8- والخلاف الفقهي في الفروع لا يكون سببا للتفرق في الدين، ولا يؤدي إلى خصومة ولا بغضاء ولكل مجتهد أجره، ولا مانع من التحقيق العلمي النزيه في مسائل الخلاف في ظل الحب في الله والتعاون على الوصول إلى الحقيقة، من غير أن يجر ذلك إلى المراء المذموم والتعصب.

9- وكل مسألة لا ينبني عليها عمل فالخوض فيها من التكلف الذي نهينا عنه شرعا، ومن ذلك كثرة التفريعات للأحكام التي لم تقع، والخوض في معاني الآيات القرآنية الكريمة التي لم يصل إليها العلم بعد، والكلام في المفاضلة بين الأصحاب رضوان الله عليهم وما شجر بينهم من خلاف، ولكل منهم فضل صحبته وجزاء نيته وفي التأول مندوحة .

10- ومعرفة الله تبارك وتعالى وتوحيده وتنزيهه أسمى عقائد الإسلام، وآيات الصفات وأحاديثها الصحيحة وما يليق بذلك من التشابه، نؤمن بها كما جاءت من غير تأويل ولا تعطيل، ولا نتعرض لما جاء فيها من خلاف بين العلماء، ويسعنا ما وسع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه (وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا) (آل عمران:7) .

11- وكل بدعة في دين الله لا أصل لها . استحسنها الناس بأهوائهم سواء بالزيادة فيه أو بالنقص منه . ضلالة تجب محاربتها والقضاء عليها بأفضل الوسائل التي لا تؤدي إلى ما هو شر منها .

12- والبدعة الإضافية والتَّركية والالتزام في العبادات المطلقة خلاف فقهي، لكل فيه رأيه، ولا بأس بتمحيص الحقيقة بالدليل والبرهان .

13- ومحبة الصالحين واحترامهم والثناء عليهم بما عرف من طيب أعمالهم قربة إلى الله تبارك وتعالى، والأولياء هم المذكورون بقوله تعالى (الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)، والكرامة ثابتة بشرائطها الشرعية، مع اعتقاد أنهم رضوان الله عليهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا في حياتهم أو بعد مماتهم فضلا عن أن يهبوا شيئا من ذلك لغيرهم .

14- وزيارة القبور أيا كانت سنة مشروعة بالكيفية المأثورة، ولكن الاستعانة بالمقبورين أيا كانوا ونداؤهم لذلك وطلب قضاء الحاجات منهم عن قرب أو بعد والنذر لهم وتشييد القبور وسترها وأضاءتها والتمسح بها والحلف بغير الله وما يلحق بذلك من المبتدعات كبائر تجب محاربتها، ولا نتأول لهذه الأعمال سدا للذريعة .

15- والدعاء إذا قرن بالتوسل إلى الله تعالى بأحد من خلقه خلاف فرعي في كيفية الدعاء وليس من مسائل العقيدة .

16- والعرف الخاطئ لا يغير حقائق الألفاظ الشرعية، بل يجب التأكد من حدود المعاني المقصود بها، والوقوف عندها، كما يجب الاحتراز من الخداع اللفظي في كل نواحي الدنيا والدين، فالعبرة بالمسميات لا بالأسماء .

17- والعقيدة أساس العمل، وعمل القلب أهم من عمل الجارحة، وتحصيل الكمال في كليهما مطلوب شرعاً وإن اختلفت مرتبتا الطلب.

18- والإسلام يحرر العقل، ويحث على النظر في الكون، ويرفع قدر العلم والعلماء، ويرحب بالصالح والنافع من كل شيء، والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها .

19- وقد يتناول كل من النظر الشرعي والنظر العقلي ما لا يدخل في دائرة الآخر، ولكنهما لن يختلفا في القطعي، فلن تصطدم حقيقة علمية صحيحة بقاعدة شرعية ثابتة، ويؤول الظني منهما ليتفق مع القطعي، فإن كانا ظنيين فالنظر الشرعي أولى بالإتباع حتى يثبت العقلي أو ينهار.

20- ولا نكفر مسلما أقر بالشهادتين وعمل بمقتضاهما وأدى الفر ائض .برأي أو بمعصية .إلا إن أقر بكلمة الكفر، أو أنكر معلوما من الدين بالضرورة، أو كذب صريح القرآن، أو فسره على وجه لا تحتمله أساليب اللغة العربية بحال، أو عمل عملا لا يحتمل تأويلا غير الكفر.

و إذا علم الأخ المسلم دينه في هذه الأصول، فقد عرف معنى هتافه دائما (القرآن دستورنا و الرسول قدوتنا) .

الإخـلاص: و أريد بالإخلاص: أن يقصد الأخ المسلم بقوله وعمله وجهاده كله وجه الله، و ابتغاء مرضاته وحسن مثوبته من غير نظر إلى مغنم أو مظهر أو جاه أو لقب أو تقدم أو تأخر، وبذلك يكون جندي فكرة وعقيدة، لا جندي غرض و منفعة، (قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (الأنعام:162)، و بذلك يفهم الأخ المسلم معنى هتافه الدائم (الله غايتنا) و (الله أكبر ولله الحمد) .

العمـل: و أريد بالعمل: ثمرة العلم والإخلاص: (وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (التوبة:105) . ومر اتب العمل المطلوبة من الأخ الصادق:

أ- إصلاح نفسه حتى يكون: قوي الجسم، متين الخلق، مثقف الفكر، قادرا على الكسب، سليم العقيدة، صحيح العبادة، مجاهدا لنفسه، حريصا على وقته، منظما في شؤونه، نافعا لغيره، وذلك واجب كل أخ على حدته .

ب- وتكوين بيت مسلم، بان يحمل أهله على احترام فكرته، والمحافظة على آداب الإسلام في مظاهر الحياة المنزلية، وحسن اختيار الزوجة، و توقيفها على حقها و واجبها، وحسن تربية الأولاد، والخدم وتنشئتهم على مبادئ الإسلام، وذلك واجب كل أخ على حدته كذلك .

ت- وإرشاد المجتمع، بنشر دعوة الخير فيه، ومحاربة الرزائل و المنكرات، و تشجيع الفضائل، والأمر بالمعروف، والمبادرة إلى فعل الخير، وكسب الرأي العام إلى جانب الفكرة الإسلامية، وصبغ مظاهر الحياة العامة بها دائما، وذلك واجب كل أخ على حدته، و واجب الجماعة كهيئة عاملة .

ث- وتحرير الوطن بتخليصه من كل سلطان أجنبي .غير إسلامي .سياسي أو اقتصادي أو روحي .

ج- واصلاح الحكومة حتى تكون إسلامية بحق، وبذلك تؤدي مهمتها كخادم للأمة و أجير عندها و عامل على مصلحتها، والحكومة إسلامية ما كان أعضاؤها مسلمين مؤدين لفر ائض الإسلام غير متجاهرين بعصيان، وكانت منفذة لأحكام الإسلام وتعاليمه

ح- ولا بأس أن نستعين بغير المسلمين عند الضرورة في غير مناصب الولاية العامة و لا عبرة بالشكل الذي تتخذه و لا بالنوع، مادام مو افقا للقواعد العامة في نظام الحكم الإسلامي .

خ- ومن صفاتها: الشعور بالتبعية، والشفقة على الرعية، و العدالة بين الناس، والعفة عن المال العام، والاقتصاد فيه .

د- ومن واجباتها: صيانة الأمن , و إنفاذ القانون , ونشر التعليم , وإعداد القوة , وحفظ الصحة , ورعاية المنافع العامة , وتنمية الثروة , وحراسة المال , وتقوي الأخلاق، ونشر الدعوة .

ذ- ومن حقها - متى أدت واجبها -: الولاء والطاعة، والمساعدة بالنفس والأموال.

ر- فإذا قصرت: فالنصح والإرشاد، ثم الخلع والإبعاد، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

ز- إعادة الكيان الدولي للأمة الإسلامية , بتحرير أوطانها وإحياء مجدها وتقريب ثقافتها وجمع كلمتها , حتى يؤدى ذلك كله إلى إعادة الخلافة المفقودة والوحدة المنشودة .

س- و أستاذية العالم بنشر دعوة الإسلام في ربوعه (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله) (لأنفال:39) , (وَيَأْبَى اللهُ إِلا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) (التوبة:32)

وهذه المراتب الأربعة الأخيرة تجب على الجماعة متحدة وعلى كل أخ باعتباره عضوا في الجماعة , وما أثقلها تبعات وما أعظمها مهمات , يراها الناس خيالا ويراها الأخ المسلم حقيقة , ولن نيأس أبدا , ولنا في الله أعظم الأمل (وَاللهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) (يوسف:21) .

الجهاد: و أريد بالجهاد: الفريضة الماضية إلى يوم القيامة و المقصود بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من مات ولم يغزو ولم ينو الغزو مات ميتة جاهلية)، وأول مراتبه إنكار القلب، وأعلاها القتال في سبيل الله، وبين ذلك جهاد اللسان و القلم واليد وكلمة الحق عند السلطان الجائر، ولا تحيا دعوة إلا بالجهاد، وبقدر سمو الدعوة و سعة أفقها تكون عظمة الجهاد في سبيلها، وضخامة الثمن الذي يطلب لتأييدها، و جزالة الثواب للعاملين: (وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ) (الحج:78) .

وبذلك تعرف معنى هتافك الدائم: (الجهاد سبيلنا) .

التضحية: وأريد بالتضحية: بذل النفس والمال والوقت والحياة وكل شيء في سبيل الغاية، وليس في الدنيا جهاد لا تضحية معه، ولا تضيع في سبيل فكرتنا تضحية، و إنما هو الجر الجزيل و الثواب الجميل ومن قعد عن التضحية معنا فهو آثم: (إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ) الآية، (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَ أَبْنَاؤُكُمْ..) الآية، (ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ) الآية،(فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً)، وبذلك تعرف معنى هتافك الدائم: (والموت في سبيل الله أسمى أمانينا) .

الطاعة: وأريد بالطاعة: امتثال الأمر وإنفاذه توا في العسر و اليسر و المنشط و المكره، و ذلك أن مراحل هذه الدعوة ثلاث:

1- التعريف: بنشر الفكرة العامة بين الناس، ونظام الدعوة في هذه المرحلة نظام الجمعيات الإدارية، و مهمتها العمل للخير العام و وسيلتها الوعظ و الإرشاد تارة و إقامة المنشآت النافعة تارة أخرى، إلى غير ذلك من الوسائل العملية، وكل شعب

الإخوان القائمة الآن تمثل هذه المرحلة من حياة الدعوة، وينظمها القانون الأساسي للجماعة، وتشرحها وسائل الإخوان و جريدتهم، والدعوة في هذه المرحلة عامة .

ويتصل بالجماعة فيها كل من أراد من الناس متى رغب المساهمة في أعمالها ووعد بالمحافظة على مبادئها، وليست الطاعة التامة لازمة في هذه المرحلة بقدر ما يلزم فيها احترام النظم و المبادئ العامة للجماعة .

2- التكوين: باستخلاص العناصر الصالحة لحمل أعباء الجهاد وضم بعضها إلى بعض، و نظام الدعوة – في هذه المرحلة – صوفي بحت من الناحية الروحية، وعسكري بحت من الناحية العملية، وشعار هاتين الناحيتين (أمر وطاعة) من غير تردد ولا مراجعة ولا شك ولا حرج، وتمثل الكتائب الإخوانية هذه المرحلة من حياة الدعوة، وتنظمها رسالة المنهج سابقا، وهذه الرسالة الآن . والدعوة فيها خاصة لا يتصل بها إلا من استعد استعدادا تاما حقيقيا لتحمل أعباء جهاد طويل المدى كثير التبعات، وأول بوادر هذا الاستعداد كمال الطاعة .

3- التنفيذ: وهي مرحلة جهاد لا هوادة فيه، وعمل متواصل في سبيل الوصول إلى الغاية، وامتحان و ابتلاء لا يصبر عليهما إلا الصادقون، ولا يكفل النجاح في هذه المرحلة إلا كمال الطاعة كذلك وعلى هذا بايع الصف الأول من الإخوان المسلمين في يوم 5 ربيع الأول سنة 1359هـ. و أنت بانضمامك إلى هذه الكتيبة، وتقبلك لهذه الرسالة، وتعهدك بهذه البيعة، تكون في الدور الثاني، وبالقرب من الدور الثالث، فقدّر التبعة التي التزمتها وأعدّ نفسك للوفاء بها .

الثبات: وأريد بالثبات: أن يظل الأخ عاملا مجاهدا في سبيل غايته مهما بعدت المدة وتطاولت السنوات والأعوام , حتى يلقى الله على ذلك وقد فاز بإحدى الحسنيين , فإما الغاية وإما الشهادة في النهاية , (مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً) (الأحزاب:23) , والوقت عندنا جزء من العلاج , والطريق طويلة المدى بعيدة المراحل كثيرة العقبات , ولكنها وحدها التي تؤدي إلى المقصود مع عظيم الأجر وجميل المثوبة . وذلك أن كل وسيلة من وسائلنا الستة تحتاج إلى حسن الإعداد وتحين الفرص ودقة الإنفاذ , وكل ذلك مرهون بوقته (وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً) (الاسراء:51).

التجرد: وأريد بالتجرد: أن تخلص لفكرتك مما سواها من المبادئ والأشخاص، لأنها أسمى الفكر وأجمعها و أعلاها: (صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً) (البقرة:138) , (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ إِلا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) (الممتحنة:4) .

والناس عند الأخ الصادق واحد من ستة أصناف: مسلم مجاهد , أو مسلم قاعد، أو مسلم آثم، أوذمي معاهد، أومحايد، أومحارب , ولكل حكمه في ميزان الإسلام , وفى حدود هذه الأقسام توزن الأشخاص و الهيئات، ويكون الولاء أو العداء .

الأخوة: وأريد بالأخوة: أن ترتبط القلوب والأرواح برباط العقيدة، والعقيدة أوثق الروابط وأغلاها، والأخوة أخت الإيمان، والتفرق أخو الكفر، وأول القوة: قوة الوحدة، ولا وحدة بغير حب , و أقل الحب: سلامة الصدر, وأعلاه: مرتبة الإيثار, (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (الحشر:9) . والأخ الصادق يرى إخوانه أولى بنفسه من نفسه، لأنه إن لم يكن بهم، فلن يكون بغيرهم، وهم إن لم يكونوا به كانوا بغيره , (وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية) , (والمؤمن للمؤمن كالبنيان، يشد بعضه بعضاً). (وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ) (التوبة:71) , وهكذا يجب أن نكون.

الثقة: و أريد بالثقة: اطمئنان الجندي إلى القائد في كفاءته وإخلاصه اطمئنانا عميقا ينتج الحب والتقدير والاحترام والطاعة , (فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً) (النساء:65) .

والقائد جزء من الدعوة، ولا دعوة بغير قيادة، وعلى قدر الثقة المتبادلة بين القائد والجنود تكون قوة نظام الجماعة، وإحكام خططها، ونجاحها في الوصول إلى غايتها , وتغلبها على ما يعترضها من عقبات (فَأَوْلَى لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ) (محمد:20-21) .

وللقيادة في دعوة الإخوان حق الوالد بالرابطة القلبية , و الأستاذ بالإفادة العلمية , والشيخ بالتربية الروحية , والقائد بحكم السياسة العامة للدعوة , ودعوتنا تجمع هذه المعاني جميعا , والثقة بالقيادة هي كل شيء في نجاح الدعوات .

ولهذا يجب أن يسأل الأخ الصادق نفسه هذه الأسئلة ليتعرف على مدى ثقته بقيادته:

1- هل تعرف إلى قائده من قبل و درس ظروف حياته ؟
2- هل اطمأن إلى كفايته وإخلاصه ؟
3- هل هو مستعد لاعتبار الأوامر التي تصدر إليه من القيادة في غير معصية طبعا قاطعا لا مجال فيها للجدل ولا للتردد ولا للانتقاص ولا للتحوير مع إبداء النصيحة والتنبيه إلى الصواب؟
4- هل هو مستعد لأن يفترض في نفسه الخطأ وفي القيادة الصواب , إذا تعارض ما أمر به مع ما تعلم في المسائل الاجتهادية التي لم يرد فيها نص شرعي؟
5- هل هو مستعد لوضع ظروفه الحيوية تحت تصرف الدعوة ؟ وهل تملك القيادة في نظره حق الترجيح بين مصلحته الخاصة ومصلحة الدعوة العامة.

بالإجابة على هذه الأمثلة وأشباهها يستطيع الأخ الصادق أن يطمئن على مدى صلته بالقائد , وثقته به , والقلوب بيد الله يصرفها كيف يشاء (وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (لأنفال:63) .

إن القراءة المتأنية في أركان بيعة الإخوان المسلمين وشروحها التي أوضحها مؤسس هذه الجماعة في رسالته التي وجهها فقط لإتباعه و أقر أن هذه الرسالة لاتوجه إلا لمن يتبعه فقط وليست لعموم الشعب. إن القرأة المتأنية في هذه الرسالة ستقودنا إلى مضمون هذا الكتاب الذي حاولنا جاهدين أن نشرح فيه التدرج الحادث في فكر تكوين الجماعات التي إتخذت من الدين عباءة لتنفيذ مخططاتها السياسية الرامية جميعها إلى التمكين من الحكم بأي شكل وبأي ثمن وبأي تضحيات. ودعونا نقرأ سويا أركان هذه البيعة لنري مافيها من فكر السيطرة علي عقول المنضمين لهذه الجماعة مثلها في ذلك مثل كل الجماعات التي تنشأ بإسم الدين مع إختلاف الدين والعقيدة من إسلام إلى مسيحية إلى يهودية إلى بوذية إلى هندوسية إلى أي كيان عقائدي دعوي يهدف أولا وأخيرا إلى تحقيق الولاء والطاعة الكاملة للإمام الولي المرشد الأستاذ الذي به يهتدون.

لقد بدأ البنا رسالته بتوضيح ماهية هذه الرسالة عندما قال أنها ليست دروساً تحفظ، ولكنها تعليمات تنفذ ليجعل من رسالته هذه أمرا مباشرا لكل من قد دخل في هذه الجماعة وأعطي البيعة لمرشدها لإنها واجبة التنفيذ فور إعلان البيعة. وهو مايعني أن إعطاء البيعة يلغي الحق في النقاش لأمر قد صدر من مؤسس الجماعة ومرشدها الأول

لكل أتباعه. وهذا مايمكن ملاحظته عندما عرف البنا أول ركن من أركان البيعة (الفهم) حيث حدد الفهم في أن يفهم من يتبعهم الإسلام كما يفهمه مرشده.

إذا الإسلام في الجماعات محدد بما يفهمه المرشد وهذا هو بيت القصيد. فكل من ينتمي إلى أي جماعة يجب أن يتفق في الأساس علي مفهوم الدين كيفما رأه وفهمه وحدده مرشد هذه الجماعة وإلا لن تصح البيعة. والعجيب في هذا الأمر أن الدين في الأساس قائم علي الإختلاف في كل شئ، في العقيدة ودرجاتها، وفي تفسير الأحكام، وفي السند والأسانيد، بل في التفاسير وهذا هو سبب إعجاز القرآن الذي لم يفسر في عهد من أنزل عليه حتى يبقي إعجازه قائما علي مر الزمان عندما يأتي المفسرون بما يثبت قدسية هذا الكتاب كلا حسب إجتهاده وقدرته علي تحليل الآيات وإستنباط الحقائق التي تتماشي مع العصر والتوقيت الذي فيه تم التفسير.

ولكن البنا قد جعل من مفهومه للإسلام هو المرجعية الأساسية التي يمكن الإحتكام إليها وهو ماتمت البيعة وفقه وهذا هو قمة الجمود الفكري أو حسب ما أسميناه سابقا في مقدمة هذا الكتاب " عبودية اللافكر" حيث يؤمن الأتباع فقط بما يريهم أياه مرشدهم بل ويحظر عليهم مراجعة هذا الفكر الذي بايعوا عليه وعاهدوا مرشدهم أن يصبحوا جنودا من أجل نصرة هذا الفكر وهذا الفهم وهذه العقيدة.

وقبل أن يبدأ البعض في الإسترسال مدافعا، دعونا نستكمل أركان البيعة حسبما شرحها ووضحها مؤسس هذه الجماعة عندما أقر أن الفهم يكون حسب أصول الدين ولكن في النقطة الخامسة جعل من رأي الإمام ونائبه ملزما في كل ما يحتمل وجوها عدة وفي المصالح المرسلة معمول به ما لم يصطدم بقاعدة شرعية. إذا يري البنا أن تفسير الأمور الدينية أو الحياتية أو غيرها يكون حسب رأي الإمام أو نائبة ما لم يصطدم بقاعدة شرعية ولايكون لأي من الأتباع الحق في أن يقول أنه سمع أو قرأ أو علم أن الشيخ فلان قد إجتهد في أن يجيز هذا أو يعلل ذاك لإن رأي الإمام ونائبه ملزم للأتباع حيث أنهم يعلمون ما لا يعلمه أتباعهم.

وهذا هو ما تم إقراره في ركن الثقة عندما طلبوا من المقر بالبيعة أن يعلن ثقته في القائد (الإمام المرشد أو نائبه) لإنه ليس هناك دعوة بدون قيادة و أنه يجب عليه قبل أن يعطي البيعة أن يسأل نفسه سؤالا مهما للغاية:

هل هو مستعد لأن يفترض في نفسه الخطأ وفي القيادة الصواب , إذا تعارض ما أمر به مع ما تعلم في المسائل الاجتهادية التي لم يرد فيها نص شرعي ؟

هل أنت مستعد لإن تقبل مايأتيك من مرشدك كما هو حتى ولو تعارض مع علمك وقر ائاتك ومعلوماتك بل وحسك الديني؟ إن قبلت هذا وكانت إجابتك نعم فأهلا وسهلا بك في الجماعة ولتعطي البيعة علي السمع والطاعة المجردة من الفكر ومن التفكير... لإنها عبودية اللافكر التي تنشدها كل الجماعات لتكون جيش من الأتباع الذين لايرون إلا مايري إمام ومرشد وولي وأستاذ هذه الجماعة وإلا فلا بيعة ولا إنتماء ولا جماعة.

ولكن السؤال الهام في هذا المقام هو... لماذا تحتاج هذه الجماعات هذا القدر من الولاء ويطبقون مبدأ السمع والطاعة الكاملة التي لاتقبل النقاش أو المجادلة ويطلبون من أتباعهم أن يثقوا في قادتهم ومرشدهم أو نائبه بهذا الشكل الذي يثير الريبة. نحن نعلم أن مبدأ السمع والطاعة هو من أهم مبادئ الجندية حيث لايقبل أن يناقش الجندي قائده في الأوامر العسكرية التي تصدر إليه لإنه فرد في سرية من كتيبة من سلاح من مجموع القوات وهو ما يجعل الأمر الصادر لأي جندي هو مجرد جزء بسيط جدا من خطة متكاملة الأبعاد تتضمن كل القطاعات العاملة في الجيش. لهذا تحتم علي الجندي تنفيذ مايأتيه من أوامر بدون نقاش لإنه لايعلم أبعاد الخطة المتكاملة ولايجب أن يعلمها بطبيعة الحال.

فما هو وجه التشابه بين تنظيم جماعة دعوية دينية تهدف إلى إعلاء الدين وتصحيح مفاهيمه وبين تنظيم عسكري يضم جيوش من الأفراد والضباط والعتاد؟؟

عندما نقرأ تفسير البنا للإسلام في أول فقرة من رسالته نجده يعرف الإسلام علي أنه نظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعا فهو دولة ووطن أو حكومة وأمة، وهو خلق وقوة أو رحمة وعدالة، وهو ثقافة وقانون أو علم وقضاء، وهو مادة أو كسب وغنى، وهو جهاد ودعوة أو جيش وفكرة، كما هو عقيدة صادقة وعبادة صحيحة سواء بسواء

إذا فتعريف الإسلام عند البنا مبني في الأساس علي الشمولية وهو أمر جيد في العموم بطبيعة الحال لأنه يتفق مع جوهر الدين الذي يجب أن نجد أثره في كل نواحي حياتنا لإن من إتبع دينا ما وصدق فيه كان لزاما أن نجد أثار دينه علي معاملاته الحياتيه وعبادته الروحانيه وسلوكياته وأخلاقه بل ومرجعيته الفكريه. وهذا هو الهدف من الدين كما

أسلفنا لإن الدين هو المرجعية التي سيحاسبنا العزيز القدير عليها لمن أتبع ولمن لم يتبع لإن الله سبحانه وتعالى جعل من الإختلاف في الدين ودرجات الإيمان ودرجات الفهم والتعقل رحمة منه لعباده حيث جعل المحاسبة علي قدر ما أتانا من علم بل وزاد علي ذلك بأن جعل من نو ايانا هي الحكم لأفعالنا فإن أصبنا في العمل فكان لنا أجر النية الصالحة وأجر العمل الصالح وإن أخطأنا كان لنا أجر النية الصالحة حتى ولو لم نؤجر علي العمل إن نحن أخطأنا فيه.

إذا لم يكن الدين يوما ثابتا أو جامدا وإلا لم يكن هناك درجات من الأيمان والكفر، كما لم يكن هناك محل للنية في العمل أو لم يكن هناك إعتبار لم أتانا من علم فتقاس أعمالنا جميعا علي قدر ماأنزله الله تعالى من الدين بغض النظر عن ما تحقق من وصول العلم إلى أفراد الأمة . لهذا نعتقد إعتقادا يقينا أن الدين لم يكن يوما نظام حياة بل أن الدين هو مرجعية لكل أمور حياتنا وأخرتنا أيا كان النظام الذي نحيا به أو تطبقه الأمة لإن الأصل في النظام هو الثبات والدين ليس بثابت ولكنه متغير حسب درجات إيماننا به وعلي قدر ما وصلنا من علم وبحسب نو ايانا التي لايعلمها إلا الله سبحانه وتعالي.

نعم ... إن الدين لم يكن يوما نظام حياة ... الدين هو المرجعية التي يستقيم معها أي نظام تسير به الحياة.

وقد ضمن البنا في تعريفه للدين الجيش والفكرة. وهو مايلقي بظلاله علي فكرة تجييش الأتباع وراء فكرة تتبناها الجماعة وتبني عليها عقيدتها التي تصبح ملزمة لكل من يتبعها ويبايع عليها. لهذا كان الولاء لعقيدة الجماعة شرطا أساسيا لكل من يبايع المرشد وكان السمع والطاعة حجر أساس في تكوين شخصية الإخو اني الذي لايري إلا مايراه مرشده أو نائبه ويقر بتنازله عن حقه في مراجعة كل مايصل إليه من أوامر أو فتاوي من قائده لإنه قد أصبح جندي في خدمة دعوته مستعدا للتضحية بكل عزيز وغ إلى في سبيل نصرة دعوة جماعته التي جعلها البنا هي الجماعة التي تتحدث بإسم الإسلام ودونها الباطل.

هل أنت مستعد لاعتبار الأوامر التي تصدر إليك من القيادة -في غير معصية طبعا - قاطعا لا مجال فيها للجدل ولا للتردد ولا للانتقاص ولا للتحوير؟

إن قبلت التنازل عن ما منحك أياه العزيز القدير من نعمة العقل والتفكير والتدبر وأن تسير وراء قائدك الذي هو مرشدك أو نائبه كما حدد ذلك المؤسس والمرشد الأول

والأستاذ، فأهلا بك في جماعة الإخوان المسلمين. ولكن إن كنت ممن يتمسكون بكينونتهم الإنسانية التي من الله عليهم بنعمة العقل وجعل من مقدار تفكرهم في أمورهم وتدبرهم لما يجري حولهم مرجعية إيمانية تستقيم معها فطرتهم ويتأرجح وفقها ميزان أعمالهم بين ما عقلوه من علم وبين ما أنتووه من مقاصد العمل، فإنك لن يكون لك مكانا في وسط الجماعات التي أخذت العهد والبيعة من كل أتباعهم علي أن يفهموا الدين فقط كما فهمه مرشدهم ونائبه.

والسؤال الذي يجب علينا أن نتفكر فيه وأن نعطيه المساحة الكافية من الوقت قبل أن نجيب عليه هو: ما الغرض من تكوين جيش من الأتباع يدينون بالولاء والطاعة الكاملة لشخص المرشد أو نائبه؟

إن الجيوش عادة يتم تكوينها من قبل الدول للدفاع عن كياناتها وتأمين حدودها والزود عن أملاكها. وإذا ما قامت أي جماعة أو مجموعة بتكوين جيش من المقاتلين أطلق عليهم فرق المرتزقة أو المليشيات لكونهم جنودا بغيروطن يدينون بالولاء لمن يستطيع أن يسيرهم سواء بالمال أو بالفكر أو بالتبعية.

ولكن البنا قد طالب في رسالته بأن يتحول كل من يعطيه البيعة إلى جندي في صفوف جماعته مستعدا للزود عن عقيدته والتضحية في سبيلها بالنفيس والغالي. ولهذ وجدناه وهو يعظم من أهداف دعوته ليجعل جماعته (التي يراها هو ومن يتبعه) مسئولة عن إسترجاع دولة الخلافة ومطالبة بإقامة الحكم الإسلامي كما نص هو في رسالته عندما تحدث عن إرشاد المجتمع وتحرير الوطن بتخليصه من كل سلطان أجنبي – غير إسلامي – سياسي أو إقتصادي أو روحي ومن ثم إصلاح الحكومة حتى تكون إسلامية بحق، أعضاؤها مسلمين منفذة لأحكام الإسلام وتعاليمه.

لقد تحول البنا بجماعته من كونها جماعة دعوية دينية تهدف إلى نشر الإسلام و إفادة المجتمع إلى جماعة سياسية تهدف إلى إصلاح الحكومة وتحرير الوطن من كل سلطان أجنبي حتى تستطيع إقامة الحكم الإسلامي حسب ما فهمه المرشد أو نائبه كما أسلفنا. بل أنه قد ذهب إلى أبعد من ذلك حينما حدد حق الحكومة في الولاء والطاعة إن هي أدت واجبها حسب ما حدده هو من واجبات بالطبع، فإن قصرت في إتباع ماتم تحديده من واجبات، فقد حق له ولجماعته أن يخرجوا عليها ليبعدوها عن الحكم.

لقد أعطي البنا لنفسه ولجماعته حق عزل الحكومة وكأن جماعة الإخوان هي فقط الشعب . أما من لم يتبع عقيدتهم ولم يدخل في ملتهم، فلا حق لهم ولا كلمة لهم لإنهم للكفر أقرب من الأيمان.

ومن أجل ذلك طالب البنا كل أتباعه بالطاعة التي عرفها بقوله ((وأريد بالطاعة: امتثال الأمر و إنفاذه توا في العسر و اليسر و المنشط و المكره)) . عن أي طاعة كان البنا يتحدث؟ هل يتحدث عن طاعة اللة والإمتثال إلى أوامر الدين و إنفاذها بغض النظر عن قناعتنا أو عقلانية هذه الأوامر، أم أنه يتحدث عن الطاعة المجردة من الفكر لأوامر المرشد أو نائبه والإمتثال للأوامر الصادرة للإخوان من مرشدهم في التو وبدون مجادلة أو مناقشة؟

لقد عمد البنا إلى خلق دولة داخل الدولة لها ميثاقها الذي أخذت عليه العهد والبيعة من شعب هذه الدولة الذين يدينون بعقيدة الجماعة حسب ما تم بيانه من تفسيرات الدين التي أقرها المرشد ونائبه. بل أن البنا قد عمد إلى تكوين جيش من التابعين بكل ما تعنيه كلمة جيش من معاني قد ترد إلى ذهن القارئ وذلك بغرض تأسيس الجماعة وتكوينها في مراحلها المختلفة التي حددها البنا كما حدد دور أتباعه في كل مرحلة. ولنقرأ ما كتبه البنا وهو يحدد معالم جماعته ومراحل تكوينها التي حددها في ثلاث مراحل:

1 – مرحلة التعريف التي تهدف إلى نشر الفكرة العامة بين الناس.

2 – مرحلة التكوين التي تهدف إلى إستخلاص العناصر الصالحة لحمل أعباء الجهاد وضم بعضها إلى بعض.

3 – مرحلة التنفيذ التي هي مرحلة جهاد لا هوادة فيه، وعمل متواصل في سبيل الوصول إلى الغاية، وامتحان و ابتلاء لا يصبر عليهما إلا الصادقون

لقد تدرج البنا بدعوته في مراحلها الثلاث بحيث تبدأ الجماعة بالدعوة بنظام الجمعيات الإدارية التي تهتم بالعمل والخير العام مثلها في ذلك مثل كل الجمعيات الخيرية التي تنتهج الوعظ والإرشاد تارة و إقامة المنشأت النافعة تارة أخري إلى غير ذلك من الوسائل العملية التي تساعد علي تقريب فكر الجماعة بصفتها جماعة دعوية تهدف إلى العمل الخيري ومساعدة المجتمع وهو مايساعد علي تجميع أكبر عدد ممكن من الأتباع حول هذه الجماعة التي غطت نفسها برداء الجمعيات الخيرية فإقترب منها عموم الناس الذين صدقوا في سلامة نية البنا وأن هذه الجماعة ليست إلا جماعة دعوية تعمل وفق قانونها

الأساسي الذي تم شرحه في وسائل الإخوان وجرائدهم حيث كانت الدعوة تستهدف عموم الشعب. والعجيب أن البنا قد أوضح أن الطاعة ليست لازمة في هذه المرحلة التي هي مرحلة تأسيس فقط ولكن يطلب من التابعين الإلتزام فقط بالنظم والمبادئ العامة للجماعة حتى يتم غرس المبدأ رويدا... رويدا.

وبعد بناء القاعدة الشعبية لهذه الجماعة ونشر أسمها وأهدافها الأولية بين بساء الشعب، يتم الإنتقاء... !!

إن مرحلة تكوين الجماعة هي المرحلة التالية لمرحلة الدعوة لإن الجماعة يتم تكوينها من الذين سيتم إختيارهم وفق المبدأ الأساسي لفكر مؤسس الجماعة القائم علي الطاعة التامة . وهذا هو ما حدده البنا عندما جعل مرحلة التكوين هي المرحلة الثانية من عمر دعوتهم وكأنه يخبرنا أن المرحلة الأولي هي مرحلة تمهيدية وأن كل من إنضموا للجماعة في هذه المرحلة ليسوا إلا أدوات مرحلة تهدف إلى تكوين أسم الجماعة فقط . أما تكوين الجماعة فعليا قيتم بعد أن يكون هناك قاعدة بشرية أبدت الإلتزام بنظم ومبادئ الجماعة في العموم ومن ثم يستطيع المرشد أو نائبه إنتقاء العناصر الصالحة لحمل تبعات الجهاد وضم بعضها إلى بعض في تشكيلات عنقودية حيث تغير نظام الدعوة في هذه المرحلة ليكون صوفي بحت من الناحية الروحية وعسكري بحت من الناحية العملية. بل أن شعار هذه المرحلة قد بدأ هو الآخر في التغير عندما أعلن البنا أن الشعار الذي سيرفع في هذه المرحلة هو: ((أمر وطاعة من غير تردد ولا مراجعة ولا شك ولا حرج)).

وهذه المرحلة لا يمكن تنفيذها من خلال شُعَب الإخوان المنتشرة في القطر المصري والتي كانت مسئولة عن المرحلة الأولي من عمر الدعوة، ولكن وحسب وصف البنا نفسه، فإن تنفيذ هذه المرحلة يكون عن طريق كتائب الإخوان التي ستحمل عبأ هذه المرحلة من الدعوة وستكون مسئولة عن تحديد من هو علي إستعداد حقيقي لتحمل أعباء جهاد طويل المدى كثير التبعات حيث أن أول بوادر هذا الاستعداد كمال الطاعة بعكس المرحلة الأولي التي لم تكن الطاعة مطلوبة فيها.

وبعد أن يتم تكوين الجماعة وكتائبها التي تعمل وفق الطاعة الكاملة، تبدأ المرحلة الثالثة من عمر الجماعة والتي هي مرحلة تنفيذ أهداف الجماعة للوصول إلى غايتها من إقامة دولة الخلافة.

وهذه المرحلة ليست مرحلة دعوة ولا دين ولا أعمال خيرية، بل هي مرحلة جهاد لاهوادة فيه وإمتحان وبلاء لايصبر عليه إلا الصادقون الذين أبدوا وأعلنوا كمال الطاعة.

أنا لن أعلق علي هذا التشكيل والتكوين المتدرج لجماعة الإخوان المسلمين، وسأترك للقارئ المساحة المطلوبة لكي يقرأ ويفكر ويجيب عن السؤال الذي طرحته منذ قليل بعد أن وضعت أمامه فكر تكوين الجماعة ومراحلها ومتطلبات كل مرحلة والأهداف التي تنشدها ليستطيع أن يجيب بنفسه ولنفسه عن هذا السؤال:

ما الغرض من تكوين جيش من الأتباع يدينون بالولاء و السمع الطاعة الكاملة لشخص المرشد أو نائبه؟

الخاتمة

فرق...تسد

كم مرة سمعنا هذه المقولة من قبل عندما كنا ندرس تاريخ الإستعمار في البلدان العربية والإسلامية في المرحلة الإبتدائية، وقد علمونا أن هذا هو الشعار الذي يرفعه أي مستعمر إذا أراد أن يسود أمة أو بلد ما عن طريق زرع الفتنة بين أبناؤوه وتقسيمهم قبليا أو عرقيا أو طائفيا أو بأي شكل ممكن حتى يستطيع أن يسيطر علي أمة تفرقت فيما بينها وجعلت من شعبها شعوبا لكل منها عقيدة مختلفة تسعي لإثباتها وتستميت في الدفاع عنها.

فرق تسد هو هذا المصطلح السياسي العسكري الأقتصادي الذي تم أخذه من الأصل اللاتيني "divide et impera" والذي كان يعني " فرق.. تغزو" أو" فرق... تقيم إمبراطورية" وهو ماكان يعمل علي تفريق قوة الخصم الكبيرة إلى أقسام متفرقة لتصبح أقل قوة وهي غير متحدة مع بعضها البعض بما يُسهِل التعامل معها والإستيلاء علي ممتلكاتها بسهولة. كذلك يتطرق المصطلح للقوى المتفرقة التي لم يسبق أن اتحدت من قبل والتي يراد منعها من الاتحاد وتشكيل قوة كبيرة يصعب التعامل معها.

وسياسة فرق تسد ليست بسياسة جديدة بل هي قديمة قدم السياسة نفسها حيث طبقها السومريون والمصريون واليونانيون القدماء لتفكيك قوى أعدائهم وتحييد هذه القوى من خلال توجيهها داخليا واحدة ضد الأخرى. ولكن المؤكد أن بداية خروج فكرة "فرق تسد" كإتجاه سياسي كان علي يد الفيلسوف أرسطو عندما إنتصر الإسكندر الإسكندر الأكبر في حربه مع الفرس علي داري الأكبر، حيث كان يفكر في قتل أمراء الفرس حتى يزرع الهيبة في قلوب الرعية ويقضي علي الطبقة الحاكمة التي تستطيع تجميع الشعب من حولها وإعادة محاربته لإستعادة إمبراطوريتهم . ولكن أرسطو كان له رأيا مخالفا تماما إذ أشار عليه بهذه المقولة التي أصبحت أيقونة الفكر الإستعماري علي مر العصور ((فرق... تسد)) . وقد أوضح أرسطو مقصده من مقولته عندما أشار علي الإسكندر الأكبر بأن يقسم الإمبراطورية الفارسية إلى دويلات وإمارات صغيرة ويجعل علي كل دويلة ملكا من أمراء الفرس يعمل في بلاط حكمه ويدين بالولاء لمن منحه فرصة الحكم علي أن يتم زرع الفتنة والبغضاء بينهم حتى لا يفكروا في الإتحاد وإستعادة

إمبراطورياتهم التي أستولي عليها الإسكندر بالقتال و لكنه حكمها وياللعجب بفكرة فلسفية. وقد طبق الإسكندر هذه الفكرة كما أخبره أستاذه وفيلسوفه أرسطو فدانت له بلاد الفرس فترة ليست بقصيرة حتى جاء كسري أنوشروان وجمع من حوله الشعب و أعد الجيوش فأستعاد حكم أجداده.

ولكن لإن الفكرة لاتموت أبدا، فقد طبق الاستعمار في شكله الحالى ومنذ نشأته في بداية سبعينيات القرن التاسع عشر هذا الأسلوب القديم "فرق... تغزو" في السياسة لنفس الأغراض والأهداف حيث تتبع الاستعمار هذه السياسة من أجل إضفاء الشرعية على احتلاله لبلد ما من خلال الظهور بمظهر الحكم المستقل الذي يفصل بين الأطراف المتنازعة في هذا البلد ويحافظ على الأمن والسلام. وهو ما أتبعه الإنجليز عند إحتلالهم للهند عندما إستطاع البعض القليل من القوات البريطانية الهيمنة على 300 مليون هندي لمدة أكثر من قرن من الزمن وذلك عندما نجح البريطانيون حينها في إقناع الهنود بأن وجودهم في هذا البلد هو ضرورة أمنية لمنع الحرب الأهلية بين المسلمين والهندوس وبهذا نجحوا في إضفاء نوع من الشرعية على وجودهم في الهند خلال مدة إستعمارهم التي إمتدت لقرن من الزمان لهذه البلاد المترامية الأطراف.

ولكن يجدر الإشارة إلى أن الإنجليز كان لهم تجربة طويلة سابقة مع هذه السياسة قبل تنفيذها في الهند وذلك عندما بدأوا بتطبيقها في آيرلندا منذ عام 1692 حينما أصدروا قو انين منحوا بموجبها إمتيازات للطائفة البروتستانتية على حساب الطائفة الكاثوليكية ثم إستفادو من الدروس المستخلصة من هذه التجارب خلال حقبتهم الاستعمارية في أفريقيا وآسيا والشرق الأوسط من خلال إثارتهم للخلافات الدينية والعرقية والمذهبية والقبلية في المناطق المحتلة بحيث لم يكونوا بحاجة إلى بنادق للهيمنة على هذه الشعوب إلا نادرا لأنهم كانوا يبرعون في إستخدام الشعوب نفسها كسلاح يتم تحريكه وفق مخططاتهم بعد تفريقهم طائفيا وسياسيا وقبليا لتقوم كل طائفة بدورها في تهميش الطائفة الأخري بل ومحاربتها إن إستلزم الأمر ذلك . ولاتزال كل هذه الدول التي قبعت تحت فترات الإستعمار في هذه الأزمنة وهي تعاني من أثار سياسة فرق تسد إلى يومنا هذا.

ولإن التطور هو سنة الخلق حتى في الأفكار، فقد تولدت سياسة فرق تسد علي سبيل التطور الطبيعي لمرحلة فرق تغزو، لأن الإستعمار في شكله القديم " فرق.. تغزو" كان يتطلب التدخل العسكري وإرسال القوات والبعثات والسلطات الحاكمة وهو ما كان

ينهك القوي العسكرية ويلقي بتبعاته بطبيعة الحال علي الجدوي الإقتصادية. أما الفكر الجديد " فرق... تسد" فقد ضمن لأي قوة مستعمرة أن تتمكن من السيطرة علي مقدرات الشعب ثقافيا و إقتصاديا ومجتمعيا وذلك عن طريق العمل علي تكسير المجتمع إلى طو ائف وفرق وأحزاب لكل منها هوية مختلفة وتوجهات مختلفة ومخططات مختلفة. وعندما ينقسم المجتمع علي نفسه يصبح مهيئا إلى أن يتم السيطرة عليه بأقل المجهود من خلال زرع الفتن بين الطو ائف المختلفة وتأجيج مشاعر الإستحقاق عند كل طائفة علي حساب الطو ائف الأخري، لتكون حربا بين الجميع تنهك قوي المجتمع وتجعل منه مرتعا للقوي الأجنبية.

ولكن المشكلة الحقيقية لم تكن في هذه السياسة بقدرما كانت في إستسلام الشعوب لها وإستحسان الفكرة التي أعطت لكل طائفة الحق في التعبيرعن نفسها والمطالبة بحقوقها بل وإعطاء الأفضلية لفكرها وعقيدتها حتى أصبحت كل طائفة أوحزب أو جماعة تعمل ككيان مستقل بنظام إداري وتنسيقي منفصل عن نظم الدولة وهي لا تشعر أنها بذلك تهدم كيان الدولة إذا ما أصبحت دويلة داخل الدولة تماما كما تعمل الخلايا لسرطانية التي لاتظهرفي التحاليل والإختبارات المعملية إلا بعد أن تتكاثرويصل أعدادها في الجسم إلى بضعة بلايين؟

إن من عظيم خلق الله أن جعل أساس الخلق واحدا لجميع الكائنات التي تتكون جميعها من مجموعات من الخلايا تختلف فى تركيبها ووظيفتها ولكنها تتفق فى انها تنقسم بطريقة واحدة ومنظمة لكى ينمو الكائن بشكل طبيعي متدرج في النمو يستطيع به أن يعوض أو يستبدل اى خلايا تموت أثناء مراحل نموه وتطوره. كل الكائنات خلقت من مجموعة من الخلايا تختلف في تكوينها ولكنها تتحد جميعا في طريقة تفاعلها مع بعضها البعض وطريقة إنقسامها حتى يستطيع الكائن أن ينمو بطريقة طبيعية حتى في ظل إختلاف خلاياه وطريقة تكوينها.

ولكن عندما تشذ بعض الخلايا في طريقة إنقسامها بحيث تخرج عن النظام العام الذي يسيرعليه برنامج النمو لهذا الكائن وتبدأ في الإنقسام عشو ائيا بل وفي مهاجمة الخلايا الأخري بشكل عدائي، فإن هذا هو ما يولد الخلايا السرطانية التي قد تتسبب في موت الكائن الأصلي بما تولد فيه من خلايا سرطانية.

والمجتمع لايختلف في تكوينه وطريقة نموه عن الكائنات التي تعيش داخله، حيث يتكون أي مجتمع من مجموعات من الخلايا التي تختلف جميعا في عقائدها و أيدولوجيتها وتوجهاتها السياسية والثقافية والإجتماعية والإقتصادية وهو مايعطي لأي مجتمع طابع الثراء الفكري والثقافي إن هو إستطاع أن يجمع كل هذه الإختلافات في بناء مجتمعي متكامل وإن عملت كل خلية مجتمعية علي الإلتزام بالنظام المجتمعي الأساسي الذي تعمل وفقه كل الخلايا الآخري دون أن تجور أي فئة علي الأخري.

في الإنسان، تحدث الكارثة السرطانية عادة نتيجة لوجود أوجه نقص متعددة بسبب عوامل جينية أو بيئية أو غذائية أو حدوث تغييرات في نمط العيش بما ينتج نوعا من عدم الإتزان في أداء خلايا الجسم بما قد يؤدي إلى إنقسام الخلايا بطريقة عشوائية وخارجة عن سيطرة الجسم لينتج عن ذلك نسيج شاذ غير منتظم يسمي في عالم الطب "ورما".

والورم هو عبارة عن تجمع لبعض الخلايا بشكل مكثف في منطقة محدودة وهو ما يخبر بوجود خلل ما في وظائف الجسم. ولكن ليس كل ورم هو ورم سرطاني لإن هناك مايسمي بالورم الحميد الذي ينبئ عن وجود تجمع للخلايا في مكان ما ولكنها لازالت تنقسم حسب منظومة الجسم الأصلي بما يجعلها لاتهاجم الخلايا الأخري أو الأعضاء البعيدة عن نطاق تجمعها أو تقوم بغزو الأنسجة المجاورة لها لإن الخلايا السرطانية لديها القدرة التدميرية علي الإنفصال عن الورم الأصلي والسير مع تيار الدم أو اللمف لتغزو أعضاء أو أنسجة أخري بعيدة. لهذا يسمي الورم السرطاني بأنه ورم خبيث لكونه لايعمل وفق منظومة الجسم كما هو الحال مع الورم الحميد ولكونه يولد خلايا ذات طابع عدائي تبدأ في مهاجمة الأعضاء البعيدة عن أماكن تجمعها.

هذا في الإنسان وحسب ما يبينه علم الطب، ولكن في المجتمعات الأمر لايختلف كثيرا تقنيا وإن كان يختلف في التطبيق. في المجتمعات تحدث الكارثة السرطانية عند وجود توجهات مختلفة لكل خلية من خلايا المجتمع بسبب عوامل إقتصادية أو سياسية أو عقائدية أو طائفية أو مذهبية أو قبلية.

في المجتمعات تحدث الكارثة السرطانية عندما يحدث الإنقسام وتجد الفرقة طريقها بين عناصر المجتمع لتشعر كل جماعة بأنها علي الحق ودونها الباطل وليبدأ الإحساس بالإضطهاد في النمو فيبدأ الإنشقاق بشكل سرطاني عندما تبدأ كل جماعة أو فرقة أو طائفة أو حزب في محاولة غزو أو تدمير أنسجة المجتمع الأخري لتتحول هذه الخلايا إلى

خلايا سرطانية تهدد أمن المجتمع وسلامته وقد تصل في النهاية إلى طريق مسدود من حتمية بتر العضو الفاسد للحفاظ علي سلامة المجتمع ككل.

وأعداء أي مجتمع يعلمون تماما أن سلامة المجتمع تكمن دائما في قدرته علي توحيد صفوف أبناؤوه مهما كان إختلافاتهم الفكرية أو العقائدية أو المذهبية أو القبلية وأن أسهل طريقة لغزو هذا المجتمع هو عن طريق إنماء فكر الأقليات بين عناصر المجتمع بحيث تبدأ كل طائفة أو جماعة في البحث عن حقوقها المجتمعية بصفتها أقلية يجب أن يضمن لها المجتمع حقوقها أمام الأغلبية الحاكمة.

وحين نجد المجتمع الواحد وقد إنقسم إلى أقليات دينية و أقليات مذهبية و أقليات سياسية حزبية و أقليات عرقية، فإن ذلك ينبئ عن تولد ورم خبيث مستعد لأن يطلق خلاياه السرطانية لتصيب أي جزء من المجتمع لإن هذه الخلايا لاتفرق بين مايفيد وما يضر المجتمع لإنها تعمل وفق نظامها وليس وفق نظام المجتمع ككل.

وعلي مر الزمان، لم يكن هناك جو مهيئ لإنطلاق هذه الخلايا السرطانية أفضل من الجماعات الدينية السياسية التي تستهدف الحكم بأي شكل وبأي ثمن وتعمد لإن تغطي نفسها برداء الدين حتى تتمكن من جمع الأتباع من عامة الشعب ومن البسطاء الذين يأملون فقط في تغطية متطلباتهم البسيطة مع حلمهم بدخول الجنة . وهو المفتاح الذي يلعب به كل الجماعات الدينية... مفتاح دخول الجنة أو ما كان يسمي في الزمن القديم... صكوك الغفران التي أقامت ثورة تولد عنها حضارة تعيش حتى يومنا هذا.

لقد سيطر فكر صكوك الغفران علي أوروبا في عصور الظلام وقت كانت الكنيسة هي المخولة بالحكم وكان الحكام لايستطيعون الوصول إلى الحكم إلا بعد أن يتم تعميدهم من قبل الكنيسة التي كانت تمتلك صكوك الغفران تعطيها لمن يثبت ولاؤوه للكنيسة ممن يدينون بدينها وفي المقابل تصب اللعنات علي كل من يخالفهم ويتوعدونهم بالجحيم في الآخرة وبالعذاب في الدنيا إن هم إستمروا علي غيهم. نفس الفكر ونفس الأسلوب ونفس الطريقة وكأن البشر يصرون علي ألايتعلموا من دروس الماضي أبدا.

إنهم جميعا يتشابهون في الطريقة مهما إختلفت وجوههم أو مهما إرتدوا من أقنعة ليتواروا خلفها. كل من يريد الحكم يلبس قناع الدين - أي دين - ويجعلون من الدين مدخلا ليسيطروا به علي عقول البسطاء الذين يخافون من مصير الدار الآخرة المجهول

الذي سمعوا عنه في كتابهم المقدس وهم يوعدونهم بجنات لايدخلها إلا المؤمنين من أتباع جماعتهم، كما ويحذرونهم من نار جهنم التي تلقف كل من إنحرف عن طريق الإيمان الذي تم تحديده وفق عقيدة الجماعة وفكر مؤسسها.

إنهم جميعا يبدأون من نفس النقطة مهما إختلفت أديانهم أو عقائدهم...!!

كل الجماعات تهدف في الأساس إلى خلق كيان ينتمي إلى فكر أوحد أعور مستقل عن الدولة والوطن والدين، كل الجماعات لا تهدف أبدا إلى توحيد الأمة بقدر ماتهدف إلى تقسيم الأمة إلى أتباع الجماعة ومادونهم. كل الجماعات تعمل ضد ناموس البشرية القائم علي عقيدة قبول الآخر و الذي يعمل علي خلق مجتمع يضم بين طياته كل الإختلافات ويضع النظم والقوانين التي تهدف في الأساس إلى التوافق بين كل الطوائف حتى يمكن أن يتعايشوا جميعا في مجتمع واحد بغض النظر عن إنتمائاتهم وعن عقائدهم.

المجتمعات الغربية لم تستطيع أن تصل إلى ما هي فيه من تطور وتحضر إلا يوم قررت أن الدولة تسمو فوق أي خلافات عقائدية وأن حق الإنسان في الحياة الكريمة تضمنه له الدولة مهما كانت عقيدته أو أيدولوجيته أو إنتماؤوه السياسي لإنه يتمتع بحق المواطنه الذي يكفل له أن يعيش في بلده أمنا مطمئنا شرط أن لا يعكر سلم الوطن وأمنه وأن لايجعل من عقيدته سلاحا يرفعه في وجه وطنه.

بل أن دولة الخلافة التي ينادي بها كل جماعات الإسلام السياسي قامت في الأساس بناء علي حق الجميع في العيش بسلام، المسلم بجوار المسيحي بجوار اليهودي بجوار اللاديني طالما إلتزم الجميع بنظام الدولة وقبلوا أن يتعايشوا وفقه.

هكذا أمن رسول الله صلي الله عليه وسلم اليهود يوم عاشوا في جواره بالمدينة حتى إنقلبوا علي عهدهم فطردهم الرسول الكريم لخيانتهم العهد. وهكذا أمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه المسيحين في بيت المقدس يوم دخلها وأعطاهم العهد علي ذلك فيما يعرف بالعهد العمري:

هذا ما أعطى عبد الله، عمر، أمير المؤمنين، أهل إيلياء من الأمان.. أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقمها وبريئها وسائر ملتها ... أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينقص منها ولا من حيِّزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون

على دينهم، ولا يضارّ أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود. وعلى أهل إيلياء أن يُعطوا الجزية كما يُعطي أهل المدائن. وعليهم أن يُخرِجوا منها الروم واللصوص. فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا أمنهم. ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية. ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بِيَعهم وصلبهم، فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بِيَعهم وصلبهم حتى يبلغوا أمنهم. فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية. ومن شاء سار مع الروم. ومن شاء رجع إلى أهله، فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم. وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين، إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية.

كتب وحضر سنة خمس عشرة هجرية. وشهد على ذلك: خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف وعمرو بن العاص ومعاوية بن أبي سفيان."

هكذا بدأ الإسلام علي يد مؤسسه وخلفاؤه الذين فهموا الدين حق الفهم، فعدلوا بين المسلمين وغيرهم من غير المسلمين ولم ينتقص من عهدهم أنه كان لغير المسلمين لإنهم أرادوا بناء مجتمع سليم قوي الأركان وهو المجتمع الذي لا يفرق بين أبناؤوه مهما أختلفت دياناتهم وعقائدهم.

أما الجماعات التي تسترت بأسم الدين فقد قامت فكرتها في الأساس علي إستقطاب الناس نحو عقيدتهم ليصبحوا هم المؤمنين ومن دونهم أقرب إلى الكفر من الأيمان. لهذا وجدنا من هذه الجماعات من يدّعون بتكفير المجتمع إن هو خرج عن جماعتهم ولم يعتقد فيما يعتقدون، وجدنا هذه الجماعات وهي تقوم بغسل أدمغة تابعيها لتقنعهم أنهم ليس بينهم وبين الجنة إلا أن يحترقوا في سفك الدم وزهق الأرواح التي حرم الله إلا بالحق. رأينا هذه الجماعات وهي تقنع تابعيها من الشباب الذي تم تغييب عقولهم ليقتنعوا أنه ليس بينهم وبين المغفرة عن ما أقترفوه من أثام إلا أن يفجع الأطفال باليتم والنساء بالترمل والأمهات بالثكل فيتحول الشاب بعد أن تم غسل عقله وتغييبه عن و اقع دينه وحقيقته إلى عقل مفخخ متوهما أن نصر الإسلام لايكون إلا من خلال إحدي الكبائر المتمثلة في قتل النفس وأن نصرة جماعة المسلمين لايكون إلا بترويع الأمنين وقتل المستأمنين، وأنهم لن يتمكنوا من طرد المستعمرين وقتل أعداء الإسلام إلا عن طريق التفجير والتدمير

والتخريب لأوطانهم حتى يستطيعوا أن يقيموا دولة الخلافة المستهدفة علي أنقاض دولة الإسلام القائمة.

لقد عمدت كل الجماعات منذ بداياتها إلى العمل بقوة علي تغييب عقول تابعيها حتى لايسألوا أنفسهم يوما: هل كل العلماء جهلة، وهم وحدهم العالمون؟ هل كل القضاة خونة، وهم وحدهم العادلون ؟ هل كل الناس تخطئ، وهم وحدهم من يصيبون ؟ فإن كان ذلك هو ما يعتقدون، فماذا بقي إذا للعصمة، بل ماذا بقي إذا للمعصوميين من الأنبياء والمرسلين ؟

إن القارئ في تاريخ الجماعات سيكتشف بوضوح كيف تحولت هذه الجماعات إلى خلايا سرطانية تعيش وسط مجتماعاتنا وهي تتغذي من أقواتنا وتستهدف شبابنا حتى تستطيع أن تتجمع في شكل ورم خبيث يبدأ في إطلاق سمومه السرطانية لتصيب نسيج هذه المجتمعات في قيمها وعاداتها وتقاليدها بإسم الدين وياليته كان عموم الدين ولكنه وللأسف كان مجرد جزء من الدين تم إختياره بعناية وفق عقيدة كل جماعة عملوا علي التركيزعليه ليجعلوه مع الوقت هو لب العقيدة التي لاتصح بدونه وكأن العزيزالقديرقد إختصهم وحدهم بنعمة الإبصاروأعطاهم حق الولاية علي الدين ليخبروا الأمة بما يصح لها وما لايصح وفق معتقداتهم ومخططاتهم بالتبعية.

لقد عمدت هذه الجماعات إلى إنتهاج فكرالإختزال عندما إختزلت عموم الدين في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكرلكي يعطوا أنفسهم وتابعيهم حق الوصاية علي الدين بما يسمح لهم في مراجعة الأمة في عباداتها وتصرفاتها بل و أفكارها فيقرون ما يقرونه ويرفضون مايرفضونه من ثم يبدأوا في مواجهة المجتمع بنو اقصه التي أقرها علمائهم فتصبح دعوتهم هي الدعوة التي تنصر الدين إلى أن تصبح مع تزايد الأتباع هي الدين نفسه الذي لايقبل غيره وليكون من يرفض دعوتهم عدواً للدين يستحق جزاء الخارجين عليه.

وعندما تتعدد هذه الجماعات مع إختلاف الأديان والمذاهب والطوائف في المجتمع الواحد، تتعدد الأورام السرطانية في الجسم الواحد لتبدأ كل جماعة في إطلاق خلاياها لتصيب بعض من أعضاء و أنسجة هذا المجتمع بما يعطل من قدرته علي النمو الصحيح ولايبقي أمامه إلا خيارين لا ثالث لهما:

إما أن يبقي مجتمعاً جامداً لايستطيع أن يري أو يواكب ما يدور حوله من تطور ليتخلف عن ركب الحضارة وهو لايري من شبكة الإنترنت إلا المو اقع الإباحية فيقوم بمنع وجودها وتشغيلها علي أرضه . أو عندما لا يري هذا المجتمع الجامد من المرأة إلا أنها مكمن الفتنة فيكون القرار بمنعها من التعلم والعمل وإلزامها في بيتها كما حدث في أفغانستان مثلا وقت سيطرة حكم طالبان علي مقدرات هذه البلاد

وأما الخيار الثاني فيتثمل في أن يبقي مجتمعا مشتتا متهالكا مهترءاً، مجتمعا قد فقد الأمان فأصبح كل فرد فيه يعمل لنفسه فقط لإنه لايأمن تقلبات مجتمعه الذي أصبح يفتقد إلى أساسيات البناء المجتمعي بعد أن إنقسم علي نفسه وأصبح كل فصيل يُخَوِن الأخر ويتصيد له الأخطاء. إن مثل هذا المجتمع المهترئ يعيش وفق نظرية تضخيم الأخطاء وتحميلها للآخر وهذا هو قمة الجهالة الفكرية لإن المشاكل المجتمعية تحدث بمشاركة جميع الأطراف ولايمكن حلها بقيام كل طرف بتبرئة نفسه . إن مثل هذه المجتمعات القائمة علي التفرقة تفتقد إلى الرؤية الصحيحة لمقدرات أمورها ونجدها جميعا تلهث وراء الحلول الوقتية لمشكلاتها حتى تستطيع أن تمتص غضب الشارع وتنسي أن تطور المجتمع يكون وفق منظومة متكاملة تشارك فيها كل عناصر المجتمع.

ولكن في ظل وجود هذه الخلايا السرطانية من الجماعات الهادفة للوصول إلى الحكم بأي شكل وبأي ثمن، يبقي المجتمع غارقا في بحور الفرقه وهو يجاهد بشق الأنفس لكي يحافظ علي وجوده قبل وحدته و عندها لايكون هناك وقت للبحث والتطوير والنمو. والعجيب في هذا الأمر أن الطبقة الحاكمة لهذه المجتمعات تستفاد كثيرا من هذا المناخ الذي ولدته هذه الجماعات لإن هذا المناخ يعطيها الأحقيه في إحكام قبضتها علي المجتمع ومقدراته حتى تستطيع أن تسيطر علي مكامن الخطورة التي يواجهها المجتمع.

ولهذا نجد أن وجود مثل هذه الجماعات غالبا مايعطي للطبقة الحاكمة الفرصة للإستئثار بالحكم وهو ما قد يولد نظام حكم ديكتاتوري متسلط تم صبغه بألوان الدفاع عن حرية المجتمع وتطهيره من هذه البؤر السرطانية التي تهدد أمن المجتمع وسلامته.

لذا كانت هذه الجماعات تمثل خطرا داهما ليس فقط علي عقول الشباب الذين تم تغيبهم ليتم إستخدامهم كقنابل موقوته تستهدف كل ما يتعارض مع فكر الجماعة، وليس فقط علي ثروات الأمة التي تهدر في سبيل مقاومة أثار هذه الجماعات الهدامة علي المجتمع، ولكن لإن وجود مثل هذه الجماعات يعطي الشرعية السلطوية لديكتاتورية

الحكم التي تصبح مع الوقت لازمة في ظل إنتشار هذه الخلايا السرطانية في أوصال المجتمع تماما كما يحدث عندما يتمكن السرطان من جسم الأنسان، بما يعطي الطبيب منفردا الحق في إتخاذ قرار البتر للعضو المصاب، فلا يجد الإنسان حلا أمامه إلا أن يستسلم للطبيب وهو يبتر عضو من أعضاؤوه لكي يطهره من الورم الذي يعيش داخله ويهدد الجسم كله أو أن يرفض قرار الطبيب فيحيا بألامه في إنتظار الموت.

لقد إستطاعت هذه الجماعات أن تطبق سياسة "فرق... تسد" بطريقة مثلي لاتقارن بما حاول الإستعمار تطبيقه في الأزمنة السابقة ولكنها أدت إلى نفس النتائج بل وزادت عليها سوءا ووبالا علي الأمة عندما إقتنعت كل جماعة بأنها هي وحدها علي صحيح الأيمان والمعرفة وأن مرشدها أو إمامها أووليها هو من أوتي العلم والبصيرة وأن عقيدتهم هي فقط صحيح الدين وكل من دونهم علي باطل، لتنفصل كل جماعة عن كيان الوطن وتسعى إلى إثبات وجودها بكل الطرق حتى ولو كانت هذه الطرق عن طريق الإستعانة بالقوي الأجنبية من أعداء الأمة ليصبح تدخل هذه القوي هو مطلبا شعبيا لينقذهم من براثن الفتنة والإنشقاق.

هكذا فعلها حسن الصباح في قديم الزمان عندما أرادت جماعته التحالف مع المغول لتحافظ علي بقائها وإن زالت الأمة جميعها. وهكذا تفعلها اليوم باقي الجماعات التي لاتري إلا جماعتها فقط ولاتستطيع أن تري أي مصلحة إلا فيما يصب في صالح بقائها وتمكينها من الحكم لإنهم قد قنعوا أنفسهم أن المجتمع بأكمله علي الضلال ويسير إلى حافة الهاوية إن هو لم يتبعهم . ومن منطلق هذا الفكر بدأوا في فرض الجهاد علي أتباعهم ضد المجتمع الضال وذلك حتى يستطيعوا أن يعدوا العدة لجهاد أعداء الأمة بعد أن يتمكنوا أولا من الحكم وليكون خراب وتدمير مجتمعهم وأمتهم هي سبيلهم لإقامة دولة الخلافة وهم لايدركون أن أي مستعمر يريد إحتلال هذه الأمة والسيطرة علي مقدراتها لن يجد أفضل من هذا الفكر الذي تتبناه هذه الجماعات من تقسيم هذه الأمة إلى فرق وطوائف ودويلات صغيرة داخل كل دولة حتى لاتقوم لهذه الأمة قائمة ولتبقي دوما أمة متناحرة متصارعة لاتكاد تفيق حتى يخرج عليها أبنائها شيعاً وطوائف وفرقاً ومذاهب لتفرق أمه جمعها الإسلام.

الإسلام يحارب في وطنه...!!

لقد أصبحت هذه العبارة هي كلمة السروراء نشر عقيدة أي جماعة، أصبحت هي المفتاح الذي يفتح عقول وقلوب البسطاء من عامة الشعب الذين لايعلمون من أمر دينهم إلا السماحة والبساطة واليسر في المعاملات ولكنهم لايزالون يعلقون الأمال علي بساطة إيمانهم في أن يفوزوا بالجنة إن هم نصروا دينهم.

كل الجماعات تتخذ من هذا الشعار ذريعة لكي تفرض الجهاد علي أتباعها نُصَرةً للإسلام وإنتصاراً للعقيدة ونصراً لله ورسوله وكأننا قد عدنا بالذاكرة ألف وأربعمائة سنة لنشاهد نفس قصة بدايات الإسلام عندما كان يحارب في بلد المنشأ "مكة" من قِبَل أعداء الإسلام من كفار قريش ولكن مع الفارق أن كفار قريش لم يصبحوا علي شاكلة أبو جهل و أبو لهب والوليد بن عتبه ولكنهم للأسف محمد وأحمد ومحمود.

لقد عمدت هذه الجماعات في عصرنا الحديث إلى خلق عدو من داخل المجتمع يهدد فكرة قيام الخلافة الإسلامية حسب منظورها عندما إقتنعت و أقنعت أتباعها أن العدو الخارجي يمكن التخلص منه بمحاربته والإنتصار عليه في حرب عسكرية أو بمقاطعة ثقافية أوتجارية بل وعلمية أيضا. ولكن هذا العدو الداخلي الذي يعيش علي أرض نفس الوطن ويدعي أنه يعتنق نفس الديانة بينما لايزال يرفض أن تكون الولاية لسدنة الدين وشيوخه، فهذا هو العدو الذي يجب علي المؤمنين من أبناء عقيدة هذه الجماعات قتالهم وتخليص المجتمع من شرورهم لإنهم يرونهم للكفر أقرب من الأيمان.

إن العدو الحقيقي الذي إعتبرته كل الجماعات هو العدو الأول، كان العلمانيين ممن قبلوا فكرة فصل الدين عن السياسة وروجوا لفكرة أن الدولة تقوم علي فكرة عدم إخضاع القرارات البشرية وخاصة السياسية لتأثير المؤسسات الدينية لإن الدولة في مجموعها هي جزء من المجتمع الدولي الذي يضم كافة الديانات والأجناس والثقافات وهو مايضمن لكافة البشر حرية العقيدة وحرية التمتع بمعتقداتهم داخل أوطانهم التي تضمن للجميع حقوقا متساوية بغض النظر عن إنتمائاتهم العقائدية.

إن المنظور الديني للجماعات الدينية علي مختلف عقائدها ينبع في مجموعه من منطلق أن "الله هو صاحب السلطة"، وهو صاحب الحق في التشريع وهو مايستلزم وجود هيئة تمثله وتعمل على الحفاظ على هذا الحق الإلهي في التشريع وفي تطبيق الشرع بالتبعية. وبطبيعة الحال فإن هذه الهيئة لابد أن تكون من الداعيين إلى الدين المحافظين علي أركانه المعتقدين في وجوب الحكم بما أنزل الله.

إنهم أحفاد الخوارج الذين ناهضوا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في أمر التحكيم عندما بدأوا دعوتهم بقولهم ((إن الحكم إلا لله))؛ هذه الفكرة التي أصبحت هي التأصيل لفكرة الحكم الثيوقراطي في العصور الحديثة.

وفي المقابل كان هناك من تم تسميتهم بالعلمانيين من الأوساط المجتمعية الأخرى من الفلاسفة والمفكرين الذين أيقنوا بأن الله قد أوكل إلى الإنسان الأرض وما عليها من مخلوقات ليسوسها ويتسلط عليها بما منحه له من نعمة العقل وأمانة التكليف التي لم تصح إلا لبني أدم وحدهم دون باقي المخلوقات، لتكون هذه الوكالة هي الرخصة التي منحها الله لبني أدم لكي يمارسوا سلطتهم السياسية علي الأرض بما تضمنته من تنظيمات وقوانين وإجراءات إداريه ومعاملات مدنية لا تفرق في مضمونها بين إنسان و إنسان إلا بقدر ما كفله له القانون من حريات وحقوق وفرضه عليه من واجبات مهما كان دينه أو عقيدته.

ومن منطلق هذه السلطة التي منحها الله لبني أدم بموجب توكيله له بإعمار الأرض وما يتطلبه هذا الإعمار من تنظيم العلاقات بين جميع البشر المؤمن منهم والكافر والجاهل منهم والمثقف، فقد قنع هؤلاء أن هذه السلطة تتضمن أيضا حق التشريع الذي يتوافق مع عناصر المجتمع علي إختلافها والذي يجب أن لا يعلي فئة علي فئة مهما تحصلت علي أغلبية العدد كما يجب أن لايفرق بين أبناء الوطن بحجة الدين أو العرق أو اللون أو الإنتماء.

وبالرغم من أن العلمانية ليست إتجاها دينيا أو بالإحري لاديني لإنها في الأساس فكرة فلسفية خرجت إلى النور علي يد الفلاسفة توماس جيفرسون وفولتير خلال عصر التنوير الأوروبي لتقف علي الحياد من الدين وتدعو إلى تحرير مؤسسات الدولة من إحكام قبضة السلطة الدينية عليها حتى تعطيها السماحية المطلوبة لتطويرها بما يتماشي مع كيان وتطلعات الدولة وبما يحقق المساواة بين كل أبناء الوطن الواحد بغض النظر عن إنتمائاتهم العقائدية أو أصولهم القبلية.

وبالرغم من أن قناعة هؤلاء العلمانيين تتفق في روحها مع مفاهيم كل الأديان والعقائد السماوية والبشرية التي تقر جميعها بالمساواة بين البشر وبحقوق كافة البشر في أن يحيوا حياة كريمة يضمنها لهم مبدأ إحترام أدمية الأنسان وتَقَبُل الآخر علي علته وإختلافه، إلا أن أرباب الجماعات الدينية قد رفضوا مبادئ العلمانية لإنها لم تقر لهم بالسيادة

المجتمعية التي تصل بهم إلى سدة الحكم أو علي أقل تقدير تضعهم في دائرة القرار إذا ماتحولوا بالبلاد إلى الحكم الثيوقراطي الذي يجعل من السيادة الدينية أساسا للحكم ويجعل من سدنة الدين هم المرجعية في كافة شئون الحكم والتقنين والتشريع بما يرونه متو افقا في الأساس مع الشريعة التي لن يعلمها إلا هم بطبيعة الحال كما أنه لن يقدر علي تفسيرها و إقرارها... إلا هم فقط.

ولكن العجب العجاب كان في تحول كل الجماعات الدينية في العصر الحديث إلى المناداة بتطبيق الديموقراطية. الجماعات التي ظلت تجاهد وتناهض وتدفع بشبابها دفاعا عن إقامة نظام الحكم الإسلامي، لم تجد حرجا من الإحتكام إلى نظام الحكم الغربي اللاتيني الأصل لإنها وجدت في هذا النظام سبيلا للوصول إلى الحكم بأي شكل وبأي ثمن حتى بالمقايضة علي أفكارها وعقائدها.

لقد إختلفت كل الجماعات الثيوقراطية مع العلمانيين وجعلت منهم الكفار الذين لايؤمنون بالدين لإنهم ينادون بإستقلالية الحكم السياسي عن سيطرة أرباب الدين . ولكن هذه الجماعات قد وجدت ضالتها في الوصول إلى الحكم أو الدخول إلى دائرة الحكم من خلال مايسمي بالنظام الديموقراطي الذي يقوم علي فكرة تحكيم الأغلبية والإحتكام إلى صندوق الإقتراع لإختيار ممثلي الشعب علي مستوي المحليات والنقابات والهيئات والمجالس النيابية وصولا إلى رئاسة الدولة، وهو مايخدم أهداف هذه الجماعات التي لم تكن تسعي يوما إلا للوصول إلى الحكم لإن كلا منهم قد قنع أن الدين لن يقوم إلا عن طريقه وبيد أتباعه ووفق عقيدته.

فإن كان السبيل لذلك يستدعي بعض المرونة من قبول الأفكار الغربية فليكن إذا قبول الديموقراطية هو الحل لتمرير الجماعة إلى السلطة بالطريقة التي يرتضيها المجتمع ولكن وفق عقيدتها التي تهدف إلى الوصول إلى الحكم ومن ثم التمكين من أوصال الدولة حتى تدين الدولة كلها بعقيدتهم وإلا فالويل والثبور لكل من وقف في طريق أهداف ومخططات الجماعة.

هل كانت الديمقراطية التي تدعو إليها هذه الجماعات وتتشدق بها وتجعلها سبيلها لكي يصلوا إلى الحكم ليطبقوا النظام الذي يزعمون أنه نظاما إسلاميا. هل الديموقراطية هي ماتمثل النظام الإسلامي؟

هل تستطيع أي جماعة أن تقوم بشرح نظام الحكم الإسلامي الذي تدعو إليه ؟

إنه نفس فكر الإختزال الذي تحدثنا عنه سابقا عندما إختزلت هذه الجماعات نظام الحكم الإسلامي في تطبيق الشرع و إقامة الحدود وأخذ البيعة للإمام والولي من الأمة فتصبح كل علوم الإدارة والسياسة والإقتصاد لا محل لها من التطبيق إن هي خالفت نظام الحكم الإسلامي الذي لم يفصح عنه أي من هذه الجماعات.

لقد نسي هؤلاء المتشدقين بأسم دين الجماعات أن الله حق و أنه حكيم، و أنه سبحانه إذا أقام نظاما فإنه سيقيمه بما يحفظ عدله ولن يسمح أبدا أن يتسلل إلى هذا النظام ما يخلق الفرقة بين الناس أو مايمكن أن يكون للبشر قول فيه. لهذا وضع الله قانونه واضحا صريحا لايقبل المجادلة عندما أوضح أوامره ونواهيه للخلق صريحه لا ريب فيها لا تقبل النقاش أو المجادلة يفلح من أتبعها ويضل من تركها. ولكن العزيز القدير ترك ما دون ذلك للبشر يجتهدون ويحاولون ويبتكرون ويطورون من النظم والقوانين واللوائح بما يتفق مع إحتياجاتهم ومتطلباتهم ومخططاتهم كلا حسب النظام الذي يسير وفقه شريطة أن يراعي الحاكم الله في رعيته وأن يراعي الرئيس الله في مرؤسييه وأن يراعي الرجل الله في بيته... أولسنا كلنا راعي وكلنا مسئوليين عن رعيتنا.

لقد قامت دولة الخلافة الإسلامية في بداياتها وفق نظم إدارة تم إستيرادها بالكامل من الحضارات التي سبقتنا أو التي تفوقت علينا فكان هناك الديموقراطية والديكتاتورية والرأسمالية والإشتراكية وكلها نظم إدارية وسياسية سبقنا إليها الغرب وعمل عليها ودرسها وطورها وجعل منها علوما تدرس لنأخذ منها ما يناسب قيم وظروف و إتجاهات مجتمعاتنا الشرقية ولكن يبقي المحك الأخير دائما في مدي إلتزام الحاكم بمراعاة الله في رعيته. هذا هو لب النظام وقلبه وجوهره ... بل أن هذا هو النظام بعينه ... !!

هكذا كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما حكم.. فعدل... فأمن... فنام

وهكذا لحق بركب الخلفاء الراشدين الخليفة عمر بن عبد العزيز الذي شابه جده فعدل حتى أن المنادين في عصره الذي إستمر لعامين فقط كانوا يبحثون عمن يستحق زكاة أو يحتاج لمساعدة أو يطلب الزواج.

هذا هو نظام الحكم في الإسلام بكل مايعنيه من مفردات لغوية، أن يراعي الحاكم الله في رعيته مهما كان النظام الوضعي الذي يتم تطبيقه ومهما كانت الإجتهادات الدستورية في

تفسير هذا النظام ومهما كانت المأخذ الشرعية عليه لإن العدل هو أساس الحكم، فإن لم يكن هناك عدل ولا حق فلا حكم ولا نظام.

وأعود لإسأل ... أي إسلام هذا الذي يحارب في وطنه ؟ هل هو إسلام الشيعة أم إسلام السنة، إسلام السلفيين أم إسلام الإسماعيلية أم أنه إسلام العامة المتحيرين بين هذا وذاك ... أي إسلام هذا الذي يحارب في وطنه؟

أي إسلام هذا الذي يحاربون من أجله بعد أن تم تفريقه بين الطوائف والجماعات والمذاهب والشيع المختلفة وكل منهم يجاهد ويقاتل ويقتل أبناء وطنه من أجل إعلاء راية الإسلام كما يرونه وكما يفهمونه ... أي إسلام هذا الذي يُقتَل من أجله أتباعه بيد إخوانهم بعد أن تم تفريقهم وتقسيمهم ؟

إنه بالطبع إسلام الجماعات - علي إختلاف عقيدتها - الذي يحارب في وطنه من مستعمر يريد فرض نفوذه علي مقدرات هذه الأمة فلم يجد خير من أبناؤوه الذين تم إستخدامهم بهذا القدر من التغييب الفكري أو بما أسميناه من قبل بعبودية اللافكر ليقوموا بتقسيم الإسلام بيدهم لا بيد المستعمر كلا حسب عقيدته ليصبح دور كل من يريد بهذه الأمة سوء هو أن يساند فرقة علي الأخري أو يدعم جماعة دون باقي الجماعات لتقوم بدورها في تكفير المجتمع وتشحن أتباعها ليهدموا أوصال هذا المجتمع وهم مقتنعين أنهم بهذا يعيدون بناء أمجاد دولة الخلافة التي قامت يوم قامت علي تجميع الأمة ولكنهم اليوم يفرقونها ويقسمون أوصالها فرقا... فرقا.

وإسمحوا لي أن أختم كتابي هذا بكلمة قالها إمام هذا الزمان فضيلة الشيخ محمد متولي الشعراوي في حديث له تم إذاعته علي قناة إقرأ (http://youtu.be/gRihmBfImBM) وهو يتحدث عن الأثر السلبي لتعدد الجماعات في الإسلام و خلط المسلمين لقضايا دنياهم مع القضايا الدينية. وسوف أترك للقارئ الكريم المساحة والسعة من الوقت لكي يتفكر في كلمات الشيخ الشعراوي وفيما أفردناه في هذا الكتاب من تاريخ فكرة تكوين الجماعات وطريقة عملها وكيفية تجميع الأتباع في شكل قطيع لايعقل إلا مايعقله كبيرهم ولايري إلا مايراه كبيرهم ولا يسمع إلا مايسمع كبيرهم... لعلك سيدي القارئ تستطيع أن تقي نفسك وأهليك مغبة العيش في قطيع.

يقول الشيخ الشعراوي في حديثه المرئي المسجل:

((جاء الإسلام في بداياته ليجمع ولكنه الآن يفرق بين العباد . فالمذاهب الرعناء والطوائف الحمقي والفئات التي إتخذت من دين الله، كل طائفة أخذت لون تعصبت له ولم تري الإسلام إلا فيه، بل ربما تسامي بها الأمر أو تنازل بها الأمر لدرجة أنها تكفر المذاهب الأخري... تلك قضية جعلت الإسلام الآن وسيلة تفريق لا وسيلة تجميع.

لا شك أنهم رأوا الإسلام فرق وطوائف ومذاهب وكل طائفة تري نفسها هي التي تمثل الإسلام وتكفر الطوائف الأخري. فإن كان الإسلام صحيح في مذهب فيصبح المذاهب الأخري باطله ليصبح إسلام اليوم ليس هو الإسلام كما بدأ فإن و افقه إحدي الطوائف فقد خالفته الطوائف الأخري. أنظروا كيف مهد المسلمون بجعل دينهم فرقا إلى الأعداء ليدخلوا من هذا الباب وصدق الله عندما قال ﴿ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شئ ﴾

هذه الظاهرة إنما نشأت لخطأ المسلمين في فهم كثير من قضايا الدين الأساسية التي جاءت من عند الله ... والله حق والله حكيم لايمكن أن يغفل عن شئ فيه مصلحة للبشر ولايمكن أن يجعل لمبدأ يفرق الخلق أن يتسلل إلى منهجه لإنه حق و أنه حكيم ... وكثير من المبادئ الوضعية لها ظاهر يروق ودافع يجذب مهما كان أمر هذا المذهب فمثلا الشيوعية كما الرأسمالية لها لون يعجب وبالتطبيق يأتي لون لايعجب وكل ناحية من نواحي التفكير البشري لايمكن أن تدخل علي العالم لتغزوه بقبح إجماعي، بل لابد أن تدخل عليه بلون جمالى مزخرف وإن سترت في طيها أشياء. إذا فكل أمر يهتدي إليه الفكر لابد أن يكون له ناحية جمال تغري ويستطيع الإنسان أن يقدمها بين يدي مطلوبه.

مثلا في النظام السياسي يوجد ما يسمي الديكتاتورية وعلي النقيض مايسمي الديموقراطيه والعذر في إستخدام هذين اللفظيين الو افدين علي اللغة وعلي بيئة الإسلام لإننا أخذنا كل حضارتنا مستوردة من الخارج. عندما يجئ النظام الديكتاتوري لابد أن يكون فيه فكرة تروق الناس حتى يتغلغل ثم يأتي بعد ذلك بما يعجب الديكتاتور.

فلو أن كل أمر أردنا أن نصلح به وفرقناه إلى أن نأخذ جمهرة رأي الناس فيه لما إلتقينا علي شئ ولكنا معوقيين، إلى أن نصل إلى أمر الإتفاق أن الناس أهواء متغيرة. ومن هذا جاءت القضية أن الشرق لايصلح له إلا مستبد عادل ... مستبد يعني أنه لايسأل عن رأيه وعادل أنه يفرض علي الناس ماهو حق حتى يستطيع أن يخرج من غوغائية النقاش وجماهيرية الإستفتاء.

وهو مايعني أن الديكتاتورية لها شكل يفيد من البت في الأموربسرعة وبحزم ولاتدخل فيها الغوغائية ولكن من يضمن أن يأتي لنا هذا النظام بمن سيحتاط لكي لايأتي إلا بقضايا عدل وقضايا حق وهو مايعني أن هذا النظام فيه ملمح خيرو ملمح شر. وكذلك هو الأمر في الديمقراطية فيها ملمح الخير أن تحكم الناس بما ترتضيه ولكن طول مدة القرار من الأخذ والرد بما يجعلنا نؤجل الكثير من الأعمال حتى يتخذ فيها قرار ديمقراطيا وهو مايحمل ملمح جمالى لإنها نابعه من الكل وليست مفروضة من شخص ولكن لايزال فيها ملمح القبح من تأجيل أعمال الإصلاح.

وكما أن الشيوعية فيها ناحية الحسن من الإستقرار الإقتصادي فإن الرأسمالية فيها أيضا ناحية الحسن من الحافز. والدليل أن في العصر الواحد والذي هو عصر الإلتقاء القريب الإمكانيات والقريب الأجواء مبدئين متناقضين ولكن يوجد قضايا متقابلة ولكل منهما أنصار إلا أن الإسلام قد أخذ الحسن في جانب الديكتاورية وترك ملامح القبح فيها وأخذ الحسن في جو انب الديموقراطية وترك جو انب الشر فيها فأعطانا الأمرين بسوية وبعدالة وأخذ من كل أمر خيره فالأمور التي يجب أن يبت فيها بحزم ولايترك لأهواء البشر فيها مجال شرعها الله تشريعا لايجعل لأحد إستدراك عليها أبدا وتلك هي صفة الديكتاتورية)).

إنتهي كلام الشيخ الشعراوي.. و إنتهي معه أي كلام أخر.. فهذا هو فصل الخطاب.

تعريف بالكاتب

- محمد وجدي شاهين مهندس مدني خريج كلية الهندسة جامعة الإسكندرية عام 1987 وحاصل علي درجة الماجيستير والدكتوراه في إدارة المشروعات من جامعة جرين لايك الأمريكية ومتخصص في إعداد الدراسات التحليلية والأبحاث الإحصائية والتخطيط الإستراتيجي.
- قام الكاتب بنشر العديد من المقالات المتخصصة في علوم الإدارة والتنمية البشرية في مجلة عالم الأبحاث والتقنية ومجلة علوم الإدارة السعودية في الفترة بين عام 2000 و عام 2010 وصل عددها إلي ما يزيد عن خمسين مقال.
- كما قام الكاتب بنشر العديد من المقالات البحثية في العلوم المجتمعية والمقارنات الدينية وذلك في العديد من الجرائد المصرية والصفحات الإليكترونية
- للكاتب العديد من الكتب التي قام بنشرها منذ عام 2011 حيث بدأ نشر أول كتاب له بعنوان "بلطجة" والذي يناقش ثقافة الذراع وفرض القوة التي إنتشرت في المجتمع المصري وذلك من خلال رصد العديد من المواقف القصصية التي توضح تعمق ثقافة البلطجة بين جميع طبقات المجتمع المصري
- تم نشر كتاب "جمهورية الخرفان" في شهر مايو من عام 2013 والذي يمثل تأريخ لفكر الجماعات في التاريخ الإنساني وصولا إلي الدولة الإسلامية وبداية المذهبية الإسلامية بين الشيعة والسنة والإنقسامات التي حدثت لكل مذهب

الفهـــــــرس

إهداء .... 3..
تقـــــديم 4
النشأة.. 8
التدين والتسييس 23
إنقسام أم ردة... 40
تفكير أم تكفير؟! 62
طوائف وجماعات 74
الوطن والمواطنة...107
فكر القطيع..120
دين الجماعات 139
الانفصال المجتمعي 163
السمع والطاعة 181
الخاتمة 203
تعريف بالكاتب 220

جمهورية الخرفـــــان

رؤية: د.م. محمد وجدي شاهين

تنسيق: إيـمان محمود محمد أحمد

الغلاف: محمد طه مخلوف

رقم الإيداع: 2023/27952

الترقيم الدولي: 978-977-87152-2-2

© جميع الحقوقِ محفوظةٌ، وأي اقتباسٍ أو إعادة طبع أو نشر في أي صورة كانت ورقيةً أو الكترونيةً أو بأية وسيلة سمعية أو بصرية دون إذن كتابي من المؤلف؛ يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

ahmedragbmait@gmail com
012221235833

الطبعة الخامسة 2023

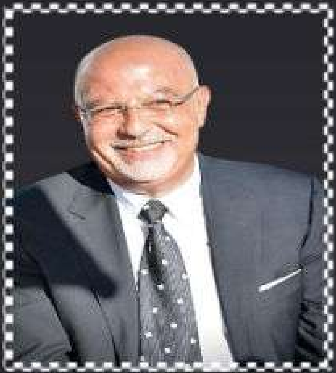

جمهورية الخرفان

د.م. محمد وجدي شاهين

يقول الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في تصنيفه لأنواع البشر: ((الناس ثلاثة. عالم رباني ، ومتعلم علي سبيل النجاة وهمج رعاع أتباع كل ناعق لم يستضيئوا بنور ولم يلجأوا إلي ركن وثيق)).

ويقول إبن رشد : ((تجارة الدين هي التجارة الأكثر رواجاً في المجتمعات التي يسود فيها الجهل))

ويقول العز بن عبد السلام : ((من أراد أن يعرف المتناسبات والمصالح والمفاسد راجحها ومرجوحها فليعرض ذلك على عقله، بتقدير ان الشرع لم يرد به ثم يبني عليه الأحكام. فلا يكاد حكم منها يخرج عن ذلك الا ما تعبد الله به عباده ولم يقفهم على مصلحته أو مفسدته))

وبقول الشيخ الشعراوي رحمة الله عليه : ((جاء الإسلام في بداياته ليجمع ولكنه الآن يفرق بين العباد . فالمذاهب الرعناء والطوائف الحمقي والفئات التي إتخذت من دين الله ، كل طائفة أخذت لون تعصبت له ولم تري الإسلام إلا فيه ،بل ربما تسامي بها الأمر أو تنازل بها الأمر لدرجة أنها تكفر المذاهب الأخري .. تلك قضية جعلت الإسلام الآن وسيلة تفريق لا وسيلة تجميع)).

ولهذا يري الكاتب محمد وجدي شاهين أن إن تاريخنا يحكم حاضرنا ويشكل مستقبلنا . فمن أعطي نعمة العقل كان لزاما عليه أن يتدبر في تاريخه وأن يعتبر من حاضره لإن دليل الحمد علي نعمة العقل هي في إعمال العقل بالتدبر والتفكير فيما يأتينا من أفكار ومعتقدات إنسانية... إن دليل الحمد علي نعمة العقل هي في إستخدامنا لعقولنا حتي لا نصبح .... فردا في قطيع إرتضي أن يستبدل وطنه بجماعته بعد أن إرتضي أن يستبدل دينه بعقيدة إنسانية.

إن جمهورية الخرفان هي دولة تقوم علي الفرقة وتجمع داخلها أتباع كل ناعق ممن لم يستضيئوا بنور ولم يركنوا إلي ركن وثيق من فهم صحيح الدين لتصبح تجارة الدين هي الرائجة في هذه الجمهورية بعد أن تعصبت كل طائفة إلي عقيدتها ولم تري الإسلام إلا فيه . فأختلط عليهم الأمر ولم يستطيعوا أن يفرقوا بين المصالح والمفاسد عندما إرتضوا أن تغيب عقولهم وأن يصبحوا كحبات المسبحة في أيدي أميرهم ومرشدهم يحركهم كيفما يشاء.